المركز القومى للترجمة

المشروع القومى للترجمة

نظرة على مصر

فى زمن بونابرت

تأليف : چان - چاك لوتى
ترجمة : ناجى رمضان عطية
مراجعة وتقديم : أحمد زكريا الشلق



1132

نظرة على مصر فى زمن بونابرت

المشروع القومى للترجمة
إشراف : جابر عصفور

- العدد : ١١٣٢
- نظرة على مصر فى زمن بونابرت
- چان - چاك لوتى
- ناجى رمضان عطية
- أحمد زكريا الشلّق
- الطبعة الأولى ٢٠٠٨

هذه ترجمة كتاب :

Regard Sur l' Egypte

Au Temps de Bonaparte

De : Jean - Jacques LUTHI

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة . ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ - ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El-Gabalaya St., Opera House, El-Gezira, Cairo

e.Mail:egyptcouncil@yahoo.com **Tel.:** 27354524 - 27354526 **Fax:** 27354554

چان - چاك لوتى

نظرة على مصر فى زمن بونابرت

ترجمة وتعليق : ناجى رمضان عطية

مراجعة وتقديم : أحمد زكريا الشّلق



٢٠٠٨

بطاقة الفهرسة

إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

إدارة الشئون الفنية

لوتي ، چان - چاك

نظرة على مصر في زمن بونابرت/ چان - چاك لوتي ؛ ترجمة وتعليق ناجي رمضان عطية ؛ مراجعة وتقديم أحمد زكريا الشِّلق . - ط١. - القاهرة / المركز القومي للترجمة ، ٢٠٠٨

٢٨٨ ص ، ٢٤ سم - (المشروع القومي للترجمة)

١ - مصر - تاريخ - الحملة الفرنسية (١٧٩٨ - ١٨٠١م)

أ - عطية ، ناجي رمضان (مترجم ومعلق)

ب - الشِّلق ، أحمد زكريا (مراجع ومقدم)

جـ - العنوان

د - السلسلة .	٩٦٢,٠٢

رقم الإيداع ٢٠٠٨/٨٤٥٠

الترقيم الدولي I.S.B.N. 977-437-703-6

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومي للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربي وتعريفه بها ، والأفكار التي تتضمنها هي اجتهادات أصحابها في ثقافاتهم، ولا تعبر بالضرورة عن رأي المركز .

إهداء المترجم

إلى :

أحمد عبد الله رُزَّة ،

أحمد نبيل الهلالى ،

يوسف درويش ،

شموع ثلاث انطفأت تباعاً ،

ولكن حبوب سُنبلة تجف ستملأ الوادى سنابل .

المحتويات

تقديم

أحمد زكريا الشلّق

لا تزال الدراسات تترى حول الغزوة الفرنسية لمصر (١٧٩٨- ١٨٠١) لتميط اللثام عن بعض المعلومات الجديدة، أو تعيد تأويل تاريخها بوجهات نظر متباينة، ويرتبط ذلك بطبيعة الحال بما يستقر فى الذهنية الفرنسية من تمجيد "للأسطورة النابليونية" ، كما يرتبط من جانب آخر بقضية علاقة الغرب بالعالم الإسلامى وما يتصل بها من قضايا النهضة والحداثة.

وفى ذكرى مرور مائتى عام على الغزو الفرنسى لمصر ، أراد الكاتب والمستشرق الفرنسى المعاصر "جان جاك لوتى" أن يدلى بدلوه فى هذا الحدث المهم فى تاريخ فرنسا وفى تاريخ مصر على حد سواء، فوضع هذا الكتاب مفسراً أحداث الحملة ومسلك الاحتلال الفرنسى من وجهة نظره ، خاصة أنه مهتم، على نحو خاص، بتاريخ مصر الحديث والمعاصر ، وبالأدب المكتوب بالفرنسية فى مصر، حيث تدور معظم أعماله تقريباً.

ومؤلفنا أستاذ جامعى متخصص فى الأدب والتاريخ، ولد فى جنيف بسويسرا، وحصل على درجة الدكتوراه فى تاريخ الفن من جامعة "ليل" بشمال فرنسا، ثم حصل على دكتوراه الدولة فى الآداب، فى فقه اللغة المقارن، من جامعة السوربون بباريس،

وخلال ذلك كله وبعده، عمل فى مجالات عديدة ومختلفة كالتدريس والكتابة والصحافة، بل عمل بالتجارة، كما أقام لفترات متفاوتة فى كل من فرنسا وإيطاليا والسويد. وقد مارس التدريس فى جامعة ستوكهولم، وفى اتحاد الدراسات بالسويد، وهناك إشارات إلى أنه ألقى بعض محاضراته فى جامعة القاهرة.. وقد شارك لوتى فى العديد من المؤتمرات الدولية المتعلقة بالآداب وعلوم اللغة، كما حاز على عضوية عدد من الأكاديميات الدولية، منها أكاديمية علوم البحار عام ١٩٨٢، فضلاً عن مشاركته فى تأليف العديد من الكتب وترجمتها .

وقد كرَّس لوتى جُلَّ اهتمامه لمصر، خاصة فى مجالى التاريخ واللغة – كما أشرنا – وهذا يتضح من أن جميع أعماله تقريبًا – باستثناء كتابين وضعهما عن الرسام الفرنسى إميل برنار – تدور حول مصر والثقافة الفرنسية، وعن اللغة الفرنسية المستخدمة فى مصر، والتى يرى أنها اكتسبت خصائص ميزتها عن اللغة الأم، كما اهتم بالأدب الفرنكفونى، وعلى الأخص الأعمال المكتوبة باللغة الفرنسية، إما لأدباء مصريين أو لأدباء نشأوا فى مصر.

وفى مجال اللغة والأدب وضع لوتى كتابه "مختارات من الشعر الفرنكفونى المصرى" ، كما اهتم برصد اللغة الفرنسية على ألسنة المصريين، ووضع عن ذلك كتابه "سعيًا وراء اللغة الفرنسية المستخدمة فى مصر" ، كما ألف أيضًا فى هذا الصدد كتابا تحت عنوان "مدخل إلى الأدب الناطق بالفرنسية فى مصر من ١٧٩٨ حتى ١٩٤٥" نشره عام ١٩٧٤ ، ثم أعاد إصداره فى طبعة مزيدة امتدت بفترته الزمنية إلى عام ١٩٩٨ ليصدر فى شكله الجديد عام ٢٠٠٠ ، كما أن له "دراسات عن الصحافة المصرية المكتوبة بالفرنسية ، ومؤلفات أخرى منها : "خمسون عامًا من الأدب الفرنسى فى مصر"، و"وماذا فعلت مصر باللغة الفرنسية ؟" ، وكذلك وضع قاموسًا عامًا للفرنكفونية نشر عام ١٩٨٦ .

وفى مجال التاريخ وضع لوتى خمسة كتب؛ تتناول تاريخ مصر الحديثة

والمعاصرة ، لم يخضع تاريخ صدورها للتسلسل الزمنى، ربما لاختلاف أوقات تأليفها أو لسياسة النشر ، لكنها تقدم في مجموعها عرضًا تاريخيًا من خلال رؤية المؤلف للفترة الممتدة منذ رحيل بقايا الحملة الفرنسية عن مصر فى عام ١٨٠١ حتى عام ٢٠٠٥ ، ولعلنا نلاحظ من عناوين هذه الكتب أنه التزم بأشكال نظام الحكم وعهود الحكام، ومن هنا كتب عن عصور الولاية والخديوية والملكية فالجمهورية، وإن لم يتوقف عند عهد السلطنة الذى عرفته مصر بين عامى ١٩١٤ و١٩٢٢ وهو عهد الحماية البريطانية على مصر.

وقد رتبنا هذه المؤلفات تاريخيا على النحو التالى:

١ – نظرة على مصر فى زمن بونابرت (١٧٩٨ – ١٨٠١) الذى صدر فى عام ١٩٩٩ ، وهو الكتاب الذى بين أيدينا.

٢ – مصر فى زمن الولاة (١٨٠١ – ١٨٦٣) أى منذ رحيل الفرنسيين حتى بداية عصر إسماعيل، وقد صدر فى عام ٢٠٠٣ .

٣ – الحياة اليومية فى مصر الخديوية (١٨٦٣ – ١٩١٤) وقد صدر فى عام ١٩٩٨ .

٤ – مصر فى عهد الملكية (١٩٢٢ – ١٩٥٣) وقد صدر فى عام ١٩٩٧ .

٥ – مصر فى عهد الجمهورية (١٩٥٢ – ٢٠٠٥) وقد صدر فى عام ٢٠٠٦ .

ويعد لوتى من دعاة الفرنكفونية المعاصرين، فهو من المتشيعين لمنظومة القيم والثقافة الفرنسية والمولعين بها حتى النخاع، بل إنه من العاملين الناشطين فى مجالها، الأمر الذى أهله لكى يصبح نائبًا لرئيس منتدى (رشيليو سنجور) ذلك المنتدى المعنى بتشجيع الثقافة الفرنكفونية وتنشيطها على نحو كبير ، كذلك ساهم لوتى بمقال فى موسوعة "الطلائع الأدبية فى القرن العشرين" صدر تحت عنوان، يدل على نفس التوجه لديه، وهو "السريالية الفرنسية فى شمال إفريقية وفى الشرق الأوسط"، لكن

يبدو أن هذا التوجه الفرنكفونى يطغى على شغفه بمصر، التى وجه إليها جُلَّ اهتمامه الأكاديمى، ذلك أن الفرنكفونية، كما تتراءى فى كتاباته، هى فى المقام الأول ولع بفرنسا وتشيع كامل للقيم والثقافة الفرنسية... وتكشف مؤلفاته التى وضعها عن مصر عن ذلك بشكل بين، ففى مقدمته لكتابه "سعيًا وراء اللغة الفرنسية المستخدمة فى مصر"، يتهم المصريين بسوء فهم الحملة، ويتعجب من تذمرهم منها [يقصد المقاومة الوطنية] بينما جعلتهم هذه الحملة يفيقون من غفوتهم ومن جهلهم، ومن تمسكهم بعاداتهم البالية ..!! كما يرى أن من أهم نتائج الحملة أنها أرست دعائم الفرنكفونية فى مصر ولمدة طويلة .

* * *

وعند قراءتنا لهذا الكتاب سوف يتضح مدى سيطرة النزعة الفرنكفونية على المؤلف، ومن ثم روايته للأحداث والوقائع وتحليله لمفردات الصورة على ضوء تلك النزعة، ومن خلال انبهاره "بالأسطورة النابليونية" وتمجيد العظمة الفرنسية فى شخص بونابرت وانتصاراته، فهو القائد الذى حمل التحضر والثقافة الفرنسية الحديثة فوق عربات مدافع جيشه وعلى صهوات جياده، ولذلك تشكل تلك الأسطورة، فى تقديرى، أحد روافد هذه النزعة الفرنكفونية ، وبهذا يمكن تفسير لماذا قصر المؤلف عنوان كتابه على بونابرت وفترة حكمه للقاهرة، بالرغم من أنها لم تتجاوز ثلاثة عشر شهراً ، وبالرغم من أن الكتاب فى مضمونه، يتناول فترة الاحتلال الفرنسى لمصر كلها ، وهى ثلاث سنوات وثلاثة أشهر، مما يؤكد أنه أحد "الدراويش" الذين أسكرتهم أسطورة بونابرت، التى روّج ملحمتها عدد كبير من المؤرخين والكتاب الفرنسيين ومن شايعهم، من هؤلاء الذين بالغوا فى الإشادة بتأثير الغزو الفرنسى ودور الاحتلال وقدموا تقييمًا إيجابيًا له، انتهى بأن جعلوه بداية ليقظة مصر وتحديثها .

لقد صدر هذا الكتاب بالفرنسية ضمن سلسلة تحمل عنوان "فهم الشرق الأوسط" مما يعطى انطباعًا واضحًا عن الجمهور الذى قصده المؤلف بخطابه، فهو بطبيعة الحال

ذلك الجمهور الأوروبى المثقف، فضلاً عن المثقفين من أبناء العالم الثالث، ومن هنا حمل الخطاب طابعًا دعائيًا وتبريريًا معًا، فإلى جانب ترويجه للأسطورة الفرنسية، قدم تبريرات تنطوى على قدر كبير من الخفة ومجافاة الموضوعية العلمية فى تفسيره لحملات الغزو الإمبريالية وتأثيرها فى "نهضة وتحديث" الشعوب المحتلة ، استناداً إلى مصادر الغزاة أنفسهم وحدها، دون أن يعبأ بدراسة رد الفعل والنتائج، أو حتى برأى المصريين أنفسهم موضوع الحملة .

أما عن أطروحة الكتاب الأساسية فقد قدّم غلافه خلاصة لها موضحاً محاولة المؤلف رسم الصورة التى كونها بونابرت عن الحياة فى القاهرة خلال فترة حكمه لها، أو الصورة التى اعتقد المؤلف أن القاهرة كانت عليها زمن بونابرت، والتى وصفت المصريين بأنهم كانوا يرقبون، بتحفظ وشك، الجنرال وجيشه وعلماءه، هؤلاء الذين قلبوا بأعمالهم عادات المصريين فى التفكير والعمل... وهكذا [وبصيغة القطع]، تذكر الأطروحة "أن الفرنسيين – بشكل لا يمكن إنكاره – أسهموا فى تقدم مصر وأنهم أشركوا المصريين فى إدارة بلادهم، وأدخلوا أدوات وتقنيات جديدة إليها مثل المطبعة والمكتبة ..إلخ، إلا أن المصريين رفضوا كل ما أتى به هؤلاء، ولم يكونوا على استعداد لتقبل هذا الكم من المنجزات الحديثة.." .

وسوف نلاحظ أن مؤلفنا ينظر إلى حقائق التاريخ ويفسرها من حيث يشاء وكيف يريد، لا من حيث ظروفها وملابساتها، فعند حديثه عن رحيل بونابرت عن مصر، ذكر "أن الجنرال، لكى يكسر جدار العزلة الذى يحيط به وسط شعب معاد، قرر أن يغادر مصر سراً.. "وهو بهذا يتجاهل أن بونابرت أدرك أن مشروعه الاستعمارى أوشك على الفشل بعد هزيمته فى حملة سوريا، وأن الأنباء أتته من أوروبا تفيد بهزيمة الجيوش الفرنسية فى إيطاليا والنمسا ، مما يعنى أن الخطر أحدق بفرنسا، التى كان يأمل أن يصله منها مدد عسكرى، وأصبح عليه أن يفكر فى إنقاذ بلاده، بعد أن أدرك أن مصيرها لن يتقرر على ضفاف النيل وإنما على ضفاف الراين، وأن عليه أن يعود من حيث أتى.

ويرى الكاتب كذلك أن المصريين تعلموا مع بونابرت حكم بلادهم بأنفسهم، وأن بونابرت أول من طالب كبار الأعيان والمشايخ المشاركة فى مهام ومسئوليات الدولة، وذلك بالانخراط فى الدواوين التى أقامها.. فى حين أن المؤلف لم يأت بما ذكره بونابرت نفسه فى مذكراته من أنه لجأ إلى كبار هذه الفئة ليستخدمهم كوسطاء بين الحكام الفرنسيين والشعب، أى بين المحتلين وضحايا الاحتلال ، وعلى الرغم من أن هناك من يرى أن هذه التجربة أيقظت المصريين ونبهتهم إلى حقهم فى ممارسة السلطة فى بلادهم، فلم يكن ذلك هو هدف سلطات الاحتلال، فالثابت أن هذه الدواوين كان تأثيرها شكليًا وطبيعتها استشارية، كما كانت خاضعة لرقابة وإرادة بونابرت وقادة جيشه، كذلك فإن نشاطها وتعطيلها خضع لمشيئتهم ، والمعروف أن مشايخ الديوان قد تعرضوا فترة للاعتقال، يضاف إلى ذلك أن سلطات الاحتلال كانت تتخذهم وسيلة للضغط على الأهالى أو تهدئة ثوراتهم، أو تمرير وتبرير سياستهم.. والتقييم النهائى للتجربة يثبت أن فائدة الحكم الفرنسى منها كان أهم وأكبر من فائدة المصريين، مما يؤكد أن الفرنسيين احتلوا البلاد ليحكموها، لا ليدربوا أهلها على حكم أنفسهم .

لقد وصف لوتى الشعب المصرى بأنه "لا توجد لديه صفة قومية وأنه بلا حيوية، وأنه منحط لدرجة العبودية، كما أنه شعب جبان، ولا يحتشد إلا بدافع التعصب.. إلخ"، وفى رأينا أن هذه الصفات لا تصدر إلا عن جهل بيِّن بأصول هذا الشعب وتاريخه وبطبيعته الخاصة، ولعلنا نتذكر أن بونابرت فى بياناته كان يخاطب الناس باعتبارهم "أمة مصرية" ، مما جعل بعض المؤرخين يعتقدون أنه أيقظ فيهم الشعور بتميزهم القومى، كما أن هناك من يرى أن مقاومة المصريين للاحتلال الفرنسى صدرت عن شعور قومى.. والواقع فإن عدم وعى المصريين – آنذاك – بصفاتهم القومية واعتبار أنفسهم من رعايا السلطان العثمانى، لا ينفى أن لهم فى الواقع كيانًا قوميًا خاصًا شكَّله ماضى بلادهم وحضارة أجدادهم.. وهل يمكن أن نصف شعبًا يثور دفاعًا عن كيانه ودينه وأرزاقه بأن التعصب هو الذى دفعه لذلك..؟!

لقد أفرط الكاتب فى الحديث عن فترة الانهيار والفوضى التى شهدتها مصر قبيل الغزو الفرنسى، والتى شكلت أزمة نهاية القرن الثامن عشر المعروفة، حين تردت الأوضاع السياسية والأمنية، ومنيت البلاد بكوارث طبيعية، وشهدت تدهوراً اقتصادياً وكذلك موجات من القحط والأوبئة والفياضانات، فضلاً عن احتدام الصراعات بين بكوات المماليك، الذين برزت قوتهم بسبب ضعف السلطة المركزية فى استانبول، وخضع المصريون لعمليات ابتزاز مريعة فى ظل الحكم الثنائى لإبراهيم بك ومراد بك... ومن هنا جاء المؤرخون الأوروبيون ليعمموا ما حدث خلال هذه الفترة على العصر العثمانى كله لتكريس نظرة استشراقية استعلائية لتاريخ مصر خلال هذا العصر، بهدف الوصول إلى نتيجة مفادها أن مصر لم تعرف النهضة والحداثة إلا على أيدى الأوروبيين، وخاصة مع بونابرت وحملته التى يرى مؤلفنا أنها أصلحت أوضاع مصر وضبطت أمورها، وأراحت الفلاحين من ابتزاز المماليك، ونشّطت التجارة، ووضعت أسس الصناعة الحديثة فى مصر، بما قدمه العلماء والعسكريون الفرنسيون من معارف لخدمة المصريين... إلخ ، بينما لم يتحدث عن ابتزاز الفرنسيين للمصريين بوسائل المماليك نفسها والتى تحدثت عنها المصادر الفرنسية، ولا عن ثورات المصريين المستمرة ضد الاحتلال، ولا عن المصريين الذين استوعبوا الحضارة الحديثة فى عصر محمد على..

ولا يستنكر المؤلف، الذى سبق أن تحدث عن استعباد المماليك للمصريين، أن "الجنرال بونابرت عمل على تنمية تجارة العبيد لمصلحة الغزو الفرنسى" وهو ابن الحضارة الإنسانية الراقية..!! ، كما أنه لم ير بأسًا من أن يكون الجنرال كاذبًا ومخادعًا باعتباره "استطاع خداع المصريين وأقنعهم بأنه أتى باسم السلطان العثمانى لإبادة المماليك".

وفى الفصل الذى كتبه المؤلف عن الحياة الفكرية والعلمية الذى تحدث فيه عن المعهد العلمى المصرى والمطبعة والصحافة، عرض ما استحدثه الفرنسيون فى هذا

الشأن بطريقة تعطى انطباعًا بأنهم جاءوا لنشر العلم والمعرفة بين المصريين، فهو يذكر أن العلماء والعسكريين الفرنسيين قدموا معرفة مرت عالية فوق رءوس المصريين، وكانت أعلى بكثير من قدرتهم على الإمساك بها، وأن المصريين أظهروا اللامبالاة والعداء تجاهها ..إلخ ومن الطريف أن لوتى ذكر أن بونابرت اهتم بمشكلة التعليم فى مصر، فأنشأ "مدرسة الوطن" لتعليم أبناء الفرنسيين والبحارة ، وأنها فى وقت لاحق كانت ستستقبل المصريين بالتأكيد بين صفوفها..! وأضاف أن الجنرال كانت لديه خطط واقتراحات لإنشاء مدارس للطب والرسم والزراعة.. وكان لابد لهذه المنشآت أن تنشّط العقل المصرى وتنبهه...

ولابد لنا أن ننتبه إلى أن مؤلفنا كان يتحدث عن مدرسة فرنسية لتعليم أبناء جلدته ، كما أنه يتحدث عن اقتراحات لم تنفذ بصيغة تبدو معها كما لو كانت قد نُفذت وأنها آتت ثمارها، ونلاحظ أن الكثير من تعبيراته كانت ذات طابع دعائى، يعطى الانطباع بأن ما تحدث عنه حدث بالفعل دون أن يستند إلى حقائق ومنشآت أقيمت، فعلى سبيل المثال يذكر أن بونابرت "عندما وزع برنامج عمل المجمع، فإنه قد أعطى دفعة للأذهان لكى تتقدم، وكان على موعد مع المستقبل، لأن مصر حتمًا ستطرح هذه المسائل وستناقشها لكى تصبح دولة عصرية... " ، وفى حديثه عن الصحافة ذكر أنه "ربما تكون الحملة قد أصدرت صحيفة ثالثة باللغة العربية هى (التنبيه) لكن لا توجد منها أية نسخة "ولو كان المؤلف قد قرأ مصادر الحملة بعناية لما تحدث عن هذا الاحتمال ، فالثابت أن هذه الصحيفة لم تصدر مطلقًا، وأن الفرنسيين اكتفوا بصحيفتيهما (الكورييه واللا ديكاد اجيبسين) اللتين خاطبوا بهما أنفسهم، شأنها شأن "مدرسة الوطن".

وكذلك كان شأن المجمع العلمى المصرى، الذى كان مؤسسة فرنسية ولم يكن معهداً لتعليم المصريين، فالمعروف أنه كان مركزًا للبحوث والدراسات وكان هدفه واضحًا تمامًا، كما وردت فى مصادر الحملة، وأهمها حل مشكلات الفرنسيين بمصر،

ومدهم بالمعلومات والأبحاث والمشورة، بعد إخضاع مصر لدراسة وصفية شاملة وفق مناهج العلوم الحديثة آنذاك، وذلك لخلق مستعمرة فرنسية مثالية يحسن الفرنسيون إدارتها واستنزافها.. كما يلاحظ أن الكتاب الفرنسيين الذين نقل عنهم لوتى ضخموا من دور المجمع العلمى فى مؤلفاتهم وذلك لدعم فكرة أن الحملة نجحت علمياً وثقافياً، لتغطية الفشل العسكرى الذى حاق بها، وذلك دون أن يقدموا دليلاً واحداً يثبت أن المصريين استفادوا من هذا النجاح.

ونود أن نشير إلى أن الكتاب والمؤرخين اعتادوا أن ينعتوا جماعة المدنيين الذين رافقوا الحملة جميعًا بأنهم من "العلماء"، والذين تراوحت أعدادهم بين ١٦٨ و١٧٥، والواقع أن هذه الجماعة كانت تضم بالفعل عدداً من العلماء المعروفين فى الرياضيات والبيولوجيا والكيمياء... إلخ ، لكن دراسة "بيير سوليه" أثبتت أن معظم هؤلاء المدنيين كان متوسط أعمارهم ٢٥ عامًا، وأن الكثيرين منهم تراوحت أعمارهم بين ١٨ و ٢٥ عامًا، وأنه كان من بينهم ١٧ طالبًا من مدرسة البوليتكنيك الفرنسية، التى أجرت لهم امتحاناتهم فى مصر!!، فضلاً عن أن هذه الجماعة المدنية كانت تضم ١٥ مترجمًا و١٧ مهندسًا مدنيًا و٢٢ طبّاعًا و٩ فنيين فى الميكانيكا و ٣ سيدات و ١٥ فرداً تشك المصادر فى أمر وصولهم إلى مصر.. فهل يجوز بعد ذلك أن نسمى هؤلاء جميعًا "علماء بونابرت" ؟

أما عن سياسة بونابرت الإسلامية التى استهدف بها تملق المصريين فى مشاعرهم الدينية، فلم يخف المؤلف وعيه بمغزاها، حيث رأى أن بونابرت كان يوثق صلاته بالمشايخ والعلماء للتقرب من الأهالى، لأنهم " القناة التى استخدمها لحكم البلاد"، وكان يعتقد أنه بهذه السياسة يمهد "لاقتلاع التعصب" من المصريين ، وعلى الرغم من أن مؤلفنا يتساءل هل كان الجنرال فى أسلوبه هذا يتصرف كسياسى أمين أو دبلوماسى داهية فإنه يرى أنه أظهر اهتمامًا وتعاطفًا لا شك فيهما تجاه الإسلام.. ولم يكن هذا صحيحًا على الإطلاق، ولعل مؤلفنا تجاهل ما كتبه بونابرت نفسه فى

مذكراته فى سانت هيلانة واصفًا بياناته إلى المسلمين بأنها كانت احتيالاً، حتى لقد تهكم الجنرال على البيان الذى قدم فيه نفسه إليهم فى صورة مُلهم أو نبى يتلقى الوحى، ذلك البيان الذى اتخذه الفرنسيون مادة للسخرية والضحك.

لقد رأى المصريون كيف أن جنود الجنرال الذى يحترم دينهم يقتحمون الأزهر ويتبولون ويتغوطون فى أروقته وعلى كتبه ومخطوطاته، ورأوا ما أقامه الجنود من أماكن للترفيه والمجون والخلاعة مما يكشف عن حقيقة "احترامهم" لمشاعر المصريين الدينية، لذلك لم تنطل هذه السياسة الدينية المتملقة على جموع المصريين، بل على العكس كان العامل الدينى من أبرز عوامل مقاومتهم للجنرال وجيشه.

* * *

ومما يلفت النظر أن مؤلفنا عندما يتحدث عن المنازل المصرية فى أواخر القرن الثامن عشر يصفها بانعدام الذوق ويشبهها بالسجون.. فيتغافل عما كانت عليه هذه المنازل من فنون ترتبط بعصرها وجمالياته، كما يصف النجارين المصريين بأنهم لا يحسنون تعشيق الخشب فى صناعة الأثاث، الأمر الذى يجعلنا نعتقد معه أنه يتغافل عن المنازل والقصور الأثرية الموجودة الآن فى القاهرة القديمة على سبيل المثال، كما أنه ينظر إلى منازل عامة المصريين بمقاييس عصرنا هذا متجاهلاً خصوصية الزمان والمكان.. كذلك يقدم المؤلف استنتاجات فاسدة حين يفسر التضامن العائلى الذى يميز الأسرة المصرية ويفرض على أبنائها مساعدة بعضهم البعض، بأن ذلك ينتج عنه محاباة الأقارب، ويذكر كذلك أن التضامن الدينى بين أنصار الدين الواحد يساعد على تكريس المحسوبية، ويمنع المنافسين من الحصول على المناصب..

وعندما وصف المرأة المصرية بأنها لا تشارك فى الحياة خارج المنزل، وأنها تترك إدارة أعمالها لزوجها، فإنه لم يقرأ شيئًا عن الدراسات التى أثبتت أن المرأة المصرية

خلال العصر العثمانى بلغت منزلة كبيرة فى تحصيل العلوم، وتولى المناصب العلمية وممارسة الطب وإدارة الأوقاف، كما أنها كانت تُنتخب لرئاسة بعض طوائف الحرف والصناعات، فضلاً عن إدارة بعض المؤسسات الخيرية والاجتماعية، وأن المرأة كانت تتمتع بقدر كبير من الحرية.

ومن الطريف أن جان جاك لوتى فى خاتمة كتابه انقلب إلى واعظ حين ذكر أن المصريين رأوا جيشًا أحرز انتصارات باهرة ضد قوات معادية، وأن أسس هذه الانتصارات تكمن فى سلوك الأفراد وفى الاستراتيجيات التى وضعها قادة الجيش الفرنسى "وكان يجب على المصريين أن يتذكروا ذلك ويستفيدوا منه" ، كما يزهو المؤلف بأن الحملة الفرنسية على مصر "أرست أسس الفرنكفونية الرائعة والدائمة لمدة طويلة" ، وأن الفرنسيين نشروا الكثير من الأفكار السياسية والاقتصادية والاجتماعية وبدأوا فى تحقيق بعضها "وكان على المصريين وحكامهم أن يستوعبوها .." وكأن لسان حاله يعظ المصريين باستعلاء مؤكداً أنهم لم يستوعبوا جهود التحديث التى أتت بها الحملة الفرنسية ، وأنهم عجزوا عن الاستفادة من المدنية الفرنسية التى أتت فى ركاب الجيش.

ونود أن نشير إلى أن قراءة هذا الكتاب لا تخلو من فوائد عديدة، فهو يوضح لنا نموذجًا لنظرة أحد المؤرخين الفرنسيين لحملات الغزو الإمبريالى التى قامت بها بلاده للشرق، كما يكشف عن حجم "الموضوعية العلمية"، وكذلك طبيعة "الرسالة الحضارية" التى غلفت بها فرنسا حملة الغزو الاستعمارية، كما يوضح لنا نظرة المؤلف تجاه توظيف التاريخ والبحث العلمى لتدعيم الفرنكفونية وتكريس ثقافتها، كما يعنينا أيضًا أن نوضح مدى جهل - أو تغافل - هؤلاء المؤرخين بأن فى مصر مثقفين وكُتابًا ومؤرخين وطنيين يستطيعون أن يقرأوا بلغة الغرب وأن يفهموا خطابه، وأن يفندوه، ليس من منطلق التعصب القومى أو الدينى، وإنما من منطلق الحقيقة العلمية والموضوعية.

وكاتب هذه السطور يود أن يشير فى هذا الصدد إلى أن له كتابًا صدر بعنوان "الحداثة والإمبريالية، الغزو الفرنسى وإشكالية نهضة مصر" (دار الشروق بالقاهرة

٢٠٠٦) يتضمن تحليلاً علميًا لكل ما ورد من ادعاءات من جانب الكتاب والمؤرخين الفرنسيين ومن شايعهم، ممن يفسرون حملات الغزو الإمبريالى على أنها ذات رسالة حضارية للشعوب المستعمرة، ويضع هذه الحملات فى إطارها التاريخى باعتبارها مجرد حملات استعمارية تحركها أطماع السيطرة والتوسع وإخضاع الشعوب المحتلة لتدور فى فلك المركزية الأوروبية .

ولا يسعنى فى هذا المقام إلا أن أحيى مترجم الكتاب الأستاذ ناجى رمضان عطية الذى تكشف ترجمته الرصينة عن تمكّن من اللغتين العربية والفرنسية، الأمر الذى أخرج لنا ترجمة دقيقة لهذا الكتاب، نصًا وروحًا، صاغها فى أسلوب عربى مبين، كما أحييه على حفاظه على النص الأصلى، التزاما بأمانة الترجمة - رغم اختلافه مع المؤلف - وتزويد الكتاب بهوامش ثرية يعبر فيها عن آرائه وتصويباته وإضاءته للكثير من الحقائق والمسائل التى رأى أنها تحتاج إلى تعليق، الأمر الذى يكشف عن ثقافة تاريخية واسعة وعن حس اجتماعى ووطنى رشيد، وإذ أحييه على هذا الجهد العلمى المحترم، فإننى أتمنى له مزيداً من الرقى والإنتاج الغزير؛ خدمة لتاريخ وثقافة أمتنا .

والله المستعان ..

أحمد زكريا الشلّق

القاهرة - يوليو ٢٠٠٧

نظرة على مصر فى زمن بونابرت

تأليف چان - چاك لوتى

التسلسل التاريخى لبونابرت فى الشرق
سنة ١٧٩٨م

١٢ أبـريـل : صدر قرار "حكومة الإدارة" (Le Directoire) بتعيين بونابرت قائداً لـ "جيش الشرق" (L' armée d' Orient) .

١٩ مـايـو : إبحار "حملة مصر" (L' Expédition d' Égypte) من ميناء طولون.

٩ يونيـو : الوصول إلى مالطا.

١٢ يونيـو : استسلام مالطا للقوات الفرنسية.

١٩ يونيـو : الإبحار من مالطا.

أول يوليـو : الوصول إلى الإسكندرية.

٢ يوليـو : الاستيلاء على الإسكندرية.

١١ يوليـو : موقعة دمنهور.

١٢ يوليـو : موقعة الرحمانية.

١٣ يوليـو : موقعة شبراخيت.

٢١ يوليـو : موقعة الأهرام (أو إمبابة).

أول أغسطس : موقعة أبو قير البحرية وتدمير الأسطول الفرنسى.

١٨ أغسطس : اشتراك بونابرت فى الاحتفال بجبر الخليج.

٢١ أغسطس : اشتراك بونابرت فى الاحتفال بمولد النبى.

٢٢ أغسطس : إنشاء "المجمع المصرى". (L' Institut d' Égypte).

٢٢ سبتمبر : يوافق اليوم الأول من شهر فينديميير ، وهو بداية السنة السابعة من التقويم الجمهورى .

٢١-٢٢ أكتوبر: ثورة القاهرة الأولى(١).

٢١ ديسمبر: إعادة تشكيل "ديوان القاهرة" .

٢٤ ديسمبر: رحلة سريعة إلى السويس للكشف عن مسار القناة القديمة.

سنة ١٧٩٩م

٦ فبراير: بدء "حملة الشام" .

٧ مارس: الاستيلاء على يافا .

١٦ أبريل: موقعة "تل طابور" .

١٧ مايو: الاستيلاء على القصير .

١٤ يونيو: العودة إلى القاهرة .

١٥ يوليو: موقعة أبو قير البرية والانتصار على القوات الإنجليزية - التركية.

١٨ أغسطس: بونابرت يغادر القاهرة .

٢٢ أغسطس: بونابرت يبحر من الإسكندرية متوجهًا إلى فرنسا على ظهر الباخرة "مويرون" Muirion، ويسلم القيادة للجنرال كليبر.

(١) استخدم المؤلف فى هذا الكتاب تعبيرى "التمرد" و "المتمردون" وغيرهما ، لكننا فضلنا - باستمرار - استعمال تعبيرى "الثورة" و"الثوار" . (المترجم)

المقدمــة

الوضع فى مصر وفرنسا قبيل الحملة الفرنسية

قد يتساءل البعض عن أهمية صدور كتاب جديد عن "الحملة الفرنسية" على مصر ، لكن كتابنا هذا لا يتناول بالضبط موضوع "الحملة الفرنسية": فهو - بالفعل - يعالج تلك الفترة ، لكنه يتناول - تحديداً - المدة التى عاشها نابليون بونابرت فى مصر (منذ الأول من يوليو عام ١٧٩٨ حتى يوم ٢٢ أغسطس عام ١٧٩٩م).

لقد صدر العديد من الدراسات الوافية التى تناولت غزوات بونابرت فى بلاد الشرق من الناحية العسكرية أو الاقتصادية أو السياسية ، لكن القليل منها تطرق لدراسة الوضع الداخلى لمصر فى نهاية القرن الثامن عشر، أو آثار الاحتلال الفرنسى على السكان، أو موقف المصريين من المحتل. وهذه النقاط الثلاث تشكل ثلاثة محاور أساسية قدمناها - بإيجاز - فى هذه الدراسة.

ماذا رأى بونابرت فى مصر ؟ طبعا كان المفروض طرح هذا السؤال على الجنرال نفسه. إن مذكراته فى سانت هيلانة تقدم لنا بعض اللمحات بخصوص هذا الموضوع، ولدينا أيضًا ثلاثة كتب نعتقد أنها تهمنا فى هذا الصدد أولها : كتاب "وصف مصر" (الجزء الخاص بالدولة الحديثة ، ويعرض وجهة النظر الفرنسية فى مظاهر الحياة المختلفة لمصر: الزراعة والتجارة والموسيقى والعادات ...إلخ)؛ وثانيها : هو كتاب: "تاريخ الجبرتى"؛ وثالثها : "حوليات" نيقولا ترك. والكتابان الأخيران يقدمان لنا وجهة نظر المصريين فيما قام به الفرنسيون فى مصر.

وبالإضافة إلى هذه الوثائق الأساسية، فقد استفدنا من "المذكرات" و"الذكريات" التى كتبها رفاق بونابرت - من مدنيين وعسكريين - عن هذه الحملة ، كما بدا لنا أنه

من المفيد الاستعانة بما رواه الرحالة - الفرنسيون والأجانب - الذين زاروا مصر فى نهاية القرن الثامن عشر.

وأخيراً، فإن الدوريات - التى عرفتها مصر لأول مرة - قد أمدتنا بمعلومات وفيرة عن الحياة اليومية للمصريين والأوروبيين المقيمين فيها أثناء الحملة الفرنسية.

لقد كان الشعب المصرى هو أكثر شعوب الولايات العثمانية تعرضًا للقهر: فالسلطة مقسمة بين "الباشا" - الممثل الرسمي للسلطان - و"البكوات" المماليك ، والسيادة العثمانية مازالت موجودة لكن اسمياً فقط : "فالباشا يكاد يكون أشبه بالدمية في يد المماليك ، ولا يزال بإمكانه تحصيل الجزية المقررة وإرسالها إلى "الباب العالى" عندما يرضى المماليك بدفعها، ولكنهم نادراً ما كانوا يمارسون هذه العادة المكلفة التى تظهر ولاءهم للسلطان. ولم يعد بمقدور "الباب العالى" أن يجبرهم على الدفع. أما إذا أصر "الباشا" على تحصيل الجزية، فالمماليك سيقومون بخلعه من منصبه وطرده خارج مصر. ولا يستطيع السلطان سوى إرسال مبعوث آخر - على وجه السرعة - لكى يتولى منصب الباشا المخلوع. وهذا النظام الغريب للحكم يرجع عمره إلى مئات السنين وترسخ بقوة فى حياة الأمة وهيمن على كل أنحاء البلاد.

وكان بمصر ٢٤ "بك" من أمراء المماليك يتقاسمون الإدارة الفعلية للبلاد. ونتيجةً لصراعاتهم المستمرة فيما بينهم، ترك البكوات الحكومة تقع فى براثن الفوضى والاضطرابات، كما كان كل منهم يحكم إقليمه بطريقة استبدادية متعسفة. وفى أغلب الأحيان، كان البك يوكل "الكاشف" الذى يمثله - أو أحد المماليك من أتباعه - فى ممارسه هذه السلطة الاستبدادية ؛ وبذلك، يتخفف البك من مسئولياته ويتفرغ للدسائس والسعى للحصول على منصب "شيخ البلد".

و"شيخ البلد" هو كبير المماليك الذى تتركز بين يديه سلطة المماليك فى مواجهة الباشا التركى. وقبيل وصول الحملة الفرنسية إلى مصر، كان فيها "شيخان للبلد" (مراد بك وإبراهيم بك) ، وهكذا أصبحت مصر حلبة تدور فيها المنافسات والصراعات التى لا تنتهى.

وبعد وفاة على بك الكبير (١٧٧٢م)، أدرك خلفاؤه أن موارد البلاد قد بدأت تنضب ثم استولى مراد بك على مقاليد الحكم؛ وبعد صراعات عديدة مع مُنافسيه (إسماعيل بك ومراد بك)، أراحه الموت من المنافس الأول (توفى١٧٧٩م)، وانتهى الأمر بالاتفاق مع الثانى ، وقررا – فى ١٧٨٥م – أن يتقاسما السلطة سويًا. وكان إبراهيم يتمتع بالدهاء والثروة والسلطة؛ أما مراد، فقد اتصف بالنشاط والجرأة والشجاعة: فتولى إبراهيم السلطة المدنية واختص مراد بالسلطة العسكرية.

وفى سنة ١٧٩٨م، أراد مراد بك أن يجبى "الجزية" من الأجانب المقيمين بمصر – حسبما تقضى به قاعدة قديمة فى الشريعة الإسلامية – فاعترض الوكلاء الأجانب واشتكى كل منهم لدولته، حتى إن ماجالُّون (Magallon) - القنصل الفرنسى- رفع ملاحظاته إلى "حكومة الإدارة" فى فرنسا، وأصبح الوضع مليئًا بالتهديدات. هكذا كان الوضع السياسى فى مصر.



صورة رقم (١) : مراد بك.

أما الوضع العسكرى، فقد كان يبعث على الرثاء : فمصر كانت مكشوفة من جميع الجهات وبلا أية تحصينات تحميها، وكانت موانيها البحرية بدون أية وسيلة حماية حقيقية، حتى إن ميناء الإسكندرية كان لا يحميه سوى حصنين لا يصمدان أمام رشقات نيران المدفعية. إذن، فإن أية قوة لديها التصميم ومجهزة تجهيزاً جيداً، لن تجد مقاومة تذكر فى الاستيلاء على البلاد.

وأخيراً ، فإن الأوضاع الاقتصادية لمصر كانت مفجعة: فلم يكن هناك أى شىء يكبح جماح جشع المماليك اللامحدود، وكان الشعب يتعرض للنهب بلا أى رادع خصوصاً فى الريف. وأسرف المماليك فى الطمع، فماذا كانت النتيجة؟ لقد وجد الفلاح أن ثمرة عمله ستأخذها الضرائب الفادحة، ففضل أن يترك أرضه بدون زراعة أو يهجرها ، وهكذا أُهملت الزراعة ونتج عن ذلك تدهور باقى الأنشطة الاقتصادية الأخرى. وفى الواقع، فإن جميع أفرع الصناعة كانت تعانى من الركود كما كسدت التجارة.

وكان من المفروض أن توفر أرض مصر - شديدة الخصوبة - الرخاء العميم لسكانها ، لكننا لن نجد سوى البؤس المدقع فى كل ربوعها؛ ولذلك يجب ألا نندهش عندما نجد أن عدد السكان قد تناقص حتى بلغ ٢,٥ مليون نسمة فقط . فإذا كان هناك ٣ آلاف تجمع سكانى، فسنعتبر أن أربع مدن أو خمس هى التى تستحق أن يطلق عليها هذا الاسم. لقد كان الرحالة يقارنون القاهرة - عاصمة البلاد - بالمدن الأوروبية الكبرى إلا أن عدد سكانها لم يبلغ سوى ثلاثمائة ألف نسمة فقط.

ومع ذلك، فإن وضع العاصمة - خلال السنوات الأخيرة من القرن الثامن عشر - لم يكن سيئًا بالقدر الذى قد نتخيله: فبفضل الجهود الإنجليزية لإنشاء خط تجارى يصل إلى الهند عبر البحر الأحمر، أصبحت القاهرة - سريعاً - مركزاً تجارياً مهماً لإعادة تصدير البضائع ، ولكن هذه الموجة من الرخاء لم تستمر طويلاً.

وإذا كان وضع مصر يبدو لنا بهذا السوء ، فكيف كان حال فرنسا فى تلك الفترة؟؟ لقد تعرض الاقتصاد الفرنسى - فى عهد "حكومة الإدارة" - إلى العديد من

المصاعب بسبب الحروب التى خاضتها الجمهورية الفرنسية: فالأيدى العاملة المطلوبة للزراعة تناقصت، والتجارة تتدهور من سيئ إلى أسوأ. ومع ذلك، فقد زاد نمو بعض قطاعات الصناعة، حسبما يقول جوديشو (Godechot) : فالفحم الحجرى أخذ مكان الفحم النباتى فى صناعة التعدين. وفى جرتسفالد، أُنشئ فرنان عاليان لصناعة ركائز المدافع ومدافع المورتار وأجزاء المدفعية . وتعرضت صناعة النسيج لبعض الانحسار إلا أن صناعة الجوخ قد ازدهرت نتيجة لتوريد إنتاجها للجيش. وازدهرت كذلك الصناعات الغذائية مثل: الزيوت والجعة والأنبذة بسبب تلبيتها لاحتياجات الجيش المحارب. وعلى العكس مما سبق، فإن السكر قد بدأ يشح منذ أن قطع الأسطول الإنجليزى الطريق التجارى بين سانت دومينج وفرنسا. ومما هو جدير بالذكر أن الثورة الصناعية كانت قد بدأت فى فرنسا قبل إنجلترا بخمسة عشر عامًا لكن إنجلترا لم تلبث أن سبقت فرنسا فى هذا المجال.

وفيما يتعلق بالموقف السياسى، فإن الوضع كان مختلفًا تمامًا: فقد أحرز بونابرت أول الانتصارات الحربية للعهد الجمهورى وأصبح يحظى بإعجاب وتقدير متزايد فى فرنسا كلها، واقترح – عندئذ – أن يضرب هيمنة إنجلترا على البحار ويقطع طريق إمبراطوريتها إلى الهند. ولتحقيق هذا الهدف، فكر فى غزو مصر وسوريا.

ولم يكن بونابرت هو أول من فكر فى هذا المشروع: فالفيلسوف ليبنتز (Leibniz)[١] سبق له اقتراح هذه الفكرة على الملك لويس الرابع عشر ، كما أن الملكين لويس الخامس عشر والسادس عشر قد فكرا فى مشاريع مماثلة. وكذلك فإن تالليران (Talleyran) قدم مذكرة إلى "المجمع الفرنسى" (سنة ١٧٩٥م) تقترح خطوطها العريضة خطة مشابهة لما قدمه بونابرت ، لكن بونابرت هو الذى قام بتنفيذ هذا المشروع[٢].

---

(١) ليبنتز :(Leibniz) فيلسوف ألمانى [1716 - 1656] انضم لجماعة "الصليب الوردى" (أو "الوردة والصليب"). انشغل بالأمور السياسية وفى سنة ١٦٧٢ حاول إقناع لويس الرابع عشر بغزو مصر [المترجم] .

(٢) هذا الرأى الواضح والصريح فى الهدف الحقيقى للحملة الفرنسية على مصر، سيتناقض تمامًا مع ما سيدعيه المؤلف عدة مرات – فيما بعد – عن الأهداف الإنسانية والحضارية والتنويرية لهذه الحملة، خصوصًا فى الفصل الخامس [المترجم].

وبما أن "حكومة الإدارة" كانت تشعر بالغيرة من بونابرت بعد انتصاره فى معركة آر كول (Arcole)، فإنها لم تر بأساً من رؤيته يبتعد عن فرنسا ، فوافقت على إرسال حملة على مصر تحت قيادته، ووضعت تحت تصرف الجنرال جيشاً يبلغ قوامه ٤٠ ألف جندى وبه ضباط عظام مثل: كليبر (Kléber) وموراً (Murat) وداڤو (Davout) وديزيه (Desaix) ومينو (Menou) ولان (Lannes) ودوما (Dumas) .

أما القوات البحرية ، فقد كان بها ١٠ آلاف رجل تحت قيادة نائب الأميرال برويس (Bruyes) وألحق بالحملة عدد من العلماء فى: المساحة والفلك والكيمياء والمعادن والهندسة المعمارية والرياضيات، منهم: مونج (Monge) وبرتولليه (Berthollet) وجوفرواسانت – هلير (Geoffroy Saint - Hilaire) وكوستاز (Costaz) وفورييه (Fourrier) وديجينيت (Desgenettes) وكفاريللى (Cafarelli) ودينون (Denon) وغيرهم.

وتم تكليف "جيش الشرق" بمهمتين، الأولى عسكرية وهى:

١ – إبادة المماليك .

٢ – قطع طريق الهند .

والثانية: ثقافية وهى :

١ – معرفة التاريخ القديم للمصريين .

٢ – دراسة جغرافية مصر بدقة بهدف ربط البحر الأحمر بالبحر المتوسط بواسطة قناة تتصل بالنيل .

٣ – دراسة الزراعة والتاريخ الطبيعى لمصر للاستفادة منهما .

٤ – وأخيراً، نقل أسرار الحضارة الأوروبية للمصريين.

وغادر الأسطول الفرنسى ميناء طولون فى يوم ٣ فلوريال من العام الثالث للتقويم الجمهورى (١٩ مايو سنة ١٧٩٨م)، واستطاع أن يفلت من مطاردة الأسطول الإنجليزى له واستولى على مالطا. وترك بونابرت الجنرال ڤوبوا (Voubois) هناك ومعه ٤ آلاف جندى، ثم غادرها يوم ١٨ يونيو مبحراً فى اتجاه الجنوب الشرقى؛ وعندئذ فقط، عرف "جيش الشرق" الوجهة الحقيقية للحملة.

وفى الأول من يوليو سنة ١٧٩٨م، رسا الأسطول الفرنسى أمام ميناء الإسكندرية؛ وفى مسا اليوم نفسه ، بدأ إنزال القوات على الشاطئ؛ وفى صباح اليوم التالى، سقطت المدينة بين أيدى الفرنسيين بعدما أبدت مقاومة ضعيفة ، ثم اتجه تشكيل صغير من السفن الفرنسية إلى رشيد بقيادة نائب الأميرال بيريه (Perrée) ، وبدأ يصعد النيل صوب الجنوب. وفى الوقت نفسه ، كان الجنرال دوجوا (Dugua) يزحف بفرقته بمحاذاة الضفة اليسرى للنيل.

وعرف المماليك بالوجود الفرنسى، فبدأوا بحشد قواتهم لمقاومته . وبعد عدة اشتباكات بين الجيشين، كانت المعركة الحاسمة فى "إمبابة" (أو "موقعة الأهرام") يوم ٢١ يوليو سنة ١٧٩٨م. وفوجئ المماليك بالتكتيك الحربى العصرى للقوات الفرنسية وبالأسلحة الحديثة التى تستخدمها والتى مكنتها من سحق قواتهم، فهربوا فى اتجاه الصعيد والشام تاركين ممتلكاتهم وتخلَّو عن الشعب.

وفى يوم ٢٤ يوليو سنة ١٧٩٨م، دخل بونابرت إلى القاهرة ولم يضع وقته: فبادر بإنشاء "ديوانين" أحدهما لمدينة القاهرة ، وثانيهما كان بمثابة مجلس شعبى يختص بشئون الإدارة المحلية. وبعد ذلك بقليل، أصبح لكل مديرية – ولكل مدينة كبيرة – ديوانها الخاص بها على غرار "ديوان القاهرة". وأسندت القيادة العسكرية فى العاصمة للجنرال دوبوى (Dupuy) . وفى يوم ٢٥ يوليو، بدأ بونابرت فى تشكيل "ديوان القاهرة" حيث اختير فيه مصريون وفرنسيون بحضور القائد.

ولكن سرعان ما حلت بالفرنسيين كارثة خطيرة: فقد دمر الإنجليز الأسطول الفرنسى بالكامل فى "موقعة أبو قير البحرية" (أول أغسطس سنة ١٧٩٨م). وعلى الرغم من هذه الخسارة الفادحة، لم يغير بونابرت من خططه الموضوعه سلفًا: فرأس الاحتفال بعيد "وفاء النيل" يوم ١٨ أغسطس، وحضر الاحتفال بذكرى "المولد النبوى" بعده بيومين، ووقَّع عدة قرارات منها قرار إنشاء "المجمع المصرى" (L'Institut d' Egypte) يوم ٢٤ أغسطس سنة ١٨٩٧م.

ثم حدث تقارب بين تركيا وإنجلترا شكَّل خطورة على الوجود الفرنسى فى مصر، وأعلن السلطان الحرب على فرنسا، ودعا رعاياه للجهاد ضد الغزاة الفرنسيين. وكان المصريون قد صدقوا - للوهلة الأولى - تصريحات بونابرت بأنه يتصرف بناءً على اتفاقه مع "الباب العالى" ، لكن فرمان السلطان - الذى قرئ فى جميع مساجد الدولة العثمانية - أزاح الغشاوة عن العيون: وفى يوم ٢١ أكتوبر سنة ١٧٩٨م، نشبت "ثورة القاهرة الأولى" وكان على بونابرت أن يواجهها، واستطاع إخضاع الثوار فوراً مستخدماً وسائل فعالة. وفى خلال يومين، استتب الأمن فى العاصمة(٣).

وبعد ذلك بفترة وجيزة، علم بونابرت بأن قواتا تركية / إنجليزية مشتركة قد رست على الساحل الشمالى/ الشرقى لمصر، فواجهها بالقرب من أبو قير بقوات أقل منها عدداً واستطاع هزيمتها وإلقاءها فى البحر.

ثم بادر نابليون بنقل الحرب إلى الشام واستطاع أن ينتصر فى موقعة "تل طابور"، ولكنه فشل فى اقتحام عكا. وبسبب الخسائر التى تكبدها فى الأرواح، والطاعون الذى فشا بين جنوده، اضطر للانسحاب والعودة إلى مصر، خصوصًا أنه لم يتلق أية مساعدات من فرنسا بسبب المصاعب الداخلية هناك، والحصار الذى فرضه الأسطول الإنجليزى فى البحر المتوسط .

ولكى يكسر بونابرت جدار العزلة الذى يحيط به وسط شعب معاد، قرر أن يغادر مصر سراً (٢٢ أغسطس ١٧٩٩م) وعهد بقيادة الحملة إلى كليبر، ووعده بإرسال تعزيزات من فرنسا.

وتسلم كليبر الجيش فى حالة بائسة ، لكنه - مع ذلك - استطاع أن يهزم به جيشًا تركيًا يفوقه بعشرة أضعاف فى "موقعة عين شمس" (هليوبوليس). كما سعى

---

(٣) راجع الفصل الخامس ملحوظة رقم (١٢) [المترجم] .

أيضاً لتدعيم هذا الانتصار باتخاذ إجراءات حكيمة منها تحالفه مع مراد بك، لكن أحد المتعصبين[٤] من حلب اغتاله طعناً بالخنجر (١٤ يوليو سنة ١٨٠٠م).

وانتقلت قيادة الحملة إلى مينو، وهو شخص متزن لكنه متردد أحياناً، وربما يرجع ذلك إلى كبر سنه وثقته فيمن يحيطون به. وإذا كان مينو لم يستطع منع هزيمة الجيش الفرنسي على يد الجنرال الإنجليزي أبركرومبى - بالقرب من الإسكندرية (٢١ مارس سنة ١٨٠١م) - إلا أن كفاءته الإدارية والدبلوماسية سمحت له بالخروج من مأزق الهزيمة بشكل مشرف: فاستطاع إتمام المفاوضات - التى كان كليبر قد بدأها - بعقد معاهدة ٢ سبتمبر سنة ١٨٠١م . والتى بمقتضاها انسحبت القوات الفرنسية من مصر وبصحبتها مائة لاجئ.

إن المغامرة الفرنسية على أرض مصر لم تدم سوى ثلاثين شهراً تقريباً، لم يقض منها بونابرت سوى عام ونيف على ضفاف النيل. وبرحيله، انهارت أحلام بناء إمبراطورية فرنسية فى الشرق: فحروب بلاد الشام قد أنهكته، والرسالة الوحيدة التى بعث بها إلى "تابو صاحب" (Tapoo-Sahib) وقعت فى يد الإنجليز، ولم يتلق رداً على مراسلاته مع دول شمال أفريقيا .

إلا أن ذلك الفشل لم يكن نهاية المطاف: فخلال تلك الفترة القصيرة، حدث لقاء تاريخى - أو بالضبط وقع صدام أكيد - بين عالمين وحضارتين مختلفتين فى كل شيء: لقد واجهت الفلسفة الحيوية للغرب الجمود الدينى للشرق ، وتكتيك الجيش الفرنسى ونظامه انتصرا على الحماس المضطرب للمماليك والأتراك ، ودقة القوانين الفرنسية وعدالة تطبيقها على الجميع تعارضت مع تعسف واستبداد الوالى التركى والبكوات المماليك ، والصناعة الأوروبية المتطورة وقفت أمام الحرف المحلية التى كانت لا تزال تجهل استخدام طاحونة الماء وطاحونة الهواء. وكذلك، فإن الحملة الفرنسية قد أحضرت معها: أول مطبعة عرفتها مصر، والمنظار المقرب، والإدارة

(٤) كذا فى النص الفرنسى ، والمقصود هنا هو "البطل" سليمان الحلبى [المترجم] .

القائمة على أساس آخر غير نظام "الالتزام"، ومركزاً للأبحاث "المجمع المصرى"، ومختبراً للفيزياء والكيمياء، وأنشأت نواة أول متحف للآثار ... إلخ

وكل هذه الأشياء "فرضتها" الحملة الفرنسية على المصريين الذين كان أغلبهم غير مهيئين لاستيعاب كل هذه المستحدثات الكثيرة فى وقت قصير للغاية (ثلاث سنوات فقط). وفور رحيل الحملة، كان رد فعل المصريين هو: رفض كل ما أحضره الغزاة معهم من مستحدثات.

"ولكن هذه الفترة سجلت ميلاد شعب": لقد تعلم المصريون حكم بلادهم مع بونابرت. وبعد ذلك، كان عليهم أن يعيشوا عدة سنوات تحت سلطة محمد على لكى يتوجهوا – مجدداً – صوب الغرب(٥) ليستعيروا منه عناصر بناء الحضارة الحديثة.

فكيف كان – إذن – الوضع المعنوى والاقتصادى والثقافى لمصر والمصريين عندما كان بونابرت متواجداً على ضفاف النيل؟ هذا ما سنحاول إيضاحه فى الصفحات التالية(*) .

---

(٥) المرة الأولى التى توجَّه المصريون فيها صوب الغرب كانت فى عهد محمد على وليس قبل ذلك [المترجم] .

(*) لأسباب عملية، قمنا بتجميع المصطلحات الخاصة بالأوزان والمقاييس والعملات فى نهاية جزء خاص بها فى نهاية الفصل الثالث (المؤلف).

الفصل الأول

المدينة والريف

سندرس – فيما يلى – المدن لأنها مركز الإدارة والتبادل التجارى والثقافى ، ثم سنعرض حالة الريف قرب نهاية هذا الفصل.

أولاً : المظاهر العامة للمدن:

يصف رحالة ذلك العصر المدن المصرية بأنها تخلو من المبانى العامة – أو الخاصة – المتميزة عدا بعض المساجد، ولا توجد بها ميادين منتظمة ولا شوارع مستقيمة يظهر فيها فن العمارة ، وأطراف المدن تحدها التلال – التى كونتها أنقاض المبانى – وبالقرب منها توجد المقابر التى تصدم حاستى النظر والشم.

أما المدن نفسها، فهى عبارة عن حوارٍ ضيقة ومتعرجة تجرى فيها حشود من الناس والجمال والحمير والكلاب وكلها تثير التراب الكثيف. وعندما يرش بعض الملاك – أحيانًا – الأرض أمام بيوتهم، فإن التراب يتحول إلى طين يثير الاشمئزاز...

ثانياً : طبوغرافية القاهرة ومبانيها:

قرأ بونابرت – فى شبابه – تاريخ الإغريق والرومان الذى أثار حماسته، وقرأ أيضًا بشغف كتاب "تاريخ العرب" تأليف مارينى (Marigny)، و"مذكرات عن الأتراك والتتار" للبارون توت (Tott) وهذا ما دفعه لكتابة قصة "عربية" عنوانها "قناع النبى". ومثل الكثيرين من مثقفى زمنه، طالع بونابرت "رحلة فى مصر والشام" لڤولنى (Volney) .

وأخيراً، فقد استعد لحملته العسكرية بدراسة "خريطة مصر" التى رسمها الجغرافى الشهير ب. دانفيل (B. d'Anville) . وها هو الآن فى مصر وعليه أن يترك

معلوماته النظرية ويتعامل مع الواقع، فماذا وجد بونابرت فى القاهرة فى نهاية القرن الثامن عشر؟

كانت العاصمة المصرية تعتبر المدينة الأولى فى الإمبراطورية العثمانية - بعد استانبول - نظراً لامتدادها، ولوجود "جامعة الأزهر" الدينية بها (وهى أحد المراكز الدينية الرئيسية للإسلام)، وأخيراً لأهمية حركة التجارة فيها.



صورة رقم ٢ : خريطة القاهرة.

وحوالى سنة ١٧٩٥م، كانت القاهرة تمتد من أطراف سلسلة هضبة الجبال الشرقية - من المقطم شرقًا - حتى الأطراف التى يحدها فيضان النيل غربًا: فكانت محصورة فى حيز ضيق، وتحيط بها الأسوار، وتبعد حوالى كيلو متر واحد عن النهر. وكانت تأخذ شكل مستطيل أبعاده ٦ كم × ٣ كم تقريبًا، وكان "الخليج المصرى" يقسمها إلى قسمين. وإذا استثنينا ضاحيتى بولاق ومصر القديمة، فإن محيط القاهرة سيصل إلى ٢٤ كم وستبلغ مساحتها حوالى ٧٢٣,٠٤ هكتار (فى الفترة نفسها ، كانت مساحة باريس ٣٤٠٦,٧١٠ هكتار). أما إذا احتسبنا مساحة الضاحيتين المذكورتين، فستصل مساحتها الكلية إلى ٨٨٣,٨٠ هكتار.

ويبلغ عدد أحياء القاهرة (الحارات) ٥٣ حيًا (أو حارة) أكثرها أهمية خمسة عشر حيًا فقط هى :

١- حى "القلعة" ، وبه ميدانا "قره ميدان" و "الرميلة"،

٢- حى "طولون" ، وهو أحد أقدم أحياء القاهرة،

٣- حى "المغاربة" ، ويسكنه المغاربة من شمال إفريقيا،

٤- حى "بركة الفيل" ، الذى تغرقه مياه النيل جزئيًا فى فصل الفيضان،

٥- حى "الحنفى"،

٦- حى "باب الخرق" ، الذى تحور اسمه فأصبح "باب الخلق"،

٧- حى "المؤيد"،

٨- حى "الأزهر" وبه الجامع الكبير،

٩- حى "الأفرنج" ويقطنه الأوروبيون،

١٠- "حارة اليهود" ويسكنها اليهود،

١١- "حارة الروم" ويسكنها اليونانيون،

١٢- "حارة النصارى" ، ويقطنها الأقباط والأرمن والمسيحيون الشوام،

١٣- حى "الأزبكية"،

١٤- حى "الموسكى"[١].

أما باقى الأحياء، فتحمل اسم حرفة أو تجارة معينة، أو اسم سوق مشهور أو قنطرة أو حديقة أو بركة.

وفى واقع الأمر، فإن أحياء القاهرة المختلفة ليست سوى مجموعات من المنازل المبنية بشكل مائل ، ويسكنها رعايا من جنسيات مختلفة وحرفيون وتجار. وتوجد مساكن مسورة (خانات) تغلق على سكانها بواسطة بوابات ضخمة مصفحة. ومجموعة "الأزقة" تفضى إلى "عطفة"، وتفضى مجموعة "العطفات" إلى الشارع الرئيسى فى الحى "السكة أو الدرب" الذى يحمل غالبًا اسم الحى. والشوارع لا تحمل اسمًا واحداً ثابتًا بل إن أسماءها تتغير باستمرار.

ومع ذلك، فإننا نلاحظ وجود ثمانية محاور كبيرة فى القاهرة: فهناك ثلاثة شوارع طولية أهم اثنين منها : يبدأ أولهما من "باب السيدة" حتى "باب الحسينية" ويبلغ طوله ٤,٦ كم، وثانيهما مواز للضفة اليمنى "للخليج المصرى" ويبدأ من "قنطرة السباع" حتى "باب الشعرية" . وتوجد خمسة شوارع عرضية - منها ثلاثة تصل النيل بالقلعة - المركز الإدارى للبلاد - وشارع رابع يربط ميدان الأزبكية بمقابر قايتباى.

وشبكة الطرق فى القاهرة تتسم بأنها بالغة التعقيد : فيها أكثر من ثلاثمائة طريق ومثلها من الأزقة والحوارى القذرة المليئة بالكلاب المقززة . أما الطرق، فضيقة يتراوح عرضها من ١,٥ متر حتى ٤,٥ متر وتوجد طرق ضيقة جداً لا يتعدى عرضها ٢٥, ٠متر [٢].

---

(١) لم يذكر المؤلف هنا سوى ١٤ حيًا فقط [المترجم] .

(٢) هى الحارات المعروفة باسم "شق التعبان" وكانت تفصل - أساسًا - بين بعض الملكيات وبعضها خصوصاً بعد تقسيم ميراث سبب العداوة بين الورثة [المترجم] .

وبدأت الإدارة الفرنسية تعطى أسماءً فرنسية لبعض هذه الطرق؛ وهكذا، فإننا نجد جريدة "Le Courrier d' Egypte" تذكر شارع "فينيتيين (Venitienne) وشارع "بيتى توما" (Petit Thomas) وحى "مالافار" (Malafar) .

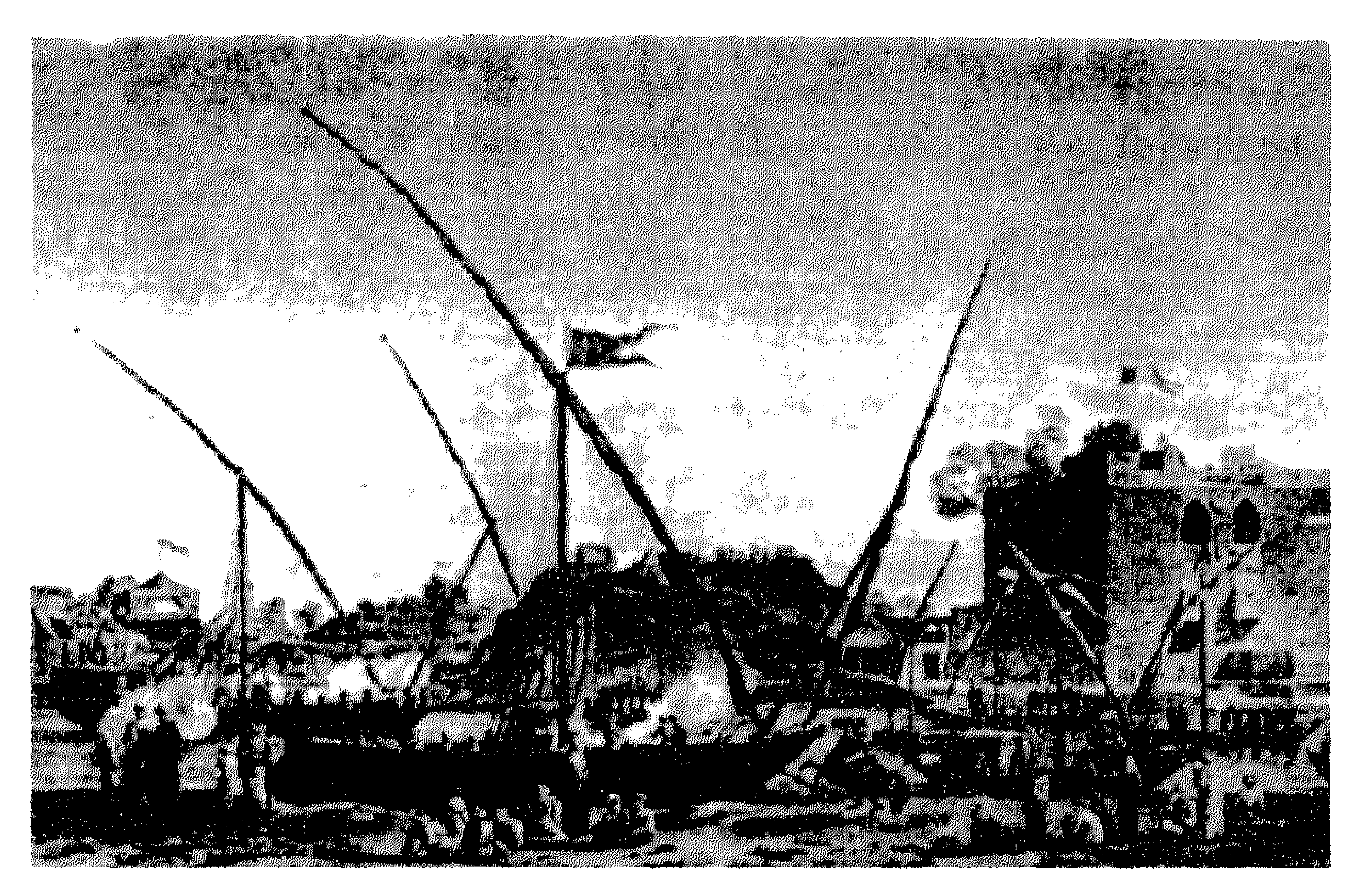
وفى أغلب الأحيان، نجد أن الأدوار العليا للمنازل - المبنية من الحجر - تكاد تتلامس بأعلى الشوارع التى غالبًا ما تكون مسقوفة بالخشب ، أو مغطاة بقماش سميك لوقاية المارة من حرارة الشمس .

وقد دخل جزء من سور القاهرة فى نطاق المدينة نظرًا لتوسعها وامتدادها على مر العصور شمالاً وغربًا . أما فى الشرق والجنوب، فالحدود لم تتغير أبدًا .

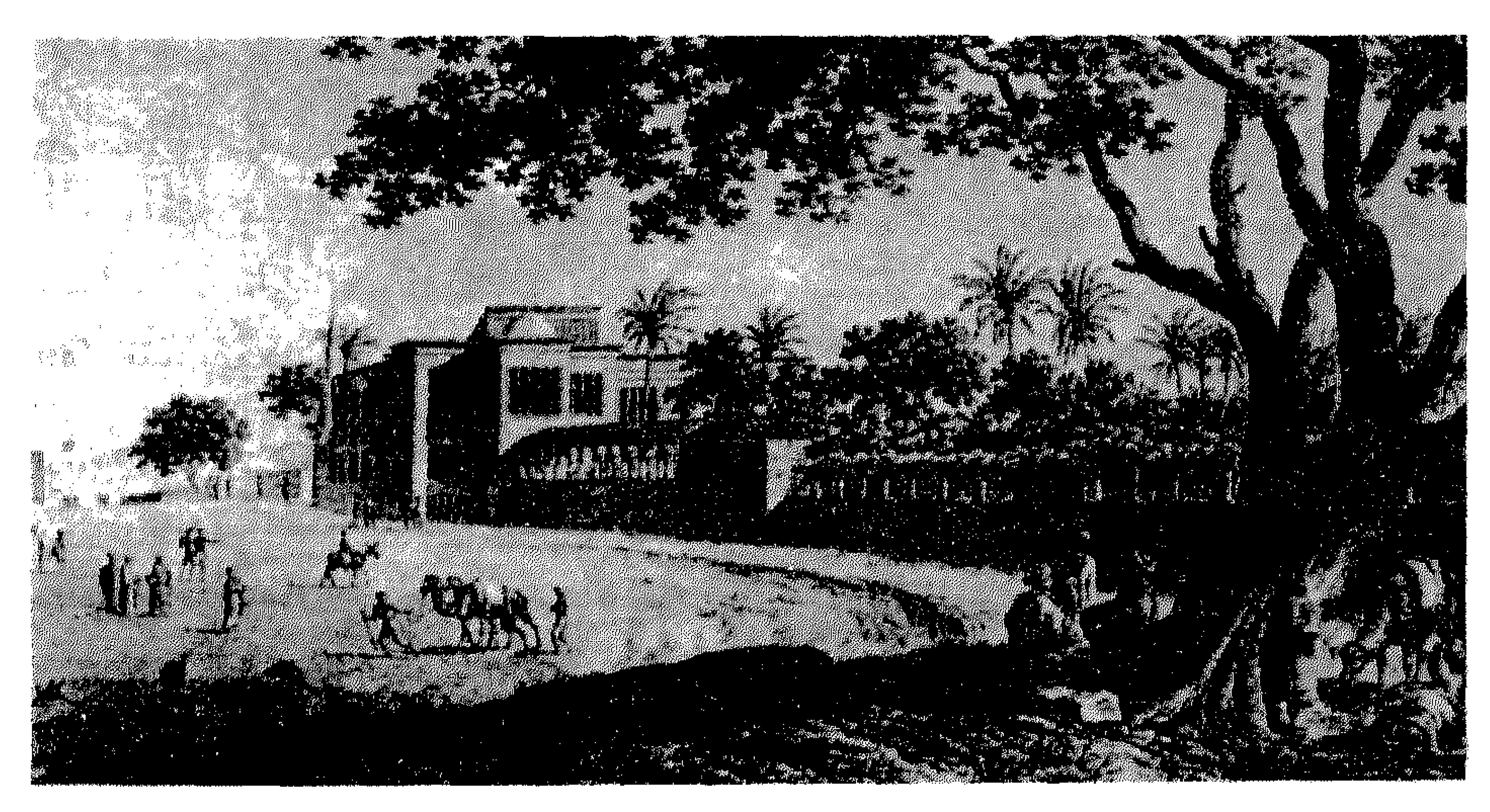
أما الميادين، إن وجدت، فقد نشأت بطريقة عشوائية ولم تكن محسوبة ضمن خطط شاملة لتنظيم المدينة، وتبدو كما لو كانت قد نشأت نتيجةً لظروف خاصة. ولدينا - مثلاً - ميدان "قره ميدان" وهو عبارة عن ساحة تستخدم كميدان لتدريبات المماليك. ويلى هذه الساحة "ميدان الرميلة" وهو مستدير إلى حد ما ، والصخور الناتئة الموجودة وسط هذا الميدان تستند عليها الأكشاك الصغيرة المتنقلة التى يملكها صغار تجار الدخان وقصب السكر والخردة. وهناك أيضًا "الوسعة"، ويطلق هذا الاسم على أجزاء من الطريق العام "توسعت" نتيجة لهدم بعض المنازل ومنها: "الوسعة" الموجودة أمام "قصر مراد بك" و"بيت القاضى" وبعض المساجد الكبيرة. وعلى مر السنين، أصبح هذا الاسم يطلق فقط على حى البغاء فى العاصمة.

وأكبر ميدان فى القاهرة هو "ميدان الأزبكية" ، وتبلغ مساحته ثلاثة أضعاف مساحة "ميدان الكونكورد" فى باريس. وأثناء فصل الفيضان، يتحول هذا الميدان إلى بركة تنساب على سطحها القوارب؛ وفى شماله، يقع الحى القبطى وقصر الألفى بك القديم وبيوت الأثرياء والمشايخ.

وتوجد أيضًا ميادين أخرى تقع تحت مستوى النهر وتغمرها مياهه فى الصيف والخريف فتتحول إلى برك، ومن أهمها: "بركة الفيل" و"بركة الفرايين" و"بركة دمالشت" و"بركة السقايين" و"بركة الدم" (بسبب قربها من المذبح) و"بركة الصابر" و"بركة الفوالة" ، وتقع كلها بداخل المدينة وغربها ؛ أما "بركة الرطلى" و"بركة الشيخ قمر"، فتقعان فى شمال القاهرة .



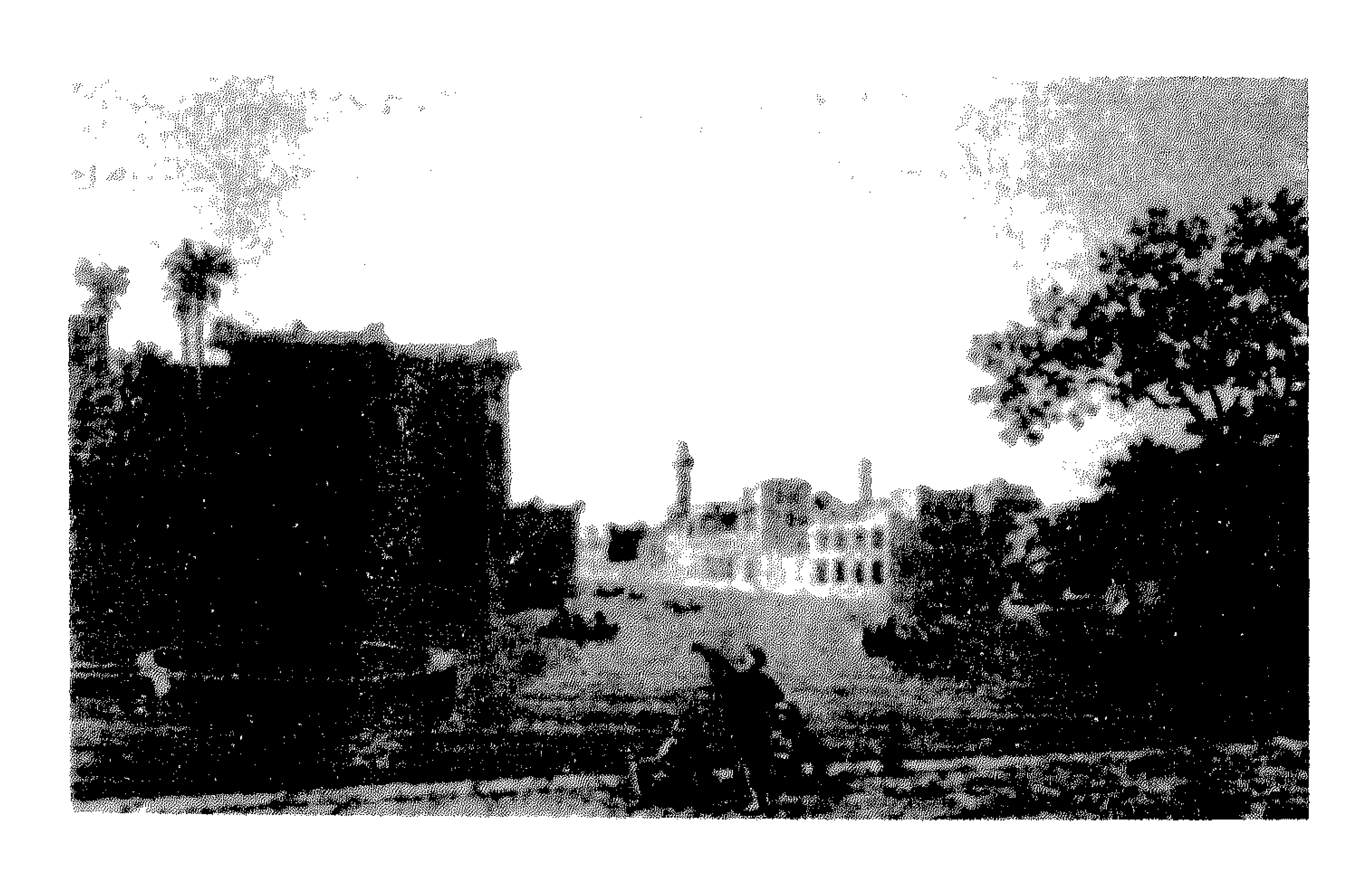
صورة رقم ٣ : قصر الألفى بك أمام بركة الأزبكية.



صورة رقم ٤ : "بركة الفيل" فى موسم الفيضان.

ويوجد فى القاهرة ٧٢ بابًا يقع أغلبها بداخلها، سنذكر فيما يلى أهمها: ففى الجنوب، يوجد "باب زويله"؛ وفى الشمال، "باب الفتوح" و"باب النصر"؛ وفى الشرق، يوجد "الباب الجديد" و"باب البرقية" و"الباب المحروق"؛ وفى الغرب ، "باب خوخة" و"باب القنطرة" و"باب سعادة"؛ وباقى الأبواب قليلة الأهمية. ولكل حى باب مصفح يغلق فى المساء؛ وعند حدوث الاضطرابات، يتحول هذا الباب إلى متراس. وفى العادة، يقوم كل إنسان هنا بحراسة نفسه بنفسه وسلاحه فى متناول يده.

ويشق "الخليج المصرى" - أو "الخليج" - القاهرة من الجنوب إلى الشمال ويمد المدينة جزئيًا بالماء ؛ أما السقاءون، فيأخذون مياه الشرب من مكان يقع على الضفة الشرقية للنيل، إلى الجنوب قليلاً من "مقياس الروضة".



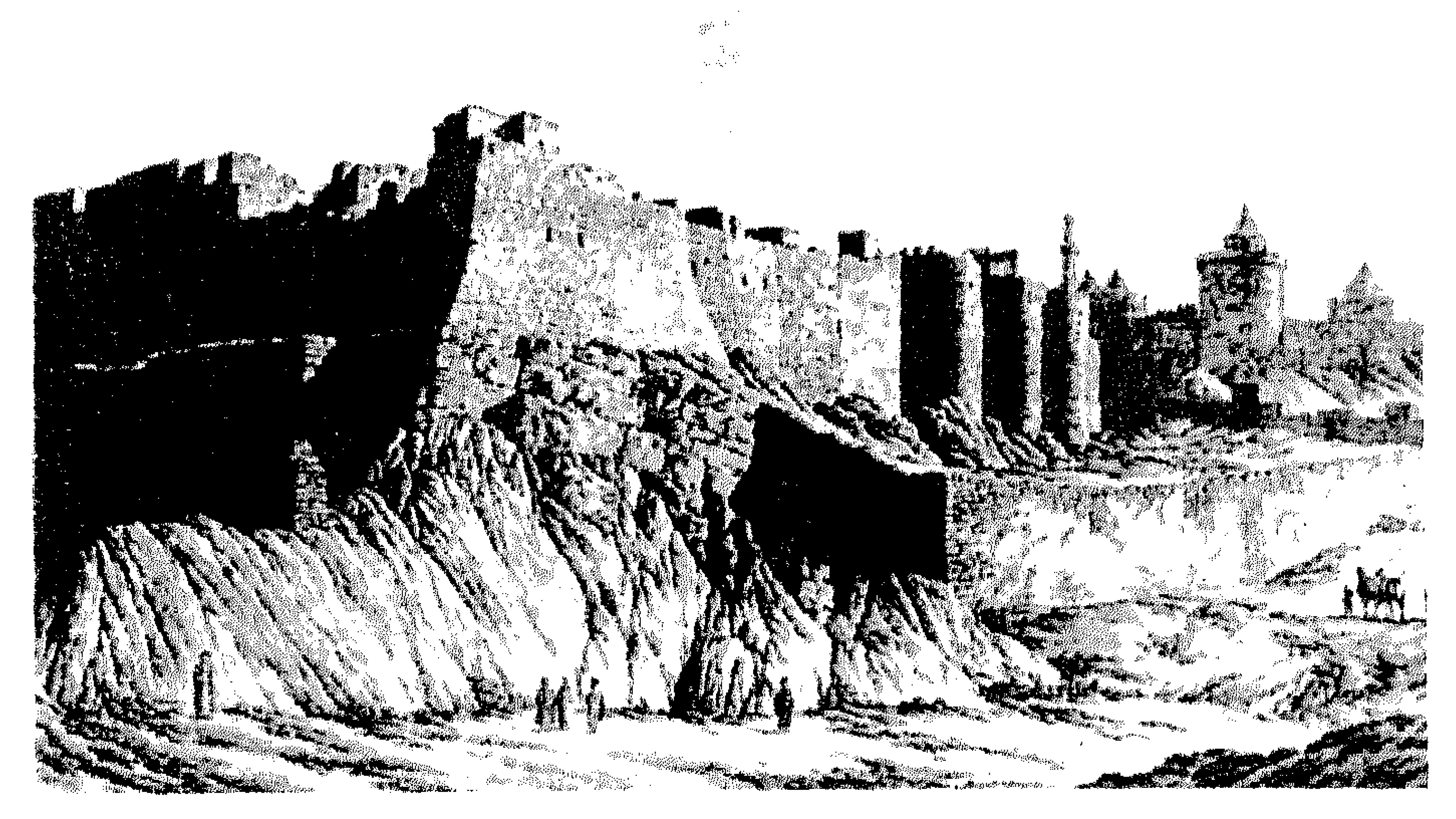
صورة رقم ٥ : موردة مياه على الخليج المصرى فى حى مصر القديمة.

ولا يتجاوز عرض "الخليج" العشرة أمتار وهو قليل العمق. وفى فصل الفيضان، تغرق مياهه "ميدان بركة الفيل" وغيرها من البرك.

وينقسم "الخليج" - خارج مدينة القاهرة - إلى فرعين: يصب أهمهما فى "ترعة أبو المنجا" - وهو الفرع البيلوزى القديم للنيل - وتقع على بعد أربعة كم تقريبًا من شبين القناطر. أما الفرع الثانى، فينثنى فى غرب القاهرة ويحمل مياهه - أثناء موسم الفيضان - إلى "ميدان الأزبكية" ثم يغرق الأرض الزراعية الموجودة بين العاصمة وميناء بولاق النهرى. وعادة ما يتم تنظيف "الخليج" قبيل الفيضان السنوى للنيل، فيصبح - عندئذ - طريقًا يرتاده الحواة والبهلوانات والعوالم، الذين يجذبون المشاهدين إلى ضفافه.

و"*الخليج المصرى*" محفوف بالمراسى والمنازل المطلة على مياهه مباشرة. وتوجد ثلاثون "قنطرة" تصل بين ضفتى "*الخليج*" : والقنطرة مبنية على عقد بيضاوى بسيط - وأحيانًا عقدين - وسطحها ضيق ، ويبلغ ارتفاع الدرابزين - على جانبيها - أكثر من مترين فيحجب رؤية مجرى الماء. ومن أهم هذه القناطر ، "قنطرة أبو السباع" (نظرًا لوجود إفريز به نقوش تمثل الأسود) وهى قنطرة مزدوجة: القنطرة الأولى تتعامد مع "الخليج" وتقع أمام مسجد السيدة زينب، والقنطرة الثانية تؤدى إلى شارع القلعة؛ ولذلك يطلق على هذه المنطقة اسم "القناطر".

وأثناء فترة الاحتلال الفرنسى، أقام الجيش قنطرة من القوارب - على النيل - تربط القاهرة بالجيزة عبر جزيرة الروضة ، وفرض الفرنسيون رسمًا للعبور من ضفة لأخرى ، وتم إعفاء الفرنسيين فقط من دفع هذا الرسم.



صورة رقم ٦ : قلعة القاهرة.



صورة رقم ٧ : قنطرتان على الخليج المصرى.

أما المبانى اللافتة للنظر فى القاهرة، فأهمها "قلعة الجبل" (أنشئت فى القرن الثانى عشر الميلادى) وتقع على صخرة جيرية ترتفع بمقدار طلقة مدفع. وتحيط بالقلعة أسوار مسننة تدعمها ثلاثة أبراج سميكة ، وأهم هذه الأبراج - وأكثرها بروزاً - "برج الإنكشارية" . وعلى الرغم من اختلاط المبانى التى شيدت عبر القرون فى القلعة، فإننا نستطيع ملاحظة وجود ثلاثة أسوار يطل "قصر الباشا" على السور الثالث منها. وللقلعة بابان هما: "باب العزب" و"باب الإنكشارية"، وأخذ البابان اسميهما من اسمى الفرقتين غير النظاميتين اللتين تقيمان فى مصر على نفقة "الباب العالى"، ولكن هاتين الفرقتين باعتا خدماتهما لمن يدفع من أعيان البلد.

ومن المبانى القبيحة الموجودة فى نطاق الإنكشارية، نجد "ديوان يوسف" (المقصود هنا هو الناصر صلاح الدين يوسف) وفيه توجد مجموعة من العواميد المأخوذة من أطلال مدينة ممفيس. وفى إحدى قاعات هذا الديوان، تنسج الكسوة الشريفة. ويطل "قصر الباشا" على ميدان "قره ميدان"؛ وأمام القصر، توجد "دار الضرب" حيث تضرب النقود المعدنية والذهبية.

وبالقرب من "قصر الباشا" ، يوجد "بئر يوسف" الذى يبلغ عمقه ١٠٠ متر، وهو الذى يمد القوات المعسكرة فى "القلعة" بالمياه فى حالة وقوع حصار طويل. وفى العادة، فإن القلعة تتزود بالمياه اللازمة من النيل عبر "مجرى العيون" الذى يربطها بالنهر.

ويوجد العديد من المبانى المختلفة المتناثرة فى أفنية "القلعة" وهى تضم: مكاتب الإدارة والمخازن والورش. وفى هذه الأفنية، يوجد متسع كاف لإيواء ٦٠٠٠ جندى. وبها أيضاً أماكن مجهزة لإقامة الشخصيات المهمة. و"القلعة" هى أيضاً مقر الإقامة المعتاد للعديد من بكوات المماليك ، وحجمها الضخم يتيح لها أن تتحكم فى القاهرة، والمناطق الريفية القريبة منها.

وتوجد بعض القصور التى تلفت الانتباه فى مدينة القاهرة لكن أجملها وأوسعها تخص المماليك الهاربين والتى استولى عليها الجيش الفرنسى : وهكذا فإن الجنرال

دوبوى سكن فى قصر إبراهيم بك الوالى فى ميدان "بركة الفيل" ، واستقر إستيف (Estève) – مدير المالية – فى قصر الشيخ البكرى ، وأول مقر "للديوان" كان فى منزل قايت (أو"قايد") أغا؛ ولأسباب استراتيجية، اختارت هيئة أركان حرب الحملة مقرها فى قصر وحديقة مراد بك فى الجيزة؛ وفى البداية، سكن بونابرت فى قصر الألفى بك – فى الأزبكية – ثم فى منزل حسن كاشف وترك قصر الألفى بك ليكون مقراً "للمكتبة" و"للمجمع المصرى".

وربما كانت كلمة "قصر" – المستخدمة هنا للدلالة على هذه المبانى – بها بعض المبالغة: فهذه المبانى كانت تتكون عادة من: دور أرضى – مبنى بالحجر المنحوت الذى يتم تلوين كل مدماك منه باللونين الأحمر والأخضر على التوالى؛ ويليه عدة أدوار بكل دور مشربية كبيرة تغطى فتحات المنزل ، ونادراً ما تكون الغرف ذات مستوى واحد ، بل لابد من صعود وهبوط عدة درجات.

ورفاهية هذه القصور تبدو فى تفاصيل الزخرفة والزينة: فأرضياتها كانت من الرخام، وتوجد بها أحواض بنافورات، والأفنية محاطة بمجموعات من العواميد القصيرة، والغرف بها تعشيقات من المرمر والأخشاب الثمينة، وكانت أرضيات بعض الغرف من الخشب، والنوافذ كانت مغطاة بالزجاج المستورد من مدينة البندقية.

وإذا كان هناك إسراف فى استخدام المرمر والألباستر، إلا أن الأثاث كان محدوداً للغاية: ففى الغرفة لا يوجد سرير ولا خزانة للملابس ولا مائدة؛ وبدلاً من ذلك كله، كانت توجد حصائر وسجاجيد وصناديق وأرائك.

أما الحدائق – إن وجدت – فليست سوى مسطحات متتالية مزروعة – كيفما اتفق – بالياسمين والورود على هيئة أيكات ، والأشجار المثمرة مزروعة دائماً بلا انتظام ولا تشذب أبداً . وعلى العرائش، تنمو الكروم محملة بعناقيد العنب الكبيرة . وهذه الحدائق ليست بأماكن مخصصة للنزهة – بالمعنى الحرفى للكلمة – لكنها مجرد أماكن يجلس الناس فيها فى أكشاك خشبية لتبادل الحديث والتدخين.

وبالتأكيد، فإن مساجد المدينة هى أكثر مبانيها لفتًا للأنظار. ويبلغ عدد مساجد القاهرة ٢٥٣ مسجداً يضاف إليها ١٥٨ زاوية . ومن هذا العدد الكبير لدور العبادة، نجد أن خمسين منها فقط تثير الاهتمام بفضل روعة بنائها وزخرفتها وكمالهما : فمسجد ابن طولون يثير الإعجاب بمئذنته ذات الدرج الخارجى ، ومئذنة الأزهر – ذات الرأس المزدوج – تلفت النظر لأنها مغطاة بالخزف؛ أما مئذنة مسجد السلطان حسن، فإنها تطاول السحاب ، لكن هذا المسجد محاط بأكواخ قذرة ومساكن قميئة مبنية بالأحجار المخلوطة بالطين، ويسكنها أناس بؤساء مع حيواناتهم (من خراف وماعز وكلاب) التى يربونها على أسطح هذه المساكن مما يشوه عظمة هذا المسجد(٣).

وفى زمن بونابرت، كان جامع "الحاكم بأمر الله" مهجوراً منذ سنوات طويلة ، وكذلك كان "جامع الظاهر بيبرس" الذى حوله الفرنسيون إلى حصن دفاعى أطلقوا عليه اسم "حصن سولكوفسكى"، على اسم ضابط قتل فى ثورة القاهرة الأولى.

وتوجد فى القاهرة عدة كنائس منها: كنيستان للأقباط بالقرب من "بين السورين" ؛ وفى المنطقة نفسها ، توجد أيضًا كنيسة أرمنية فخمة يعتنى بها، حسبما يقول الشهود. أما الروم، فلهم كنيسة يقيمون فيها شعائرهم بالقرب من "الحمزاوى"، وكنيسة ثانية فى "حارة الروم".

ويقع "حى الأفرنج" بين "قنطرة الموسكى" و"القنطرة الجديدة" وبه كنيستان كاثوليكيتان، الأولى: تابعة لدير "البروباجاند" (Propagande)، والثانية تابعة "لدير الأرض المقدسة"، وأغلب المترددين عليهما من الأوروبيين، كما يتردد عليهما أيضًا بعض المسيحيين الشرقيين والشوام.

وكل هذه المبانى لا يوجد عليها ما يدل على أنها كنائس ولا تعلوها أجراس (فالإسلام يمنع استخدامها) وتتعرض دائمًا للنهب على يد المتعصبين، ولإهانات الحكام ومظالمهم .

---

(٣) ظلت هذه المبانى قائمة حتى بدايات القرن العشرين وكان اسمها "حوش بردق" (من اسم الأمير أق بردى) وكان يضرب بسكانه المثل فى سلاطة اللسان وسوء الأدب [المترجم] .

ومن المبانى الفريدة فى القاهرة، يوجد "المورستان" (أو "البيمارستان") وهو مستشفى أهلى يستطيع استقبال ما بين ٥٠ إلى ٦٠ مريضاً وعشرة مرضى نفسيين. وينقسم الجزء الخاص بالأمراض العقلية إلى جزأين: الأول خاص بالرجال، والثانى للنساء. وكان المرضى النفسيون من الرجال مربوطين من رقابهم بسلاسل حديدية مثبتة فى الحائط، أما النساء فكن طليقات وأماكن إقامتهن غير مسورة. وفى زمن الحملة الفرنسية، كان فى "المورستان" ٢٧ مريضًا (من المصابين بالسرطان والعمى والأمراض المزمنة) و١٤ مريضًا نفسيًا. وجميع الخدمات والرعاية المقدمة لمرضى المورستان مجانية ويتكفل بها وقف خاص.

وكانت فى القاهرة عدة مستشفيات أخرى لكن إهمال الأتراك والمماليك لها ساهم فى خراب هذه المؤسسات. ولسد هذا العجز، أمر بونابرت ببناء مستشفيات للعناية بجنوده.

وفى هذا السياق يجب أن نذكر "التكايا" ، وهى نوع من أماكن الإقامة المجانية لتجمعات الصوفية وفقراء المسافرين.

وقامت "الخدمات الإدارية" بعمل إحصاء تبين منه وجود حوالى ٢٦ ألف منزل بالقاهرة بكل منها ١٠ أفراد ، وعدد كبير من هذه المنازل كان مبنيًا بالحجر أو الآجر وليس بالأخشاب كما هى العادة فى أغلب مدن الشرق. وبصفة عامة، كان المنزل يتكون من دورين أو ثلاثة وتسكنه عدة عائلات. أما الأكثر ثراء فكانوا يسكنون فى منازل خاصة بهم وحدهم.

وفى زمن الحملة، تم إحصاء مائة حمام عمومى فى القاهرة وحدها. وبعض هذه الحمامات مخصصة للرجال والبعض الآخر للنساء ، ولكن أكثر هذه الحمامات العمومية يتردد عليه الجنسان، طبعًا مع تحديد أيام وأوقات معينة للرجال وأخرى للنساء. وأشهر حمامات العاصمة: "حمام يزبك"، و"حمام الطنبلى"، و"حمام مرجوش" و"حمام سنقر"، ... وغيرها .

ولا نستطيع أن ننسى ذكر الأسبلة الكثيرة الموجودة فى القاهرة: فبالإضافة إلى الأحواض الموجودة بها، والتى ينهل منها الناس كما يشاءون، كانت توجد أيضًا صنابير بإمكان المارة العطشى أن يمصوا الماء منها . وغالبًا ما نجد كُتّابًا لتحفيظ القرآن مبنيًا فوق السبيل. ويتكفل "الوقف" بالإنفاق على كل هذه المنشآت، ويتم جلب الماء إلى الأسبلة بواسطة قرب كبيرة تحمل على ظهور الجمال . لقد تم إحصاء ٢٤ سبيلاً رئيسيًا فى القاهرة من أجملها : "سبيل السليمانية"، و"سبيل الغورى" و"سبيل الأزهر". وبفضل هذه الأسبلة، فإن أفقر شخص كان يمكنه الحصول على الماء مجانًا. وفى بلد صحرواى مثل مصر، فإن هذا العمل الخيرى يعتبر حسنة لا تقدر بثمن.

وكذلك تم إحصاء ٥٦ سوقًا دائمة ومؤقتة فى القاهرة، أكثرها رواجًا كان: "سوق العصر" (حيث كانت تباع الملابس يوميًا بعد الظهر)، و"سوق المغاربة" (لبيع منتجات بلاد البربر)، "وسوق الموسكى" (المشهور بوجود المنتجات الأوروبية فيه) ، و"سوق السلاح" (لبيع الأسلحة والدروع)، و"سوق العبيد" (لبيع العبيد)، ... إلخ .

ونصل أخيرًا إلى الجبانات: فهناك على الأقل ثلاث جبانات تقع بداخل المدينة، ولكن أكبرها توجد خارج أسوار العاصمة. وتم إحصاء عشر جبانات فى زمن الحملة الفرنسية: وتمتد "مدينة الموتى" من شرق القاهرة حتى جنوبها وبها آثار جنائزية رائعة مزينة بالأعمدة والنقوش، خصوصًا تلك التى بناها المماليك. ويطلق على الجبانة الجنوبية اسم "ترب السيدة"، والشرقية هى "ترب قايتباى"؛ وفى الشمال، نجد "ترب القبة" ، وكل هذه الجبانات خاصة بالمسلمين. أما جبانات المسيحيين واليهود فتوجد خلف "مجرى العيون" فى حى "مصر القديمة". وجدير بالذكر أن الجبانات توجد دائمًا فى أرض قاحلة ، أى على حافة الصحراء.

وفى وسط هذه الآلاف من القبور ، توجد طرق يستطيع المار أن يسلكها بسهولة. ويزور الناس قبور ذويهم خصوصًا فى أيام الجمع والأعياد فيقفون أمامها خاشعين. وهذا المشهد ينم عن التدين والتفاخر فى الوقت نفسه .

وتحيط بالقاهرة تلال من الأنقاض خصوصًا فى الجنوب والشرق، وهذه التلال تكونت من تراكم الرماد والفضلات - بجميع أنواعها - وأنقاض المبانى وغيرها... ويطلق الناس - هنا - عليها اسم "تل" أو "كوم" أو "خراب". وهذه الأماكن غير مأهولة، والأشخاص المؤمنون بالخرافات يخشون المرور بها بمفردهم بعد حلول الظلام.

وسننهى هذا الجزء بانطباع لابد أنه أثر على بونابرت: فالقاهرة فى زمنه كانت مدينة كبيرة، غير جيدة البناء بشكل عام، وقذرة جداً، ولكنها مليئة بالحياة والضجيج. وأثناء الحملة الفرنسية، فقدت المدينة عدداً من المبانى التى هدمها الفرنسيون لتسهيل الاتصال بين الأحياء (الحارات) وبعضها البعض أو مع "القلعة"، لكن هذا المشروع لم يستكمل.

وكانت الطرق مليئة بالحمير (المحملة بالبوص أو الأحجار أو الحبوب)، وكانت قوافل الجمال تتقاطر فيها وعلى جانبيها حمولتها من البرسيم أو الطوب. وكان المماليك بملابسهم الزاهية ينطلقون مسرعين على صهوات جيادهم، فيتفرق المارة أمامهم مضطربين. وكان الرجال يذهبون لقضاء أشغالهم سيراً على الأقدام، وهم ينتعلون أحذيتهم البالية. أما النساء فكن ينتعلن أحذية برقبة طويلة ويمتطين الحمير. وفى أغلب الأحيان، كانت توجد جماعات صاخبة مكونة من الشحاذين العميان والتجار وصغار الباعة الذين يصمون آذان الناس بصياحهم، كل ذلك فى إطار من الازدحام الذى يمكن مقارنته بما يحدث فى لندن وباريس.

ثالثاً : ضواحى القاهرة:

كانت ضاحية "بولاق" تقع فى شمال/ غرب القاهرة، وكانت "مصر القديمة" تقع فى الجنوب/ الشرقى منها؛ أما "الجيزة"، فكانت على الضفة الغربية للنيل، فى الجنوب/ الغربى للعاصمة، وتقع "جزيرة الروضة" بين "الجيزة" و"مصر القديمة". وسنتناول هذه الضواحى باختصار فى الفقرات التالية:

١- **بولاق:** كانت بولاق ميناء القاهرة النهرى، وتبعد عنها بحوالى ١,٢ كم، وكان يفصلهما عن بعضهما سهل فسيح مكون من الرواسب النهرية به حقول تمتد على مدى البصر، وكانت توجد طرق تقطع هذه الحقول يسلكها المسافرون والقوافل، وتربط ما بين العاصمة ومينائها.

ويقطن بولاق حوالى ٢٤ ألف نسمة يشتغل أغلبهم بالنقل النهرى، وبناء السفن النهرية، والبعض منهم حرفيون، وتجار من كل نوع. وللتجار مخازن - فى بولاق - غالبًا ما تكون فى الهواء الطلق.

وبولاق هى مقر الجمارك المصرية. وأمام هذا الميناء النهرى ، توجد "جزيرة القراطية"(٤) فى مواجهة قرية "إمبابة". وبنى الفرنسيون فى المنطقة "حجرًا صحيًا" كان سيؤدى خدمات جليلة لو كان قد استمر.

٢- **مصر القديمة** : أما حى "مصر القديمة"، فهو أحد ضواحى القاهرة : وكما يدل عليها اسمها، فإن هذه الضاحية كانت هى العاصمة القديمة للبلاد وبها: "حصن بابليون" الذى لا تزال أطلاله باقية، ومسجد "عمرو بن العاص" (بنى٦٤١م) ، و"أبى السعود"، و"قصر الشمع" (وهو بقايا عدة أديرة قبطية قديمة)، ودير "أبى سيفين" الكبير، وكل هذه المنشآت قريبة من بعضها.

وفى "مصر القديمة" ، أراض فسيحة مسورة تستخدم فى تشوين الحبوب، يطلق عليها اسم "صوامع يوسف" (المقصود هنا هو الناصر صلاح الدين "يوسف" بن أيوب) أقيمت فى هذا المكان لتخزين الضريبة العينية من الحبوب التى تدفعها سنويًا مختلف أقاليم مصر.

وشوارع "مصر القديمة" عبارة عن متاهة معقدة من الحوارى الضيقة، بها ١٢ كنيسة قبطية تختلط واجهاتها بما حولها من البيوت المتصدعة ، وأكثر هذه الكنائس تبجيلاً هى كنيسة "أبى سرجة"، وتوجد بها المغارة التى لجأت إليها "العائلة المقدسة" أثناء إقامتها فى مصر، حسبما تقول الروايات الدينية. ويقع "دير مار جرجس" على مبعدة منها.

---

(٤) هى "جزيرة الزمالك" حاليًا [المترجم] .

وذكر "جالان" (Galland)، أن عدد سكان "مصر القديمة" يبلغ حوالى ١٠ آلاف نسمة – منهم ٦٠٠ مسيحى – ولكننا نعتقد بأن هذا العدد للمسيحيين أقل من الواقع قياساً بعدد الكنائس والأديرة التى أحصيت فى هذا الحى.

ومن "مصر القديمة" تنطلق التجارة النهرية من القاهرة إلى الصعيد، وفيها أيضاً تجبى السلطات الضرائب المفروضة على المراكب المحملة ببضائع الجنوب، وهناك طريق زرعت على جانبيه أشجار السنط – طوله عدة كيلو مترات – ويربط ما بين "مصر القديمة" و"دير الطين".

٣– **"جزيرة الروضة"**: تقع "جزيرة الروضة" بين ضفتى النيل، بالضبط أمام "مصر القديمة" ، ويبلغ طولها ٣١٥٠ متراً × ٥٧٠ متراً عرضاً. ويعنى اسمها – باللغة العربية – "الحديقة" أو "النزهة" أو "المرج المزروع زهوراً" نظراً لحسنها وخصوبتها الناتجة عن طمى النيل الذى كان سبباً فى تكوينها.

وفى "الروضة" بيوت للنزهة أجملها هى البيوت التى بناها الخلفاء . وفى سنة ١٢١٤م، بنيت فيها قلعة لحماية القاهرة من الصليبيين. وفى سنة ١٧٩٨، أنشأ الفرنسيون بها: مستشفى يسع ٥٠٠ مريضاً، ومخبزاً، ومصنعاً للبارود فى مسجد مهجور. وفيها أيضاً "المقياس" الذى يبين مستوى مياه نهر النيل فى فصل الفيضان. ويسكن فى "جزيرة الروضة" فلاحون يزرعون الخضروات والفول والحبوب والأشجار المثمرة، وأشجار البرتقال والليمون.

ولربط ضفتى النيل فى هذا المكان ، أقام الفرنسيون قنطرة (كوبرى) من القوارب ترتكز على "جزيرة الروضة" وتتيح الاتصال السريع براً بين العاصمة والصعيد. ومن "الروضة" يمكن رؤية مزرعة إبراهيم بك، وأحد المراكز الحربية على الضفة الغربية للنهر.

٤– **"الجيزة"**: على الضفة الغربية للنيل، وفى مواجهة "مصر القديمة"، تقع مدينة "الجيزة" وهى مدينة صغيرة تحيطها أسوار سميكة. وبها القصر الرائع لمراد بك، وخصوصاً "الجامع الكبير" ، حيث يحتفظ المصريون بـ "قصبة المقياس" التى يبلغ طولها ٣,٨٥ متر. وفيها أيضاً مصنع للزجاج، تصنع فيه الزجاجات والقوارير المستديرة التى يتم فيها تكرير ملح النوشادر. وفى هذا المكان الحصين، بنى الفرنسيون مخزناً للذخيرة وأقاموا ميداناً لتدريب المدفعية.

٥- **"طرة" و"البساتين"**: وعلى بعد ١٠ كم جنوب العاصمة استجد مجمعان سكنيان قليلا الجاذبية هما: "طرة" و "البساتين" ويبدأ بينهما "وادى التيه" الذى يصل إلى البحر الأحمر. وفى "طرة" كنيسة قبطية اسمها "مار جرجس".

ومما يلفت النظر فى هذه المنطقة هو وجود حصن يتراوح ارتفاعه من مترين إلى ٢,٥٠ متر وعرضه يبلغ متراً واحداً وبه فتحات للمدافع وأبراج على مسافات متساوية. والسور - الممتد من الجبل حتى النهر - بناه إسماعيل بك - سنة ١٧٠٧م -(٥) لكى يمنع خصمه مراد بك من العودة إلى القاهرة. وهذا الخط الدفاعى يسيطر على طريق الصعيد من الضفة اليمنى للنهر ، ويحمى العاصمة من أى هجوم يأتى من الجنوب.

٦- **"المقطم"**: وفى شرق القاهرة، توجد تلال "المقطم" الجيرية التى ترتفع ما بين ٦٠ و١٠٠ متر وهى تستخدم محجراً منذ أقدم العصور.

٧- **"الجبل الأحمر"**: وعلى بعد ٢ كم من القلعة شمالاً، يوجد "الجبل الأحمر" الذى يستخرج منه الحجر الرملى ذو اللون الأحمر المميز . ومن هذه المنطقة ، يبدأ نفوذ البدو الذين ينهبون القوافل ويهيمون فى هذه الصحراء الشاسعة الممتدة حتى مدينة السويس.

٨- **"بركة الشيخ قمر" و"مسجد الظاهر"**: وفى الشمال، إذا تركنا المقابر المملوكية المزخرفة على يميننا، فسنصل إلى "بركة الشيخ قمر" و"مسجد الظاهر بيبرس". ومن هذه النقطة، يخرج "الخليج المصرى" من القاهرة.

٩- **"قصر العينى"**: وإذا صعدنا جنوبياً فى هذا الخليج، الذى يطوق القاهرة، فسنجد فى الغرب "حصن إبراهيم بك" أو "قصر العينى" الذى حوله الفرنسيون إلى مستشفى.

١٠- **"ميدان النشابة "**: وفى السهل الفسيح المجاور يوجد "ميدان النشابة" ، حيث يتمرن المماليك على القتال مستخدمين "الجريد" (الحراب). وباقى المنطقة عبارة عن برك وبساتين خارجية.

---

(٥) نعتقد أن التاريخ المذكور هنا خطأ، ويجب أن يكون بعد سنة ١٧٧٢م ، أى بعد وفاة على بك الكبير وبدء الصراع بين إسماعيل بك ومراد بك [المترجم] .

رابعاً : بدايات التنظيم الحديث للمدينة:

لم تعد القاهرة - بشوارعها الضيقة والمتعرجة - تسمح بتنقل القوات والمهمات بسهولة ؛ ولهذا السبب، أسرع بونابرت بتنفيذ مشاريع أشغال تنظيم المدينة: ففى السهل الذى يفصل بولاق عن القاهرة - حيث توجد الطرق الرديئة التى تغرقها مياه الفيضان - أنشأ الفرنسيون طريقًا ممهداً ومرتفعًا يربط الميناء "بقنطرة المغاربة" فى مدخل العاصمة. كما بدأوا فى شق طريق آخر يربط الأزبكية بالقلعة، لكنه لم يستكمل.

أما ميدان الأزبكية الفسيح، فكان يتحول إلى بركة أثناء موسم الفيضان ، وكان يمكن الاحتفاظ بشهرته القديمة لو كانت الزوارق الخفيفة تستطيع الانزلاق على مياهه كما كانت تفعل فى الماضى. لكن السلطات الفرنسية قررت إنشاء طريق ممهد ومرتفع بجوار "مركز القيادة العامة"، فلم يترك المهندسون الفرنسيون سوى فتحتين صغيرتين تسمحان بمرور المياه القادمة من "الخليج المصرى"... ونتيجة لذلك ، ازداد اتساع الميدان وأصبح مستويًا ونظيفًا، كما أنشأ الفرنسيون طرقًا جديدة، وزرعوا على جانبيها الأشجار وجعلوا بعض الطرق الموجودة مزدوجة.

وقاموا بتجميل حى الموسكى وتهويته - مركز تجمع الإفرنج - فهدموا ثلاثين منزلاً ، كان يشغلها التجار، وكانت تقع على جانبى القنطرة المارة فوق "الخليج المصرى": فأصبح بالإمكان المرور بسهولة من الموسكى إلى الأزبكية بواسطة شارع أعرض وأقل ازدحاماً.

كما أصبحت إنارة الشوارع إجبارية على الجميع: فألزمت السلطات الفرنسية سكان المنازل بوضع مصباح زيتى فوق كل باب. ونزولاً على تظلمات السكان، أصبحت هذه المصابيح تعلق على مسافات متقاربة تبلغ الثلاثين متراً... وكان الأغنياء هم الذين يدفعون تكاليف الإنارة.

وهدم الجيش الفرنسى أبواب الحارات لأسباب تتعلق بالأمن، كما أخذ فى ترميم الحصون القديمة مثل "قلعة الجبل" ، وحوّل "مسجد الظاهر بيبرس" إلى حصن. وبعد

ذلك، أحيطت المدينة بحزام من التحصينات الصغيرة مثل: "حصن كامن" (Camin)، و"حصن دوبوى" (Dupuy)، و"حصن جرازيو" (Grazieux)، و"حصن فينو" (Venoux) ... إلخ[٦] وشرع الجيش كذلك فى تحديث النقاط الحصينة فى الجيزة والإسكندرية.

خامساً: مدن الأقاليم:

كانت مدن الأقاليم مجرد انعكاس باهت لحالة القاهرة ، خصوصًا فيما يتعلق بعمارتها وسكانها ومبادلاتها التجارية. لقد وقع اختيارنا على مدن: الإسكندرية ورشيد ودمياط وطنطا والسويس وأسيوط - لكى نقدم وصفًا موجزًا لها.

١- الإسكندرية:

للإسكندرية ميناءان يفصلهما لسان من الأرض أقيمت عليه المدينة. وتقدم لنا الإسكندرية الحديثة نفسها على النحو التالى: فمن الشمال، يحدها البحر المتوسط؛ ومن الجنوب، بحيرة مريوط. ويقع الميناء القديم فى جنوب/ جنوب/ غرب المدينة، ومن الصعب الدخول إليه بدون مرشد بحرى، وهو مخصص لسفن البلاد الإسلامية. أما السفن الأوروبية، فترسو فى "الميناء الجديد" الذى يقع فى جنوب/ شرق/ شرق المدينة، وهو معرض لرياح الشمال ، ولا يستقبل سوى السفن ذات الحمولة الخفيفة لأنه قليل الغور وملىء بالصخور ؛ ولذلك، فإن أحبال الهلب تتآكل إذا لم تدعمها براميل فارغة تطفو على مسافات متقاربة فتمنع احتكاك هذه الأحبال بالصخور.

ومدخل "الميناء القديم" يحميه حصنان: "حصن الفنار" غربًا و"حصن الفنار الصغير" شرقًا. والحصن الأول يبدو حديثًا ويعلوه فانوس يضاء ليلاً. ومن هذا المكان، قام علماء الفلك - المصاحبون للحملة - بتحديد موقع الإسكندرية.

---

(٦) هذه التحصينات هى نفسها الأبراج الموجودة على الجزء الشمالى من سور القاهرة الفاطمى - "باب الفتوح" و"باب النصر - ونقش الفرنسيون عليها أسماء قادتهم، فنجد حتى الآن: "حصن ديبوى" (Fort Dupuy)، و"حصن كامن" (Fort Camin) الخ الخ ... [المترجم] .

ومثل الكثير من الموانئ، فإن الأسوار تحيط بالإسكندرية. وكان عمرو بن العاص قد دمر سور المدينة القديم، ثم بنى العرب سوراً جديداً لا يزال موجوداً لكنه يعانى من الإهمال الشديد . ويبلغ محيط هذا السور ٤,٨٤٧ كم؛ وفى وسطه، يوجد حاليًا سور جديد أقل منه بمقدار الخمس أو السدس. وهذا السور الجديد يحيط بالمدينة الجديدة التى يسكنها الأتراك وأثرياء المصريين وبعض التجار الأجانب. أما السكندريون الفقراء فيسكنون فى خرائب .

ولدخول الإسكندرية، لابد من المرور بالمقابر. والمدينة قليلة الروعة على الرغم من وجود ٢٥ أو ٣٠ مسجداً بها: فالوكالات والمنازل موزعة بشكل سيئ ومهملة، وكل النوافذ مزودة بأخشاب متقاطعة ، والحركة الوحيدة نجدها فى الأسواق والأحياء التجارية. وقد اشتكى أ. بيروس (A. Peyrusse) صارخًا: "يا للضعة!! يا لنفايات الأتراك والعرب واليونانيين واليهود !!! يا لقذارة المنازل وبؤسها !! فلا يوجد أى أثر لروعة الإسكندرية القديمة !!".

وقبل أن تسد الرمال الفرع الكانوبى للنيل، كانت الإسكندرية تتزود بالماء العذب بسهولة من النهر، ثم أخذت تحصل عليه من قناة يسمونها "الخليج"(٧). ومجرى الماء هذا كان صالحًا للملاحة النهرية طوال العام ؛ وحاليًا، فإن الملاحة فيه غير ممكنة إلا لمدة ٣٠ أو ٤٠ يومًا فى السنة نتيجة للإهمال المدمر الذى أبداه الأتراك والمماليك فى صيانته. وأدركت الحملة الفرنسية أهمية هذا "الخليج" فاعتنت به وجعلته صالحًا للملاحة لدرجة أنه يمكن الآن نقل المدافع بواسطته حتى القاهرة.

وتحصل الإسكندرية على الماء العذب بواسطة أربع ترع صغيرة، تخرج من "الخليج" قبل مصبه بالقرب من "الميناء القديم". وهذه الترع الأربع موزعة على طول ٢ كم. ويتم تخزين الماء العذب فى صهاريج كبيرة مبنية تحت الأرض منذ زمن قديم جداً. ويستخرج الماء منها بالسواقى ثم يمر فى قنوات صغيرة توزعه على صهاريج أصغر فى مختلف أرجاء المدينة. وفيما مضى، كان عدد الصهاريج يتراوح ما بين ٣٦٠ و٤٠٠

(٧) ذكر المسعودى أن انقطاع جريان هذا "الخليج" حدث فى سنة ٣٣٢ هـ (حوالى سنة ٩٤٣م) أى فى عهد الدولة الإخشيدية [المترجم] .

صهريج، مخصصة لتخزين الماء العذب. ولكن فى زمن الحملة الفرنسية، أصبح عددها يتراوح مابين ٢٠٧ و٣٠٨ صهاريج حسبما أفادت شهادات الشهود.

وبالقرب من "باب رشيد"، كان الماء يستخرج من صهاريج عمقها يتجاوز العشرة أمتار؛ ولكن بالقرب من "الميناء القديم" كانت الصهاريج لا تتجاوز ٥ أمتار عمقًا . وبلغ عدد السواقى ٧٢ ساقية تديرها الخيل أو الثيران التى تلتزم مديرية البحيرة القريبة بتقديمها كل عام لهذا الغرض.

والصهاريج مملوكة لـ ٢٤ مسجداً وتكفى لتزويد سكان الإسكندرية بالماء العذب لمدة أربعة أشهر. وهى ذات عقود وتمتلئ حتى منتصفها بمياه الأمطار والنصف الثانى يملأه ماء "الخليج".

وبالإضافة إلى ما سبق، فإن كل منزل لديه صهريج صغير لاستخدامه الخاص ويملؤه السقاء على نفقة المالك. وبعض المنازل بها آبار ماؤها قد يكون شديد - أو قليل - الملوحة والمرارة. وتستخدم مياه الآبار - أساسًا - فى شئون الحياة اليومية، وتوجد بالطبع آبار مياهها عذبة. وأشد الناس فقراً هم الذين يجلبون الماء العذب من الصهاريج العامة.

ولكى يخفف السكندريون من طعم الملوحة والمرارة - الموجودتين فى مياه آبارهم المنزلية - فإنهم يضيفون إليها المستكة المستوردة من سيو (Scio)[8] أو اللوز المقشور، ولكن طعم المياه - فى هذه الحالة - لا يعجب الغرباء . وكما هو الحال فى القاهرة، توجد فى الإسكندرية أسبلة عامة يرتوى الناس منها بمص الصنابير البارزة.

لقد تناولنا - بإسهاب - مشكلة الماء العذب فى الإسكندرية لأن نوعيته وانتظام الحصول عليه يؤثران على استمرار الحياة فى هذه المدينة. وهذه المشكلة لم تحل إلا فى عهد محمد على.

وفى وسط هذه الخرب، يرتفع "كوم سانت كاترين" وبه مسلتان يطلق عليهما "إبرتا كليوباترا" وإحدى هاتين المسلتين مطروحة على الأرض. ثم نصل إلى السور المحيط بالمدينة التى يسكنها أهل البلد، فنجد أبراجه فى حالة سيئة، وبه ثلاثة أبواب:

---

(٨) فى بلاد اليونان [المترجم] .

هى "باب رشيد" و"باب سدرة" و"باب البحر". وفتح الفرنسيون بابين آخرين أولهما هو "باب الديماس" (Porte des Catacombes) ، والباب الثانى فى الحصن الذى يحمى ساحة "الميناء الجديد". وفى سنة ١٨٠١م، أنشأوا سوراً جديداً بين الاستحكامين لحماية المدينة من القوات الأنجلو/ تركية.

وسنندهش عندما نكتشف معبداً يهودياً وديراً قبطياً - مقراً لبطريرك الأرثوذوكس - بين أطلال مدينة الإسكندرية. ويوجد أيضاً دير تابع "لطائفة رهبان الأرض المقدسة" (أو "طائفة مجمع التبشير" الكاثوليكية).

ومن الآثار الموجودة، سنقصر حديثنا على أثرين اثنين ، الأول هو: "مسجد السبعين" وهو مسجد مهجور حوله الفرنسيون إلى ميدان للمدفعية ، والأثر الثانى هو: "كنيسة القديس أثاناسيوس" التى تم تحويلها إلى مسجد به تابوت فرعونى عجيب من حجر البازلت يطلق عليه السكندريون اسم "سبيل العشاق". وهناك أيضاً "كنيسة سانت كاترين" التابعة للروم ، و"كنيسة سان مارك" التابعة للكاثوليك. وكان يوجد أيضاً "مجرى للمياه" هدمه المستعمرون لبناء خط دفاعى مكانه.

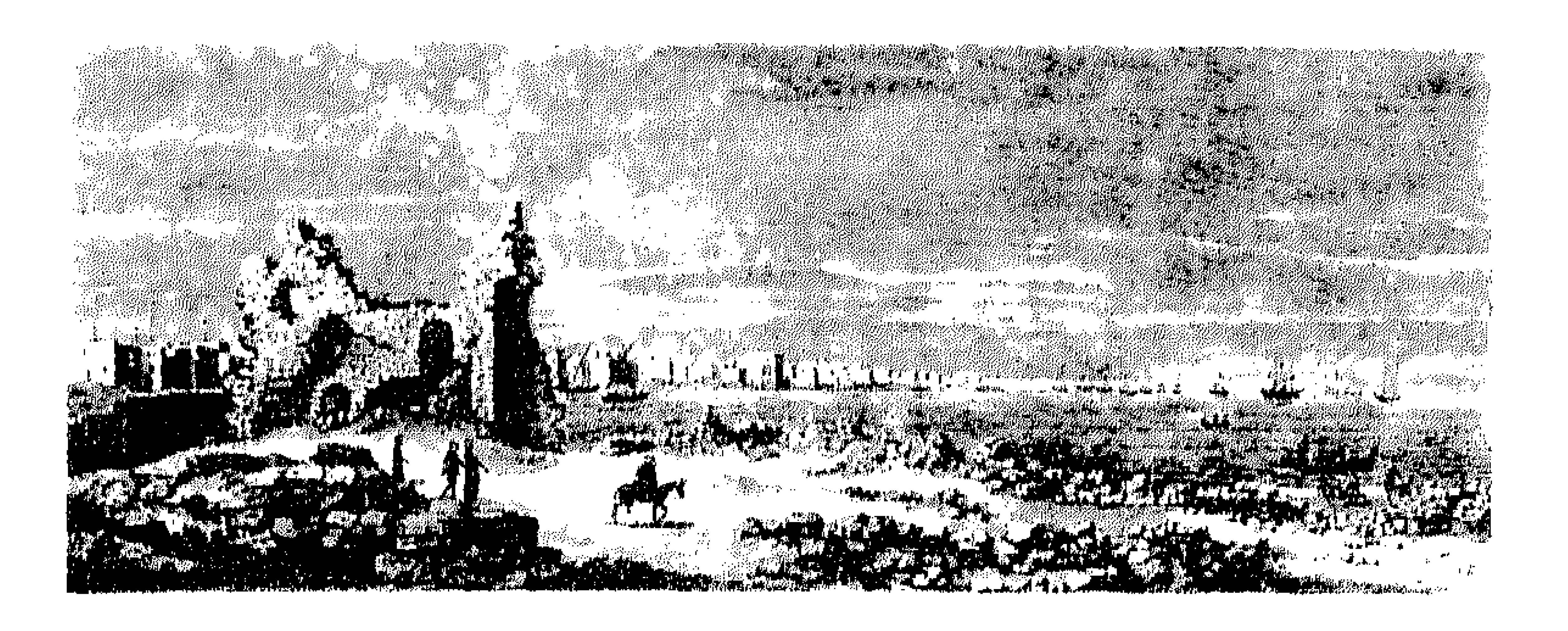
وباستثناء القناطر الأربعة التى تصل بين ضفتى "الخليج"، لا توجد مبان جديرة بالذكر سوى ثلاثة حمامات عمومية - أو أربعة - ومجرى قديم للمياه. وعلى أطراف الكتلة السكانية، يرتفع "العامود" الذى يسمونه "عامود بومبى" (Colonne de Pompée)(٩)

وبعد استسلام الإسكندرية لبونابرت، أمر بدفن الجنود الفرنسيين - الذين لاقوا حتفهم أثناء الاستيلاء على المدينة - بجوار العامود وبأن تنقش أسماؤهم على جذعه، ولكن تنفيذ هذا المشروع تأجل عدة مرات، ثم ألغى تماماً.

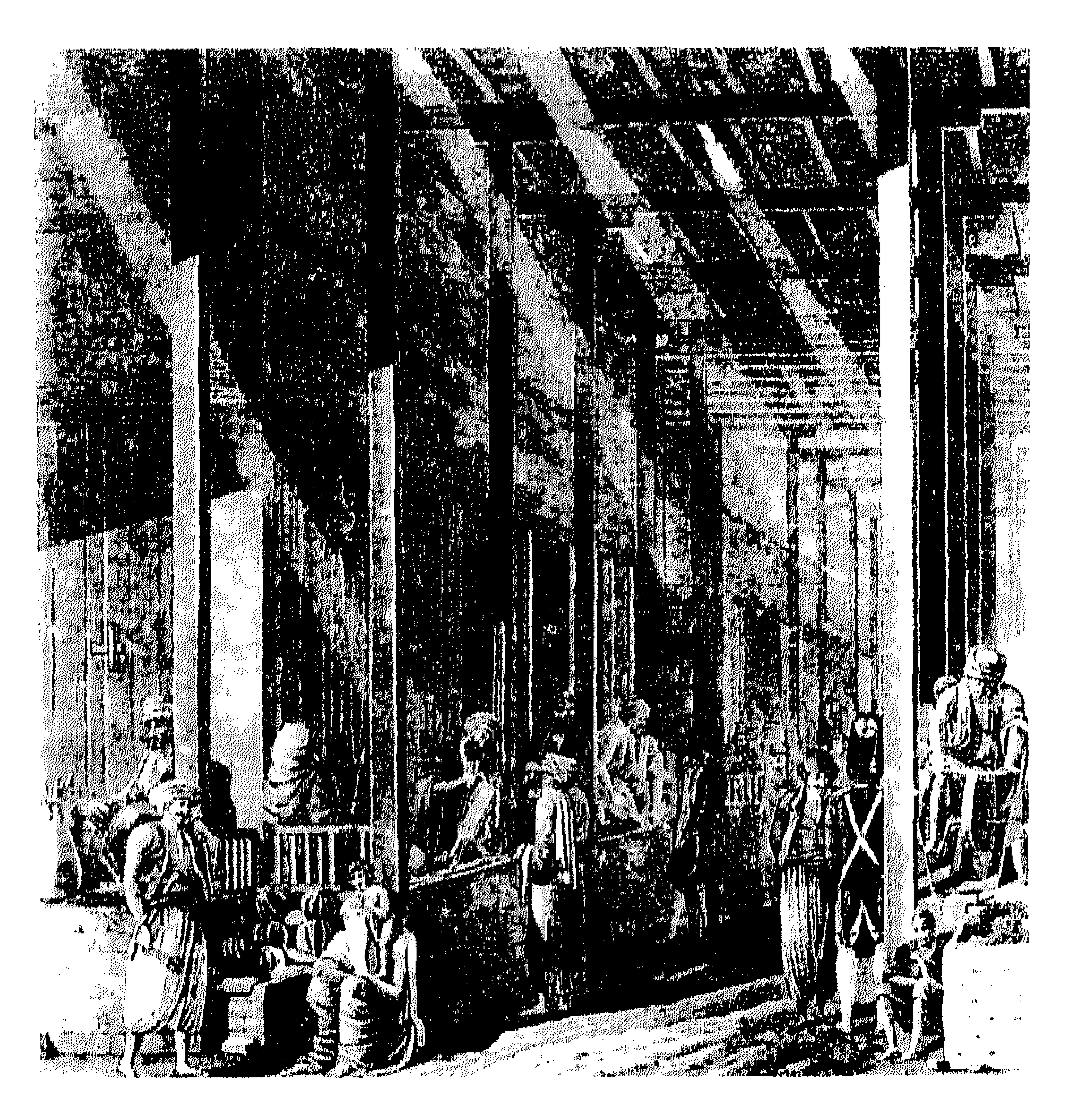
وتقع "مقابر الديماس" (Les Catacombes) فى الجنوب على بعد ٢ كم من المدينة، وهى مهجورة منذ زمن طويل ، وتحولت إلى مجرد مأوى للحيوانات الضارية ، ومكان يثير فضول الرحالة. كما توجد ثلاثة كهوف على الشاطئ يطلقون عليها خطأ اسم "حمامات كليوباترا".

---

(٩) هو "عامود السوارى" الحالى. وهذا العامود ليست له أى علاقة ببومبى - القائد والسياسى الرومانى المتوفى سنة ٤٨ ق.م - بل إن الذى أقامه هو والى مصر تكريماً للإمبراطور دقلديانوس فى٢٩٦م[المترجم] .



صورة رقم (٨) : ميناء الإسكندرية الشرقى.



صورة رقم (٩) : السوق الكبير فى الإسكندرية.

وعند بداية الحملة الفرنسية على مصر، كان عدد سكان الإسكندرية يبلغ ٨ آلاف نسمة فقط تناقصوا فأصبحوا ٧ آلاف عند رحيلها. وفى هذه المدينة، تتجاور جميع الأجناس الموجودة على السواحل الشرقية للبحر المتوسط وكذلك بعض الأوروبيين. وإذا كانت اللغات التى نسمعها هناك مختلفة، فإن الأخلاق تختلف كذلك. وبالنسبة للأجانب، فإن الأمن فى الإسكندرية لا يقل عن مثيله فى القاهرة بل يفوقه نظراً لإمكانية اللجوء إلى السفن الأجنبية الراسية فى الميناء المخصص للأوروبيين. وعاش ٢٠ فرنسيًا فى هذا الميناء بين سنتى ١٧٧٤ و١٧٩٨م. وكانت بها أربع وكالات تجارية زادت إلى ست فى سنة ١٧٨٩م.

إن هذه المدينة التى كانت ذائعة الصيت، فى العصور القديمة، أصبحت الآن لا تعرف سوى الطاحونة التى يديرها حصان، وأكثر الطواحين بساطة تدار باليد... لقد أصبحت الإسكندرية مجرد مخزن وميناء لتصدير: الأرز والنطرون والبن (الوارد إليها من بلاد العرب) وبعض بضائع الهند (الواردة إليها عن طريق البحر الأحمر). وفى المقابل ، كانت تستورد: المنسوجات الحريرية وأنواع الزجاج ومنتجات فينيسيا ومارسيليا والقسطنطينية. وذكر أ. بريتون (A. Breton) بمكر: "إن تصدير المومياوات يتم بسهولة لأن الجمارك المصرية تقع تحت سيطرة اليهود".

والحرف اليدوية فى هذه المدينة غير رائجة وأهم ما تصنعه هو نوع من "السختيان"[(١٠)] المصبوغ باللون الأحمر وهو سلعة مطلوبة فى القاهرة وموانئ بلاد الشام . وتوجد بها ترسانة يصنع فيها نوع من السفن الحربية التركية مسلحة بعدد يتراوح من ٤٠ إلى ٥٠ مدفعًا، وتصنع فيها - أيضًا - "الجرمة" وهى نوع من السفن التى تبحر ما بين رشيد ودمياط من خلال مصبات النهر، وتقدم الإسكندرية - كذلك - أكثر البحارة شجاعة وإقدامًا.

---

(١٠) السختيان" هو جلد الماعز المدبوغ [المترجم] .

٢- رشيد :

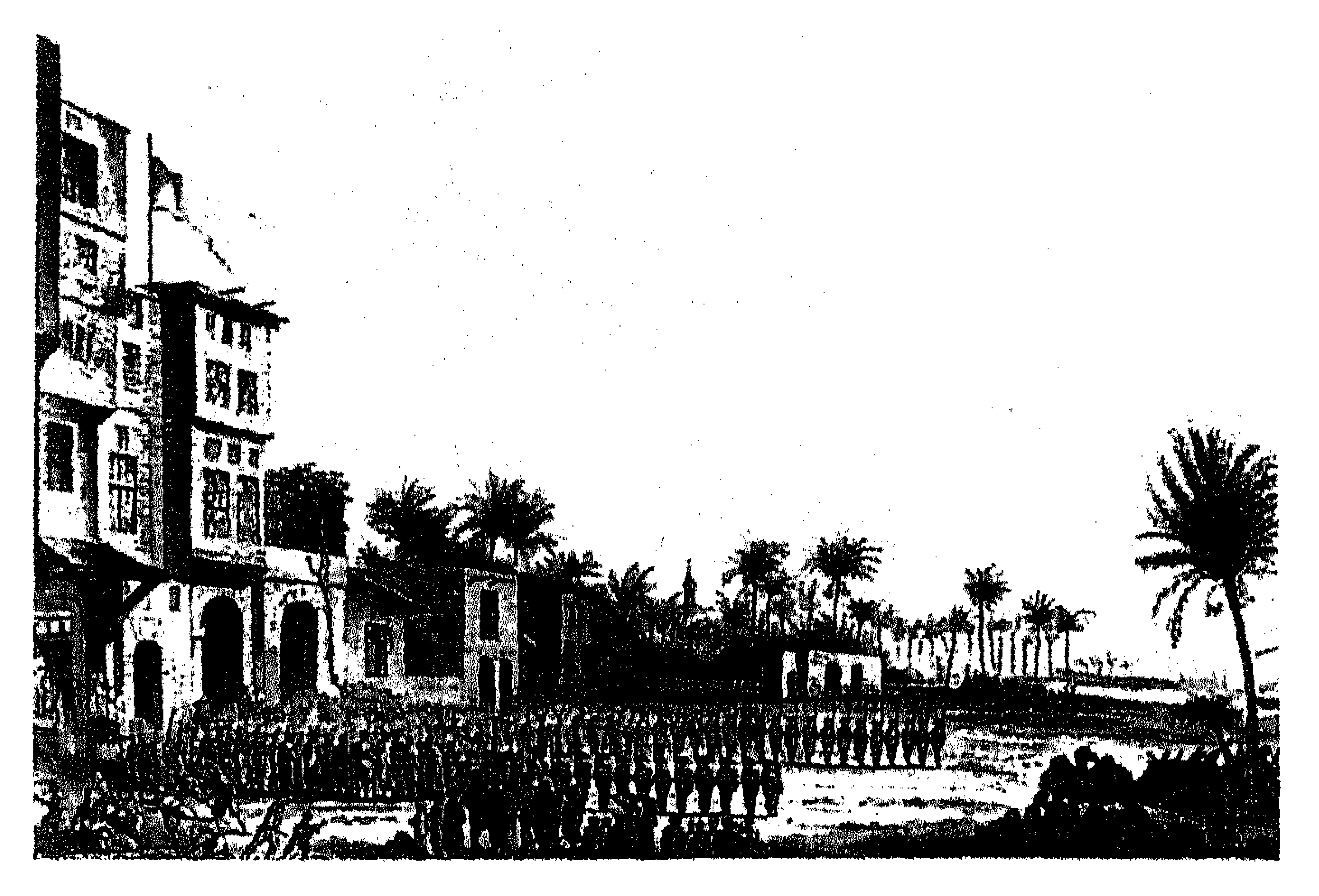
بناها الخليفة هارون الرشيد سنة ٨٧٠م تقريبًا[١١] ، قرب مصب الفرع البلبوتينى للنيل؛ ومن هنا جاء اسمها. وكانت رشيد تقع على شاطئ البحر، ولكن الترسيبات جعلت البحر بعيدًا عنها حاليًا، وتجتاحها الرمال من جهة الغرب ولذلك توجد تلال رملية مرتفعة إلى حد ما. وعلى مدى الأفق، نرى الصحراء على اليسار والبحر على اليمين، وفى الجنوب توجد مناطق زراعية خصبة على طول نهر النيل.

وطوال فترة القرون الوسطى، كانت رشيد تتمتع بالرخاء، وظلت - حتى الآن - هى المعبر الذى تمر به البضائع المتجهة إلى القاهرة . وكثرة عدد الوكالات التجارية بها تشهد على مدى أهميتها. وهى مدينة كبيرة وميناؤها مخصص لسفن البلاد الإسلامية، وتحيط به المئات من الكلاب الضالة. وعلى الضفة الغربية للنيل، يوجد حصن للدفاع عنها، لكنه يصبح بلا جدوى نظرًا لوجود جرف رملى خطير يكاد يسد المصب ولا يمكن عبوره إلا بمساعدة ربان ماهر.

ويذكر الرحالة أن شوارع المدينة ضيقة ومتعرجة وغير مبلطة ومغطاة بالقاذورات. وفى المقابل، فإن أسواق رشيد أكثر عرضًا وأكثر تهوية من أسواق الإسكندرية. وبعض منازل رشيد مبنية على أعمدة وتستخدم أبدان العواميد كأساس لهذه المنازل. ومع ذلك، فإن مساكن الأثرياء هنا لا يبدو مظهرها أفضل من مساكن فلاحى فرنسا . والمنازل مبنية بالآجر ذى اللون الأحمر الغامق ومكوناته لا تصمد أمام التقلبات الجوية. وعلى العكس من رشيد، فإن أحجار البناء فى الإسكندرية هى التى تتفتت. وبصفة عامة ، فإن هذه المبانى ترتفع دورين أو ثلاثة وبها مشربيات ولها أسطح ، والدور الأرضى مخصص للسلاملك. ومنازل الأثرياء هى فقط التى يوجد بها زجاج على النوافذ .

---

(١١) مدينة "رشيد" لا علاقة بها بهارون الرشيد ، فاسمها باللغة المصرية القديمة : "رُوخيت" ، ثم أصبح "روشيت" فى العصر القبطى ، ثم "رشيد" فى العصر الإسلامى . [المترجم] .



صورة رقم (١٠) : منظر لرشيد ومنزل الجنرال/ مينو.

وأمام الباب الرئيسى، يوضع زير ملئ بالماء مخصص كسبيل للمارة العطشى، أو يوضع دلو به صنبور يرتوون من مائه. وفى مداخل المنازل، توجد مصابيح معلقة لإنارة الشوارع، وهذا شىء فريد للغاية فى مصر . وفى رشيد ظاهرة غريبة: فأهلها لا يرممون منازلهم؛ وعندما يصبح المنزل أيلاً للسقوط، يتركه ساكنوه ويبنون منزلاً جديداً فى مكان آخر. ويؤجر الأثرياء حراساً نوبيين يجلسون أمام أبواب المنازل.

ونظراً لعلاقات أهل رشيد بالأجانب، فإنهم يتميزون بلون بشرتهم الفاتح أكثر من باقى المصريين. وفى الشوارع، يرتدى الأطفال والنساء ملابس رثة، ولا يعتنون بأنفسهم خوفاً من الحسد. كما أن الأطفال ضعيفو البنية، والعمى منتشر بين السكان، وهذا ما يجعلنا نشك فى صحة السكان الذين يتصفون بالقناعة والاعتدال فى غذائهم، الذى يتكون أساساً من الخبز والبلح

والأوربيون كثيرون – نسبيًا – في رشيد: ففيها ٨ أو ٩ فرنسيين (!!) يملكون متجرين ولهم نائب قنصل في أغلب الأحيان. وهناك شخص فرنسي واحد له الحق في ارتداء الملابس الأوروبية في رشيد هو المسيو ڤاري (Vary) وهذا امتياز منحته له السلطات. وعندما دخلت القوات الفرنسية رشيد، استقبل المسيو ڤاري الجنرال مينو – حاكم المدينة الجديد – وضباطه.

وفيما عدا المستودعات والتجارة التي تمارس في الوكالات، فإن صغار الحرفيين يوفرون للسكان مستلزمات الحياة اليومية، فهناك : خراطو الخشب وصناع الأقفال الخشبية[١٢] والنحاسون والشبكشية[١٣] وصناع القفف والحبالون والقفاصون والبناءون والصياغ ... إلخ

وعلى الرغم من علاقات مدينة رشيد الخارجية فإنها منطوية على نفسها ومتوافقة مع الأيام الرتيبة.

٣ – دمياط:

يقول كلود سافاري (Claude Savary) عن دمياط إنها أكبر من رشيد، وهي تمتد على شكل نصف دائرة على الضفة الشرقية للنيل وعلى بعد تسعة كيلومترات من مصب النهر. "وميدان المنشية" هو أجمل وأهم ميادينها. ووكالاتها وخاناتها واسعة، مثل مثيلاتها الموجودة في بولاق، وهي مليئة: بمنسوجات الهند، وبالأقمشة المنسوجة في ضواحي دمياط ، وحرير لبنان، وملح النوشادر والأرز، وهذا ما يبرهن على أن دمياط هي – أساسًا – مدينة تجارية.

والمنازل مصفوفة على طول النهر، وعلى أسطحها توجد مقاصير خشبية مغطاة بالنباتات الخضراء. والكثير من مساجدها لها مآذن سامقة. وغالبًا ما تكون حماماتها مزينة بالمرمر. وللفرنسيين هنا فندق صغير وكنيسة.

---

(١٢) يقصد "الضَبَبيّة" أي صناع "الضَبَب" مفردها "ضَبّة" وهي الأقفال الخشبية [المترجم] .

(١٣) صناع الشُبُك وهو نوع من الغلايين الطويلة [المترجم] .

ومع أن موقع دمياط لا مثيل له، إلا أنها تفتقر وجود ميناء جيد: فالرمال تعترض مجرى النهر وتجعل الملاحة عسيرة بين دمياط والبحر. ولشحن أو تفريغ البضائع من وإلى السفن، لابد من استخدام سفن صغيرة مسطحة القاع. ويدمياط عدد كبير جداً من القوارب الصغيرة التى ترسو على أرصفة الميناء، وهى مستعدة لنقل البضائع أو الركاب من وإلى السفن. فهل سترى هذه المدينة أياماً أفضل من أيامها الحالية؟؟

وبالنسبة لبقية المدن، فلن نترك أنفسنا ننساق وراء التفاصيل الطبوغرافية المبهمة التى قد تجعلنا نكرر ما سبق ذكره؛ ولذلك، فضلنا الاكتفاء بذكر المميزات الأساسية لكل مدينة.

٤- طنطا:

مدينة مهمة فى الدلتا، ويتراوح عدد سكانها ما بين ١٠ آلاف و ١٢ ألف نسمة فى الأيام العادية لأن هذا العدد يتضاعف عشر مرات فى أوقات الموالد التى يحتفل بها فى الربيع والصيف، خصوصاً فى الربيع: فيتدفق عليها أكثر من ١٥٠ ألف زائر من جميع أرجاء البقاع الإسلامية؛ لزيارة ضريح السيد أحمد البدوى. والمسجد المقام فوق ضريحه يرجع إلى القرن الرابع عشر الميلادى وجدده على بك فى القرن الثامن عشر.

وتم تصميم المدينة لكى تستطيع استيعاب طوفان الزائرين والتجار القادمين إليها. والطوابق الأرضية - فى أغلب المنازل - عبارة عن دكاكين صغيرة تؤجر بإيجارات باهظة للتجار الأغراب.

وبما أنه لا توجد أماكن تستوعب كل الزوار، فإن الكثير منهم ينامون فى العراء. وفى هذه الفترة، تظل المنازل والخيام مضاءة الأنوار طوال الليل وتصدح الموسيقى فى كل مكان. وتقام هذه الموالد فى أشهر يناير وأبريل وأغسطس وتستمر لمدة أسبوع فى كل مرة. ولأسباب أمنية، منعت سلطات الاحتلال الفرنسى الاحتفال بهذه الموالد طيلة فترة احتلالها لمصر، ونشر الفرنسيون شائعة باحتمال انتشار وباء الطاعون فى أرجاء طنطا.

وأثناء موسم الفيضان، يشرب جميع سكان طنطا ماء النيل، وبعد انتهاء الفيضان، فإن من يملكون الصهاريج هم - فقط - الذين يكون بمقدورهم شرب هذا الماء . أما باقى الأهالى ، فيكتفون بشرب الماء المالح والمر من الآبار. وتزداد الملوحة بقدر ما ينخفض منسوب النهر. والآبار عميقة بدرجة تسمح بوجود الماء فيها بشكل مستمر. وفتحة البئر تكون عادة مبنية بجزء من عامود قديم مفرغ من الوسط.

٥- السويس :

ميناء السويس هو ملتقى التجارة فى البحرين الأحمر والمتوسط، ومع ذلك فهو أكثر موانئ مصر صعوبة : فالسفن لا تستطيع دخوله إلا بعد تفريغ حمولتها. ومكان الرسو يبلغ طوله ستة كم ويحده شاطئان تغمرهما مياه المد. وعلى طول الدائرة الشرقية للمدينة، توجد بعض الحوائط من الدبش تستخدم كمرسى لمراكب الصيد ومراكب الإنقاذ التابعة للسفن الراسية. ويتم الاتصال بين هذا النوع من أرصفة رسو السفن والميناء عن طريق قناة تصل حتى أعمق نقطة فى الخليج حيث يكون منسوب الماء أكثر من مترين أثناء الجزر. وبالإضافة إلى الصعوبات السالفة الذكر، فإن مدخل الميناء مسدود بحاجز رملى...

وفى الشمال الشرقى للسويس تقع أطلال مدينة القلزم (مدينة Klisma القديمة) وهى عبارة عن ربوة مكونة من الأنقاض والنفايات.

ولا توجد مياه عذبة فى السويس؛ ولكن على بعد ستة كيلومترات منها، توجد عين مالحة ولذلك يحصل سكان السويس على ماء الشرب من "عيون موسى" على بعد ١٦كم. وبالطبع فإن الفواكه والخضراوات تجلب إليها من داخل البلاد.

والسويس بها شيء غريب: فشوارعها مستقيمة وميادينها العامة تبدو على قدر من الانتظام، وبيوتها المهمة ذات مظهر أوروبى. والسكان فى السويس لا يتجاوزون الألف نسمة يضاف إليهم بعض اليونانيين. والميناء لا يعرف الحياة والحركة إلا أثناء موسم الحج عندما يستقبل ويودع زائرى الأراضى المقدسة.

ولابد من ذكر الخليج الذى أمر الخليفة عمر بن الخطاب (القرن السابع الميلادى) نائبه عمرو بشقه من النيل حتى القلزم[١٤].

وأثناء الحملة الفرنسية، كان هذا الخليج لا يزال يمر فى وسط القاهرة – مع انه لم يعد مستخدماً – وينتهى فى الريف فى الشمال الشرقى من "بركة الحاج" ولا يزال مصبه واضحاً فى السويس. ويقول ڤولنى أنه يمكن رؤية سور من الآجر فى مواجهة "عين النبعة" على بعد حوالى ٣٠٠ متر من شمال مدينة السويس.

وفى الفترة من ٢٤ ديسمبر سنة ١٧٩٨ حتى ٦ يناير ١٧٩٩، قام بونابرت برحلة سريعة إلى السويس، وأمر بإجراء عمليات مسح للمنطقة المحصورة بين البحر الأحمر والبحر المتوسط لاحتمال حفر قناة عبر هذا البرزخ ، لكن كان لابد من الانتظار لأكثر من ٥٠ عاماً لكى نرى السويس تخرج من الظلام الذى كانت تغرق فيه.

٦- أسيوط:

أثنـــاء حملة الجـــنرال ديزيه (Desaix) على الصعيد، كان يرافقه د. دى بيترو (D. De Pietro) الذى ترك لنا وصفاً شيقاً لأسيوط، التى أسماها "سيوط" حسبما كانت تنطق فى ذلك الزمان. ويقول عنها باختصار: إنها تعتبر عاصمة الصعيد وتقع فى منتصف الطريق تقريباً بين القاهرة وأقصى جنوب البلاد، ولا توجد بها آثار تميزها عن باقى مدن الصعيد التى تسيطر عليها أسيوط نظراً لامتدادها. وهى أكثر مدن الجنوب سكاناً وهى – أيضاً – مقر لأسقفية قبطية. وسوق المدينة يسحر الألباب ليس فقط بجماله بل أيضاً بطوله ونظافته ورخائه وكثرة متاجره.

(١٤) سجل التاريخ أن مصر كانت أول دولة شقَّت قناة صناعية عبر أراضيها لتربط البحر المتوسط بالبحر الأحمر عن طريق نهر النيل وفروعه. وأول من شقها كان الفرعون "سنوسرت الثالث" (حوالى سنة ١٨٧٤ ق.م.)، وعلى مدى العصور قام حكام مصر بتنظيفها من الرمال التى ردمتها عدة مرات [المترجم] .

وجبانة أسيوط تثير الدهشة نظراً لوجود أشجار الجميز وجداول المياه الصغيرة على جانبيها. وبالتالى ، فإن ما كان مفروضاً أن ينعم به الأحياء ينعم به الأموات!!

أما دندرة والأقصر، فلا يثيران الاهتمام إلا بسبب وجود الأطلال القديمة بهما.

ويقع ميناء القصير على البحر الأحمر ويفرغ فيه البن المجلوب من بلاد العرب وبهارات الهند وتوابلها.

وأى تجمع سكانى يحكمه قائمقام (رئيس) يتنافس السكان فى التودد إليه.

سادساً: الريف:

تتغير ألوان السهول الفيضية الممتدة بطول ضفتى النيل حسب الفصول: فهى قد تكون خضراء إذا كانت مزروعة، أو سوداء إذا كانت لم تزرع بعد، أو ذهبية وقت حصاد القمح، وتصبح كالمرآة عندما تغمرها مياه الفيضان. وفى وسط المياه تعكس مجموعات النخيل صورتها على سطح الماء من بعيد.

وتسيل مياه الفيضان ببطء تاركة خلفها ترسيباً من الطمى الخصب. وعندئذ لا يكون مطلوباً من الفلاح سوى حرث الأرض بمحراثه الذى يجره الجمل أو الثور أو الحمار. وتلى ذلك شهور من الرى المضنى في بلد لا يعرف المطر تقريباً. وعلى الفلاح أن يوصل ماء الرى حتى أطراف الأراضى المزروعة لكنه يفتقر إلى الأدوات الفعالة لرفع الماء.

وعندما يُنهى الفلاح يوم عمله، يرجع إلى قريته الصغيرة حيث لا نرى سوى منازل بائسة – من الطوب اللبن – غير محددة الشكل: فهى تقع بين الشكل الدائرى والمربع. وهذه المنازل البائسة منخفضة جداً أو متلاصقة تماماً ويبيت ساكنوها فيها بلا نظام على حصر مجدولة. وكل منزل به فتحة مربعة إلى حد ما يقفلها باب خشبى، وهو الأثاث الوحيد ذو القيمة الذى يحمله الفلاح معه حين يرحل. والأوانى المنزلية عبارة عن طاجنين أو ثلاثة من الفخار. وأسطح هذه الأكواخ مغطاة بأعواد الذرة سريعة الاشتعال.

وقرية الرحمانية (مركز عسكرى فى الدلتا) لا يوجد بها سوى منزلين فقط مبنيين من الحجر: أحدهما عبارة عن قهوة قذرة للغاية والثانى هو منزل حاكم المنطقة. ويقول "أ. **جالان**" إن المساكن قذرة للغاية لدرجة "أننا قد نقبل - بصعوبة - تحويلها إلى زرائب فى فرنسا..."

والرجال فى الريف ذوو بنية قوية وخطواتهم ثابتة، وبشرتهم قد لفحتها الشمس مثل الريف الذى يعيشون فى هوائه الطلق. أما أغلب النساء فيسرن حاسرات الوجوه تقريبًا وقوامهن ممشوق ومشيتهن سريعة، وأثداؤهن طويلة ورخوة وهن يفتخرن بذلك : لأنه يعنى أنهن قد أرضعن كثيراً من الأطفال. ويلاحظ أن نسبة الوفيات بين الأطفال مرتفعة جدًا فى الأرياف.

ويقبض الفلاح ما بين ٥ و ٨ مدينيات فى الصعيد ومن ٨ إلى ١٩ مدينيًا فى الدلتا عن يوم العمل أى من شروق الشمس حتى غروبها . ومع ذلك فالعمل يتقدم ببطء: فحرث الفدان الواحد (٤٢٠٠ متر مربع) يستغرق يومين أو يومين ونصف بمساعدة ثور واحد. ولا يملك الفلاح - من أدوات العمل - سوى الفأس والقفة: الفأس لحرث الأرض وتسويتها ، والقفة لنقل التراب والبقايا.

وطعام الفلاح يكلفه ٣ مدينيات يوميًا وهو لا يخرج عن: خبز الذرة والبصل النيئ والخيار والجبن والفول والعدس واللحم (فقط فى شهر رمضان وأيام الأعياد والمواسم). وعلى هذا الأساس، فقد حسبنا أنه ينفق ٢٢ ريالاً أبو طاقة (٧٠ فرنك فرنسى) سنويًا على غذائه. أما ملابسه فهى عبارة عن جلباب عادى، ونوع من الشيلان وعمامة وزوج من البُلغ، ولا تكلفه الملابس سوى ٤ أو ٥ ريالات أبو طاقة سنوياً.

ويعانى الفلاحون من سوء معاملة المماليك ووكلائهم ، ومن الضرائب والسخرة ونهب البدو لهم. وليس أمام الفلاحين أى مخرج من حالتهم البائسة هذه؛ ولذلك فإن الحل البديل الوحيد هو الهرب من قراهم وترك أراضيهم بوراً. وحالات هروب الفلاحين تزداد يومًا بعد يوم. لقد كانت مصر - فيما مضى - هى شونة غلال روما القديمة، لكنها - حاليًا - بلد متخرب يحيا بالكاد .

سابعًا : النقل :

يجب علينا – منذ البداية – أن نميز بين نوعين من وسائل النقل: البرى والنهرى، ونظرًا لعدم وجود العربات، كوسيلة نقل برى، فإن الجمال تحمل الأشياء الثقيلة ذات الأحجام الكبيرة. ويستطيع الجمل نقل إردب من القمح (٢٥٠ كج) قاطعًا ٢ كم فى ٢٤ دقيقة حاملاً – أيضًا – من يقوده . وغذاء الجمل الواحد يتكلف ٧ مدينيات يوميًا. ومن الطبيعى رؤية رجل واحد يقود قطارات الجمال – التى تعبر المدن والقرى والصحراء – وهى تتمايل حاملة قناطير البضائع على أجنابها. وسخر ڤيڤان دينون (Vivant-Denon) من هذا المشهد قائلاً: "إن الجمال هى عربات النقل فى القاهرة، والحمير هى عربات الركوب فيها".

وفى القاهرة، يوجد حوالى ٣٠ ألف حمار. والحمار يحمل أقل من حمولة الجمل (حوالى ١٢٥ كجم)، وذكر أحد أعضاء الحملة الفرنسية ما يلى: "إن الحمير – فى القاهرة – تماثل عربات الركوب فى باريس: فالناس يستأجرونها من الميادين العامة لقضاء مشاويرهم". والأجرة غير محددة لأنها تتوقف على طول الطريق والمدة التى يحتفظ فيها الراكب بالركوبة. واشتكى أحد الأجانب المقيمين فى القاهرة قائلاً: "قبل وصول الفرنسيين، كنا نذهب من أحد أطراف المدينة حتى الطرف الآخر مقابل ٣ أو ٤ صلديات. أما الآن، فأصبحنا ندفع ضعف هذا المبلغ".

وبصفة عامة، فإن الحمير التى تكترى تتصف بالجمال ويصل ثمن الواحد منها إلى مائة ريال فرنسى قديم (Ecu) ويعتنى أصحابها بها: فيقصون شعرها وأحيانًا يخضبونها بالحناء. ولا ينزع المكارية اللجام عن حميرهم بل يدفعون بالبرسيم فى أفواهها وهى تسير وذلك لكسب مزيد من الوقت. والحمير غير مكسوة بالبرادع ولكنها مجهزة بشكل جيد وبها ركاب. وسروج الحمير المخصصة لحمل النساء تختلف قليلاً عن سروج تلك التى تحمل الرجال: فهى تمتاز بأن غطاءها قد يصل إلى الأرض تقريبًا. وتجثم النساء على ظهور الحمير وهن متحجبات وملاءاتهن تغطى كل أجسادهن فتبدو أشكالهن غريبة.

ويجرى المكارى خلف حماره، ويحث الدابة على الإسراع بتحريك قضيب حديدى به جلاجل فيصدر عنها صوت يجعل الحمار يسرع؛ وإذا لم تجد هذه الطريقة، فإن المكارى ينخس مؤخرة الحمار بالقضيب ذى النهاية المدببة. وفى الوقت نفسه ، يصرخ لتحذير المارة فيتنحون عن الطريق.

ويمتطى المشايخ - عادة - ظهور البغال. أما باقى الأهالى، فوسيلة انتقالهم الوحيدة هى ركوب الحمير. وكان على اليهود والمسيحيين أن ينزلوا من فوق ظهور ركائبهم عند مرورهم على موظفى الدولة والعسكريين كدليل على الاحترام، فى العصر المملوكى على الأقل.

وتنقل الحمير الحمولات الصغيرة من الفواكه والخضروات والأعشاب. أما الحصان، فكان مخصصاً فقط لركوب موظفى الحكومة والعسكريين.

وقبل مجىء الحملة الفرنسية، لم يكن المصريون يركبون سوى الخيل والبغال والحمير. وكان بونابرت هو أول من استخدم عربة يجرها حصان فى شوارع القاهرة الوعرة مما أثار دهشة القاهريين الذين لم يسبق لهم رؤية وسيلة الانتقال هذه من قبل. وأثناء زيارته للسويس، كان الجنرال يمتطى صهوة جواده ولكن كانت تتبعه عربة تجرها ستة أحصنة. وبالتأكيد، فقد كانت تلك هى المرة الأولى التى تشاهد مصر فيها عربة تجرها الخيل وهى تجتاز الصحراء.(١٥)

وبالنسبة للمسافات الطويلة، خصوصاً أثناء الحج، كانت السيدات يركبن فى هودج أبعاده ٢ × ٣ أقدام : فيوضع كل هودجين على ظهر الجمل الواحد.

ويخبرنا **"الجبرتى"** فى حولياته، أن الاتصالات مع تركيا كانت لا تنقطع وأن البريد كان يصل منها للقاهرة فى كل شهر تقريباً.

---

(١٥) سبق لمصر وأن شهدت العربات الحربية - التى تجرها الخيول - وهى تجتاز الصحراوات لتكوين الأمبراطورية المصرية وذلك منذ عهد الدولة الحديثة (حوالى سنة ١٥٨٠ ق . م) وبداية حكم الأسرة الثامنة عشرة [المترجم] .

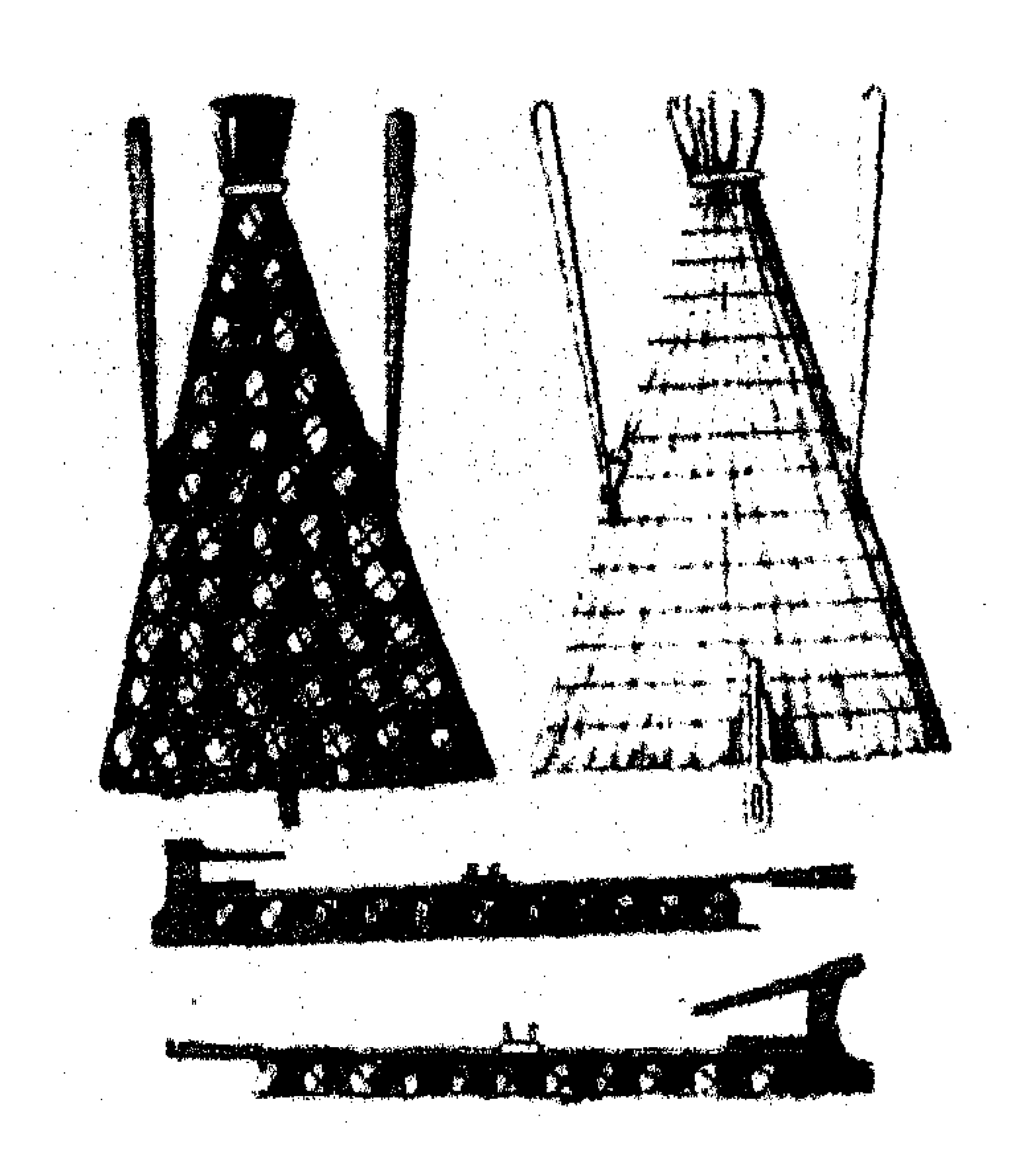
أما الملاحة النهرية، فكانت تستخدم للمسافات الطويلة: فكان المسافر - من رشيد أو دمياط - يصل القاهرة راكبًا "الماش" وهو مركب كبير ذو شراعين به عدة مقصورات تفرش بالمراتب أو الحصير عند النوم، وسطحه مغطى بقماش للوقاية من لظى الشمس. وعلى طول الطريق، لا توجد فنادق باستثناء الخانات والوكائل. ولذلك، كان كل مسافر يحمل معه ما سينام عليه وأدوات المطبخ. وكانت تكاليف هذه الرحلة تبلغ ٢٠ مدينيًا، ولكن الفلاحين كانوا يدفعون أقل لأنهم كانوا ينامون على السطح وليس فى المقاصير.

وفى العادة، كانت المراكب تسير بالشراع؛ لكن عند سكون الريح، كان الملاحون يجرون المراكب بالحبال . وفى وقت التحاريق ، كان المركب يقطع ثلاثة أميال فى اليوم الواحد وقطع المسافة كلها كان يتطلب أسبوعين أحيانًا.

وعندما يحل الظلام، كانت المراكب تتوقف على ضفة النهر وعندئذ كانت الأخطار تتزايد جدًا لأن اللصوص كانوا غالبًا من سكان القرى الواقعة على ضفة النهر: فكانوا يهاجمون المراكب ليلاً وينهبونها ويقتلون المسافرين. ولذلك كان لابد من عمل ورديات للحراسة حتى بزوغ الفجر.

وهناك سفن نيلية أخرى أصغر من "الماش" مثل : "الكنچة" و"الجرمة" وهى مخصصة لنقل الأشخاص والبضائع. وكان للـ "جرمة" شراع لاتينى(١٦) ضخم مخطط باللونين: الأزرق والبنى. وهذا النوع من السفن كان ينساب على سطح النيل بسهولة إلا أنه لم يكن يصلح للمناورات الصعبة.

(١٦) شراع مثلث الزوايا كان شائع الاستعمال فى البحر المتوسط [المترجم] .



صورة رقم (١١) : تعويم البلاليص على النيل.

أما أغرب وسائل النقل فهى وسيلة نقل المنتجات الفخارية : فكان التجار ينقلون منتجاتهم الفخارية بطريقة "التعويم" من الصعيد إلى القاهرة بل وإلى الدلتا، فكانوا يربطون الأوانى الفخارية على هيئة مثلث، ويضعون فوقها لوحًا رقيقًا من خشب النخيل يجلس فوقه أحد البحارة ، ويقوم بتوجيه هذا الزورق الصغير بواسطة مجذافين. وأثناء هذه الرحلة كان البحارة يصيدون السمك بالشباك ، ويعمل أكثر من ألفى رجل فى هذه المهنة ، وينقلون الفواكه والخضروات للتجار بهذه الطريقة.

وعدم وجود كبارى على النيل يجبر الناس على استخدام كل وسيلة ممكنة لعبور النهر والترع؛ ولذلك قد نرى رجلاً يركب فوق حزمة من أعواد الذرة تسحبها بقرة، وقد نرى رجلاً آخر يركب فوق قطعة من الخشب وهو يجذِّف بيديه واضعًا ملابسه فوق رأسه.

وقبل مجىء الحملة الفرنسية ، فكر مراد بك فى بناء سفن على الطريقة الأوروبية ،

أى سفن شراعية بصاريَيْن عليهما عدة قلوع مربعة ، لكن نفور الشرقيين من كل ما هو جديد جعله يتخلى عن مشروع بناء هذا الأسطول النهرى ، بل وأمر بإحراق بعضها – فى الجيزة – بعد معركة إمبابة.

إن "الماش" و"الكنـچة" و"الجرمـة" التى تجرى على سطح النيل هى نفسـها التى تتنقل بحذاء شواطئ البحر المتوسط والبحر الأحمر. وإذا كان أسطول بونابرت قد أثر على سكان الإسكندرية، وجعلهم ينبهرون به، إلا أنه لم تتح له الفرصة للقيام بأى شىء آخر فى الفترة الواقعة بين عملية إنزال الجنود وتدميره بعد ذلك بعدة أسابيع.

أما لنقل الرسـائل ، فقد كان المماليك يستخدمون الحمام الزاجل الذى كانوا يربونه بأعداد كبيرة ، لكن هذا البريد كان وسيلة نقل فردية.

الفصل الثانى

ملاحظات حول سكان مصر

أولاً : الديموجرافيا (إحصاء السكان) :

أ - أصول سكان مصر وتقدير عددهم:

من الصعب تحديد أصول سكان مصر بدقة: فالغزوات العديدة - التى تعرضت مصر لها منذ القدم - تركت فى كل مرة صفات مادية ومعنوية لا تزال موجودة لدى السكان، وذلك حسب درجة اختلاط المحتل بالسكان الأصليين.

والتوزيعات السكانية التى نريد إجراءها تبدو دائمًا غير مضبوطة إلى حد ما. فمثلاً فيما يختص بالسكان الأصليين: كيف نستطيع التمييز بين الفلاحين والبدو الرحل الذين استقروا فى الريف وذابوا فى المجتمع الفلاحى على مدى قرون؟ كما أننا نعرف أن بعض قبائل البدو الرحل قد استمرت فى الترحال عبر الصحارى بصحبة قطعانها مع ممارسة بعض أعمال الزراعة. إذن ، فالحركة نحو الاستقرار لم تكتمل بعد وأمامها الكثير من الوقت لكى تتم.

إن المعلومات المؤكدة عن عدد سكان مصر ليست بأفضل من تلك التى لدينا حول أصولهم. لقد حاولت الإدارة الفرنسية فى مصر - منذ إنشائها - معرفة عدد السكان: فحسب سجلات الضرائب وحسابات ل. ديجينيت (L. Desgenettes) - كبير الأطباء - تم تقدير عدد سكان مصر بـ مليونين و٢٤٢ ألف نسمة.

ولدينا وسيلة صائبة للتأكد من هذا الرقم: ففى تلك الفترة، تم إحصاء ٣٦٠٠ تجمع قروى بكثافة تبلغ - فى المتوسط - ٥٨٤ فرداً لكل تجمع مأهول، ونصل - بذلك

- إلى رقم مليونين و ١٠٢ ألف نسمة. فإذا أضفنا إلى هذا الرقم عدد سكان المدن، فسيصل العدد إلى رقم مليونين و ٤٦٧ ألف نسمة. ولكى يكون هذا التعداد مضبوطاً، لابد من إضافة عدد سكان القبائل الرحل - الذين يتنقلون فى صحراوات مصر - والذين يقدر عددهم بـ ١٥٠ ألف فرد.

ونظراً لعدم دقة هذه المعطيات، فإننا نستطيع تقدير إجمالى عدد سكان مصر بـ مليونين و ٤٠٠ ألف نسمة عند وصول الحملة الفرنسية إليها.

ب- التقسيم العرقى والدينى:

حسب المعايير المستخدمة فى زمن بونابرت، تم تقسيم السكان المحليين فى مصر إلى أربع مجموعات: العرب، والأقباط ، والأتراك ، والمماليك. ومع احترامنا لهذا التقسيم، إلا أننا سنجرى عليه بعض التعديلات الضرورية.

المجموعة الأولى : تشمل "العرب" الذين جاءوا إلى مصر مع الغزو العربى سنة ٦٤٠م واختلطوا مع الفلاحين. وحسبما يقول المراقبون فى تلك الفترة، فإن العرب يتصفون بجسم عضلى ولكنه ليس بديناً ، والجبهة عريضة وبارزة، والعيون سوداء وكذلك الشعر، والأنف كبير لكنه غير مقوس، وأسنانهم منتظمة. وفى الواقع، فإنه من الصعب التفرقة بينهم وبين الفلاحين المصريين الذين اندمجوا فيهم. ويجب أيضاً أن نذكر "عرب شمال أفريقيا" المتواجدين بالقرب من ضفة النيل الغربية وفى صعيد مصر، وهم مستقرون إلى حد ما.

ثم نصل - أخيراً - إلى "البدو" الذين يعيشون فى خيام فى الصحراء وهم يحترفون الرعى بشكل دائم، وقطع الطرق عندما تسنح لهم الفرصة. ويعتقد البعض أن "العرب" كلهم يمكنهم تكوين فرقة بها من ١٨ ألف فارس إلى ٢٠ ألفاً.

وتتقاسم القبائل الرعوية صحراء مصر، لكن الصراعات الناشبة بينهم لا تنتهى، كما يغذى المماليك تلك الصراعات. ويوجد فى مصر ٦٠ قبيلة يتراوح عدد أفرادها ما

بين ٧٠ و١٢٠ ألف نسمة حسبما يقول المراقبون. ومن هذه القبائل: "السويركات" الذين ينتشرون من غزة حتى سيناء؛ وحول بلبيس، نجد "النوافع"؛ وفى جنوب القاهرة، نجد "القتاب" و"الحوايات"؛ وفى شمال السويس، توجد قبيلة "الصوالحات"؛ وبالقرب من بحيرات النطرون، توجد قبيلة "الجوالى"؛ أما قبيلة "السمالو" فتوجد فى الفيوم. وفى مصر الوسطى، توجد قبائل كبيرة منها: "الدافة" و"السعادنة" و"المهاريطة" و"العزايرى" فى شرق مدينة قنا بالصعيد. وهذه القبائل كلها من أصول عربية عدا قبيلة "العبابدة" الذين يجوبون أطراف مدينة القصير. والعبابدة – أو العبادية – بشرتهم داكنة السواد لكنهم ليسوا بزنوج وبالتأكيد فإنهم قريبو النسب بالنوبيين.

وتتسم حياة البدو الرحل بالبساطة الشديدة: فهم يسكنون فى خيام يتراوح طولها من ٦ إلى ٩ أمتار وعرضها ٤,٥ متر. والخيام مصنوعة من "الخيش" وهذه الكلمة تطلق أيضًا على البدو الرحل. والخيمة لها فتحة واحدة من الأمام وتقام على أوتاد، وسكن البدو مؤقت. وبالإضافة إلى قطيع الأغنام، يمتلك البدوى بعض الأدوات مثل: الرحاية ، وقرص من الحديد لإنضاج الخبز، وإبريق القهوة، وقربة للماء مصنوعة من الجلد، وحلة ، وحصيرة، وشُبُك طوله ٤ أو ٥ أقدام، ولديه أحيانًا نول يغزل عليه. والربابة هى أداة الموسيقى التى يعرفها مع الرق.

وفيما يختص بصحة البدو ، سنجد أن الجديرى ينتشر بينهم؛ وبصفة عامة، لا يوجد عندهم لا الطاعون ولا الرمد.

والبدويات لسن محجبات تمامًا، ويؤدين الأعباء المنزلية، ويتنقلن مع أطفالهن على ظهور الجمال فى هودج مكشوف مصنوع من أغصان نوع معين من الشجر ومكسو من الداخل بالجلد. وبهذه المناسبة، فإن أحد أطباء الجيش الفرنسى – ج. لارى (J. Larrey) – قد استلهم هذه الطريقة لنقل الجرحى.

ويتسلح البدو الرحل – عادة – ببنادق رديئة ذات فاعلية محدودة بسبب زيادة نسبة الفحم فى البارود الذى يستخدمونه. ويتسلحون – أيضًا: بسيف مقوس، ورمح، وخنجر ومقمعة. ونذكر – بهذه المناسبة – أن "العبابدة" لا يملكون أية أسلحة نارية.

وفى القتال، لا يعرف البدو الرحل سوى أسلوب الكر والفر: فهم يهجمون على شكل جماعات تطلق صيحات الحرب أو يهربون ، ولا يحاربون ليلاً. وهم لا يعترفون بأى سلطان لأحد عليهم سوى سلطة شيخهم الذى يحترمونه ويطيعون أوامره.

ويستخدم البدو الرحل الكلاب السلوقية فى صيد الغزلان، رياضتهم المفضلة، ويجلبون الكلاب السلوقية من واحة سيوة وهى غالية جداً: فثمن الكلب السلوقى الواحد يتراوح مابين ١٠٠ و٣٠٠ فرنك فى تلك الفترة.

وأفراد هذه القبائل الرحل يؤمنون بالخرافات أكثر من إيمانهم بالدين. وبالتأكيد، فإن الكثيرين منهم يصلون مرتين فى اليوم ولكنهم يعبدون(١) – إلى حد ما – الكواكب التى تسيطر على حياتهم المتنقلة. ويتبركون بالأشجار التى تنبت بالقرب من القبور ويعقدون على أغصانها قطعاً من الورق أو النسيج على سبيل الورع. وإذا ذهبوا لأداء فريضة الحج، فإنهم يفعلون ذلك بسبب الربح المنتظر حصولهم عليه. وهذا الورع لا يمنعهم من شرب الخمر – إذا سنحت الفرصة – ولا يردعهم عن التحلل من الكثير من الممارسات الدينية الإسلامية.

ومن عادة البدو الرحل أن يقسموا بلحاهم بطريقة فيها تبجيل؛ وفى الحالات الخطيرة، يقسمون بعضوهم التناسلى. ويحمل كل منهم التعاويذ والتمائم. ويشكل الشذوذ الجنسى وممارسة الجنس مع الحيوانات جزءاً من عاداتهم. وهم يقبلون باستعادة زوجاتهم اللاتى كن سبايا حرب وقضين فترة من الزمن بين منازل المنتصرين ويستكملون الحياة الزوجية معهن. وأحياناً ما يتمتع بعض البدو الرحل بالثروة لامتلاكهم قطعان الغنم أو الإبل إلا أن احتياجاتهم الأساسية تظل محدودة ويحتفظون بكل القناعة والزهد.

أما العرب المستقرون، فهم يقطنون القرى المتاخمة للصحراء ويجبرون الفلاحين على العمل لديهم لكنهم يساعدونهم – أحياناً – فى الأعمال الشاقة. وعندما تسنح

---

(١) ذكر المؤلف "يعبدون" ils adorent ولعله يقصد "يؤمنون" [المترجم] .

الفرصة لهؤلاء العرب، فإنهم يهجرون الفأس ويقطعون الطرق. ووصل ضعف السلطة المركزية – أو بالأحرى ضعف ممثلها المحلى – إلى حد قبول هدايا سنوية من بعض شيوخ القبائل للحصول على الموافقة الضمنية لممارسة هذه المهنة الإجرامية. إن الغارات المستمرة التى يقوم بها العرب تسبب الرعب للسكان، وكان من الضرورى أن يقوم الجيش الفرنسى باحتواء وقمع قطاع الطرق هؤلاء الذين لا يمكن إخضاعهم.

المجموعة الثانية: ولننتقل الآن لدراسة المجموعة الثانية من سكان مصر، أى "الأقباط" (وهذا الاسم يكتب أحيانًا: "قبط" أو "كوفتيس") الذين يبلغ عددهم حوالى ٢٠٠ ألف نسمة وهم ساكنو مصر منذ زمن سحيق. ويعيش الأقباط – أساسًا – فى الصعيد لكن يوجد عدد منهم فى الدلتا والمدن الكبرى، واحتفظوا بسمات أساسية نتيجة لتمسكهم الشديد بعدم الزواج من غيرهم: فلون بشرتهم زيتونى، وعيونهم جاحظة قليلاً، وشفاههم غليظة، والشعر أسود اللون، وأجسامهم مستديرة قليلاً. والأقباط يتصفون بالتزمت والحرص. ومع ذلك، فهم يتميزون بالكياسة والأدب والمهارة. وهذه الأقلية يطلق عليها – أحيانا – اسم "اليعقوبيين" أو أتباع "مذهب الطبيعة الواحدة" (Monophysites) . ورئيسهم الروحى هو "بطريرك الإسكندرية" لأن مقره القديم كان فى مدينة الإسكندرية.

والأقباط مستبعدون من الخدمة فى الحكومة بسبب دينهم، لكن الأتراك والمماليك يستخدمونهم فى وظائف الكتبة والسكرتارية وجباية الضرائب وذلك بفضل معرفتهم: بالحساب، وبالكتابة العادية (العربية)، وبحروف لغتهم القديمة (القبطية) التى يستخدمونها لكتابة اللغة العربية ("خط القرمة"). وهكذا استطاع الكتبة الأقباط أن يجعلوا من موضوع مساحة الأرض الزراعية المغلوطة، وتصنيفها حسب الأهواء، فنًا غامضًا، كانوا وحدهم الذين يعرفون سره. وهم لا يعطون معلوماتهم بسهولة للغير ولا يقبضون راتبًا محددًا بل يأخذون نسبة مئوية من حصيلة الضرائب التى قاموا بجبايتها، وكَوّن الكثيرون منهم الثروات بهذه الطريقة.

ويحظى هؤلاء الموظفون الأقباط باحتقار الأتراك وكراهية الفلاحين الذين

"يعصرهم" هؤلاء الموظفون باسم السادة الذين يستخدمونهم. واستفاد "الباب العالى" من العداوة المتبادلة بين المسلمين والأقباط، ووجد أنها أفضل وسيلة لملء خزانته بأموال الضرائب: فهو يجعل الأقباط يدفعون "فردة الرأس" بصفتهم غير مسلمين بالإضافة إلى الأعباء العادية التى يتحملها الجميع، وباستطاعتنا تخمين مدى الابتزاز الذى يمارسه أصحاب السلطة وممثلوهم، خصوصًا عندما نعرف أن الضرائب كانت تجبى بنظام "الالتزام"...

ويكَوِّن الأقباط – فى الإدارة المصرية – نوعًا من الإدارة الموازية يرأسها سكرتير باشا مصر. وهذا الموظف الكبير يتحكم فى التعيين فى الوظائف ولا يمنح الوظيفة إلا لمن يدفع له أكثر: لقد كان بيع الوظائف وشراؤها هو القاعدة فى ذلك الوقت. وخلال السنوات الثلاث التى احتلت فرنسا فيها مصر، ظلت السجلات الإدارية فى يد الكتبة الأقباط: فاستمروا فى جباية الضرائب كما كانوا يفعلون فى الماضى، لكن بشكل رسمى، وبناءً على نظام أكثر عدالة أسسه بونابرت وإستيف (Estève) محافظ القاهرة.

المجموعة الثالثة : أى الأتراك الذين يبلغ عددهم ٢٠ ألف نسمة تقريبًا وهم سادة البلاد الرسميين. ولون بشرتهم أكثر بياضًا من المصريين وملامحهم متناسقة. ويتصف الأتراك بالرزانة والصمت والبطء فى اتخاذ القرارات. ويبدو أنهم قد كرسوا المظالم والرخاوة واللامبالاة التى كانت موجودة فى مصر – بشكل طبيعى – قبل احتلالهم لها. ويتركز الأتراك فى القاهرة (نحو ١٠ آلاف فرد) والإسكندرية حيث يشغلون الوظائف المرموقة: إداريًا ودينيًا وعسكريًا. ويحكم الطغاة الأتراك مصر منذ سنة ١٥١٧م، لكنهم فقدوا سيطرتهم على البلاد مؤخرًا بسبب ضعف السلاطين العثمانيين: فمنذ عدة سنوات، جردهم المماليك من السلطة الفعلية وتركوا لهم السلطة الاسمية.

ويكره المصريون العثمانيين؛ لأن الإدارة العثمانية حازمة جدًا، ويقمع العثمانيون بقسوة شديدة المظالم القضائية وغيرها، ولا يبدون أى تسامح تجاه المتهربين من الضرائب. أما البكوات المماليك، فقد كانوا على نقيض العثمانيين: فكانوا يهتمون بملذاتهم وبزيادة ثرواتهم فقط. ويضيف المسيو لاكور (Lacorre) قائلاً: "يفضل

المصريون أن يتعرضوا للظلم والتعذيب وإثقال كاهلهم بالضرائب على يد المماليك بدلاً من رؤية النظام والقانون يسودان فى بلادهم. وهم لا يطيقون نظافة الشوارع ولا الأدوات التى يفرضها عليهم الأتراك".

ولا يزال دور الأتراك متسماً بالغموض أثناء الوجود الفرنسى فى مصر: فقد كانوا يؤيدون المصريين المسلمين – إخوانهم فى الدين – ويدفعونهم للثورة؛ ولكنهم يرون فى الاحتلال الفرنسى لمصر فرصة طيبة للتخلص من منافسيهم المماليك واستعادة السيطرة العثمانية على مصر بعد رحيل الفرنسيين عنها.

المجموعة الرابعة: وسنتحدث الآن عن "المماليك" الذين كانوا فى الأصل أرقاء، وكونوا الحرس الخاص للحاكم، ثم أصبحوا هم حكام مصر الطغاة. وفى نهاية القرن الثامن عشر الميلادى، كان عددهم يتراوح ما بين ٨ آلاف إلى ١٠ آلاف مملوك، هم مجموع الميليشيات التابعة لـ ٢٤ بك. وهذا النظام كان يخدمه ما بين ٢٢ ألفا إلى ٢٤ ألفا من الرقيق لكل منهم – بدوره – اثنان من الفلاحين لخدمته. وكان كل مملوك فارساً لأنهم كانوا ينظرون باحتقار لجنود المشاة.

والموطن الأصلى للمماليك – عادة – هو بلاد الشركس ، ويُباعون فى أسواق النخاسة فى اسطنبول قبل توزيعهم على جميع أرجاء الإمبراطورية العثمانية. ولون بشرة المماليك أبيض وشعرهم كستنائى أو بنى وهذا ما يميزهم – من أول نظرة – عن سكان البلاد الأصليين.

وأغلب المماليك ولدوا مسيحيين وتم ختانهم عند شرائهم. ويعتبرهم الأتراك مرتدين عن الإسلام أو بلا دين أو عقيدة على الإطلاق، ويحرص المماليك على تغيير هذه الصورة الكريهة الشائعة عنهم. وهم يشعرون بالغربة فيما بينهم : فليس لهم أقارب ولا ماض ؛ وبالتالى ، فهم لا يفعلون شيئًا للمستقبل لأنهم يدركون جيداً أنهم سيلاقون الموت قتلاً – إن آجلاً وإن عاجلاً – إما فى ميدان المعركة، وإما بواسطة خنجر فى يد خائن.

ويشتهر المماليك بأنهم مغامرون مثيرون للفتن والتمرد، لكنهم يظلون – دائمًا – انتهازيين حتى ولو كانوا يتصفون بالجرأة فى المعارك. وهم جهلة ويؤمنون بالخرافات ولا يعرفون أى حرفة سوى الجندية التى يعتبرونها المهنة الوحيدة المحترمة. وبالتأكيد، فإن المماليك كانوا شجعانًا لدرجة التهور، لكن لم تكن لديهم أى فكرة عن التكتيك العسكرى، مما أدى إلى هزيمتهم أمام قوات بونابرت الحديثة والمنظمة.

والأمر الغريب هو أنهم قليلو الإنجاب أو بلا ذرية عل الإطلاق. ولسد هذا العجز فى عددهم، فإن المماليك يشترون – بدورهم – أرقاء جدداً ويدربونهم؛ ليصبحوا جنوداً يدينون بالولاء لسيدهم. وينتشر اللواط بينهم بشكل كبير ومعروف كما هو الحال فى كل التجمعات المنغلقة. وإذا حدث وتزوج بعض المماليك من مصريات، فإن ذريتهم تكون ضعيفة، فما سبب هذه الظاهرة ؟؟ إن السبب الأكيد يرجع إلى الشذوذ الجنسى، وربما أيضًا لأن محظياتهم كن يلجأن غالبًا للإجهاض خشية أن يفقدن مكانتهن – على يد محظية أخرى – أثناء فترة الحمل المؤقتة. لقد وصل التفسخ والانحلال الأخلاقى بينهم إلى درجة استبعدت وجود ذرية لهم. وسنتحدث بشكل مفصل، فى الفقرات الخاصة بالخدم، عن العبيد ذوى البشرة السوداء.

المجموعة الخامسة: الأقليات: تحدثنا فى الفقرات السابقة، عن المجموعات الكبرى التى تسكن مصر وسنتحدث الآن عن الأقليات:

١- النوبيون: لقد سبق لنا وأن ذكرنا اسم "النوبيين" أو "البرابرة" وهم ليسوا بزنوج ولا عرب ولا مصريين. ومن المؤكد أنهم خليط قديم من أجناس مختلفة ويتحدثون لغة خاصة بهم[٢] ويسكنون بين مصر وسنار. وهذه المنطقة تقع تحت سيادة السلطان العثمانى، ويدفع النوبيون الجزية المفروضة عليهم من البلح الجاف والعبيد

---

(٢) يتحدث النوبيون لغتين شفهيتين مختلفتين تماماً عن بعضهما هما: "الكنوز" (أو "الماتوكى") و"الفاديكا" [المترجم] .

الزنوج الذين يشترونهم من تجار القوافل القادمين من سنار. ومن عادة النوبيين أن يهجروا أرضهم الضيقة ويتجهوا شمالاً للعمل فى المدن المصرية الكبيرة، وغالبًا ما يستخدم الأوروبيون النوبيين لحراسة متاجرهم ومنازلهم.

٢- وهناك أقلية أخرى من سكان مصر هم "العبيد السود" وهم رجال ونساء انتزعوا من داخل أفريقيا وبيعوا فى كل مدن مصر. ويقومون بأكثر الأعمال مشقة وأكثرها قذارة فى المنازل والحقول.

وفى مصر ، من حق المسيحيين تملك العبيد السود، وهذا امتياز استثنائى فى ربوع الإمبراطورية العثمانية. ولكن هذا الامتياز - إذا طبق - لا يشمل العبيد الذكور البالغين: فالمسموح به هو تملك الصبية الصغار منهم الذين لم يصلوا بعد إلى سن البلوغ. وعندما يصل الصبى إلى هذا السن، يجب على سيده المسيحى أن يعتقه. وفى المقابل، يستطيع المسيحى امتلاك أى عدد من الإماء الزنجيات، فتوجد فى كل أسرة مسيحية أمة سوداء أو اثنتين للعناية بالشئون المنزلية.

٣- وتسكن فى مصر أقلية أوربية يطلقون عليها اسم **"الفرنج"** أو **"الأفرنج"** موزعة على عدة جاليات صغيرة متميزة ، وهم قليلو العدد وأغلبهم من أهل فينيسيا والإنجليز والفرنسيين، ويدين أغلبهم بالمسيحية ، ويتركزون فى : الإسكندرية ورشيد ودمياط والقاهرة . وفى سنة ١٧٧٤م، كان يعيش فى القاهرة ٤١ فرنسيًا بما فيهم القنصل وموظفوه. لكن هذا العدد انخفض فأصبح ٣٠ فرنسيًا فى سنة ١٧٨٥م. وبين هذين التاريخين (فى ١٧٧٧م)، استقر القنصل مؤقتًا فى الإسكندرية، وتم إحصاء ٢١ فرنسيًا فى هذه المدينة مقابل ٨ عاشوا فى رشيد. وبذلك يصل عدد الفرنسيين فى مصر كلها إلى ٥٩ فردًا. وظل هذا العدد مستقرًا حتى مجيء الحملة الفرنسية على الرغم من سوء المعاملة التى تعرضوا لها والمصاعب التى لاقوها فى تحصيل ديونهم من المماليك.

وأهمية الأوروبيين - المقيمين فى مصر - ليست نتيجة لكثرة عددهم بل ترجع لأهمية أنشطتهم الاقتصادية: فهم همزة وصل تربط الغرب بمصر.

وعلينا أن نذكر **"اليونانيين"** [الأروام] ضمن الأوروبيين مع أنهم كانوا يتمتعون بالرعوية العثمانية فى تلك الفترة. ويصل عدد "اليونانيين" (الأروام) فى مصر إلى نحو ٥ آلاف فرد، سرعان ما تطابقت مصالحهم مع مصالح الحملة الفرنسية كما سنرى لاحقًا.

٤- لقد استقر **"اليهود"** فى مصر منذ زمن طويل ويبلغ عددهم حوالى ٣٠٠٠ نسمة. ويعيش اليهود فى الحى الشعبى "حارة اليهود" فى القاهرة. وهم ينقسمون إلى طائفتين: أهمهما هى طائفة "اليهود القرائين" والطائفة الثانية هى طائفة "التلموديين" - أو "الربانيين" - وتتعايش الطائفتان مع بعضهما. ويكره المسيحيون اليهود (بدون أن يخشوهم) ويحتقرونهم (بدون أن ينبذوهم) ويتنافس الاثنان للحصول على: إدارة الجمارك والإشراف على ثروات الأغنياء.

٥- ويوجد **"الأرمن"** فى مصر ويتراوح عددهم ما بين ٤٠٠ و٥٠٠ فرد.

٦- ويتراوح عدد **"الشوام"** من ٤ إلى ٥ آلاف نسمة، ويسكنون مع "الأرمن" فى القاهرة والإسكندرية وخصوصًا دمياط. وتدين الطائفتان بمذهب الروم الكاثوليك. والأنشطة التجارية التى يمارسونها غالبًا ما تكون مكملة لأنشطة التجار الأوروبيين.

وتتبقى لدينا أغلبية إثنية (عرقية) لم يستطع المراقبون تحديدها ألا وهى الشعب المصرى نفسه، فلا يوجد له أى تعريف محدد أو أى تشريع قومى ثابت وواضح: فالأمر يتعلق بجموع الأشخاص الذين لا تربطهم ببعضهم مصلحة حقيقية مشتركة. وهذه الجموع تدين فى أغلبها بالإسلام، وتتكلم اللغة العربية، وتسكن فى الريف أكثر من المدن، وتخضع للسخرة، وتدفع الضرائب المفروضة عليها بلا رحمة، ولا تستطيع الدفاع عن نفسها. ويخلط الدارسون بين هذه المجموعة و"العرب" بسبب اشتراكهما معًا فى الدين واللغة.

وكذلك، فإن هذه الجموع لا توجد بها "طبقة متوسطة"، فحسبما لاحظ **فولنى**، لا

توجد طبقة للنبلاء أو لرجال القانون أو التجار أو ملاك الأراضى. ولو كانت هذه الطبقة موجودة لأصبحت وسيطًا بين الشعب والحكومة. ورغم غياب الطبقة المتوسطة فى مصر، فإن نظام "الطوائف" كان موجوداً بها، مثل : طائفة رجال الدين الذين يشاركون العسكريين، وكبار التجار فى المصالح والامتيازات الفئوية التى يحظون بها.

إذن، فإن هذا الشعب لا توجد لديه صفة قومية، وهو بلا حيوية، وانحط لدرجة العبودية، ويبدو أنه قد رضى بها. وهو شعب جبان وخواف والتعصب - وحده - هو الذى يستطيع أن يحشده ويقوده إلى القتال والموت. ولا نرى فيه سوى رجال ضعفاء يرتجفون أمام نظرة من أحد المماليك(٣).

وكان بونابرت هو أول من طلب من أبرز أعيان المصريين أن يشاركوا فى مهام ومسئوليات الدولة، ودعاهم للانضمام إلى "الديوان" الذى شكله: فقد كان لديه مفهوم مختلف عن المصريين.

ولتكوين فكرة عن سكان مصر أثناء فترة إعادة تَشَكُّلِهم، لابد لنا من ملاحظة هذه الظاهرة فى عاصمة البلاد: لقد كانت القاهرة هى البوتقة التى التقت فيها شعوب البحر المتوسط منذ أجيال، وضمت أسوارها أناسًا من أجناس وأديان مختلفة عاشوا منعزلين - بالفعل - كل فى الخان الخاص به، لكنهم كانوا يتبادلون البضائع والأفكار رغمًا عن الخلافات السياسية والاقتصادية الوقتية. ومن هذا المنظور، كانت الحملة الفرنسية أداة قوية أضعفت الحواجز التقليدية: فقربت بين هذه الجماعات العرقية والدينية التى كانت منعزلة عن بعضها تمامًا حتى مجىء الحملة.

ومن هنا تَكْمُن أهمية ملاحظة الشعب المصرى وهو ينتقل بصعوبة من عالم القرون الوسطى إلى العصر الحديث. وتم ذلك الانتقال فى مدينة كبيرة - هى القاهرة

---

(٣) يتناسى المؤلف أنه قد تضافرت عدة عوامل أدت للوصول إلى هذه النتيجة السلبية فى تلك الفترة منها: الطبيعة النهرية للبلاد، ومرور عدة قرون من الاحتلال الأجنبى، خصوصاً الاحتلال العثمانى، وأخطرها كان شيوع مفاهيم خاطئة تدعو للخنوع للحاكم خصوصاً لو كان يدين بنفس دين الأغلبية، وهذا الرأى المغرق فى السلبية يعطى مبرراً إضافياً لما سيدعيه المؤلف - فيما بعد - من أن الحملة الفرنسية أرادت "انتشال" الشعب المصرى من وهدة البؤس والشقاء الخ الخ...[المترجم] .

- تجمعت فيها الشروط المادية والمعنوية التى تدفع فى اتجاه التقدم. وبالتالى، فقد حذت ولاية مصر بأجمعها حذو القاهرة واقتفت أثرها. إن دراسة فترة الانتقال هذه قد تيسرت بفضل الوثائق والدراسات التى كتبها الموظفون والضباط والعلماء الذين جاءوا مع بونابرت فى مغامرته لبلاد الشرق: ففور استقرار الإدارة الفرنسية فى مصر، أخذت على عاتقها مهمة جمع أكبر كمية من المعلومات الخاصة عن السكان المحليين واستخدمت كل الوسائل المحدودة المتاحة فى تلك الفترة. وفى واقع الأمر، كان أغلب تلك الوسائل يعتمد على "التقديرات" أكثر من اعتمادها على "الإحصائيات". ومع أن هذه التقديرات غير دقيقة تمامًا، إلا أنها تكشف لنا وضع القاهرة بين سنتى ١٧٩٨ و١٨٠١م بوضوح.

لقد تراوح تقدير عدد سكان القاهرة - فى تلك الفترة - ما بين ٢٥٠ و٢٧٥ ألف نسمة. لكننا استطعنا تسجيل مجموعتين من الأرقام - من مصدرين مختلفين- تذكُران المهن الأساسية وعدد القاهريين الذين يعملون بها.

جدول رقم (١)

مسلسل	البيـــان	العـــدد
١	مماليك وعسكريون عاملون أو على المعاش	١٢٠٠٠ أو ١٠٤٠٠ فرد
٢	أصحاب الأملاك	٦٠٠٠ أو ٥٠٠٠ فرد
٣	التجار	٤٠٠٠ فرد
٤	الحرفيون	٢٥٠٠٠ أو ٢١٨٠٠ فرد
٥	تجارة التجزئة	٥٠٠٠ أو ٤٥٠٠ فرد
٦	القهوجية	٢٠٠٠ أو ١٥٠٠ فرد
٧	خدم المنازل	٣٠٠٠٠ أو ٢٦٤٠٠ فرد
٨	صناع وعمال غير مهرة	١٥٠٠٠ أو ٤٣٠٠ فرد
٩	محدودو الدخل	٨٦٠٠ فرد
	المجموع	**٩٩٠٠٠ أو ٨٦٥٠٠ فرد**

بالإضافة إلى

جدول رقم (٢)

مسلسل	البيـــان	العـــدد
١٠	النساء	١٢٦٠٠٠
١١	الأطفال	٧٥٠٠٠
	المجموع الكلى	**٣١٠٠٠٠ أو ٢٨٧٥٠٠ فرد**(٤)

وإذا بدت لنا الأرقام الموجودة على اليمين مبالغ فيها، فإن الأرقام التى على اليسار تبدو لنا أقرب إلى الواقع، كما أنها تقترب من تقديرات الطبيب **ديجينيت** الذى يقترح عدد ٢٦٣٧٠٠ نسمة يقطنون فى ٢٦ ألف منزل مأهول. وقام نفس الطبيب بتحرير "قائمة بالوفيات" التى حدثت فى القاهرة، وتوصل إلى المتوسط السنوى التالى:

جدول رقم (٣)

مسلسل	البيـــان	العـــدد
١	نساء	٢٢١٤ فرداً
٢	رجال	١٦٤١ فرداً
٣	أطفال	٤٩٧٩ فرداً
	المجموع	**٨٨٣٤ فرداً**

(٤) يوجد هنا خطأ فى الحساب: فالرقم يجب أن يكون فقط ٣٠٠,٠٠٠ فرد لا غير [المترجم] .

وبرؤية هذين الرقمين، فإن ملحوظتين تفرضان نفسيهما علينا، **الملحوظة الأولى**: أن حوالى ثلث العاملين فى القاهرة هم من فئة "خدم المنازل" ويليهم "الحرفيون" الذين يستخدمون - نادراً - عاملاً أو اثنين باليومية. وسندرس هذا الموضوع فيما بعد، **والملحوظة الثانية** خاصة بوفيات الأطفال: فهى مرتفعة جداً بالنسبة للمتوسط العام للوفيات. وهذا الموضوع سندرسه - أيضاً - فيما بعد.

أما فيما يتعلق بأتباع الأديان المختلفة - التى سنخصص لها بضع صفحات - فتوجد لدينا تقديرات مهمة خاصة بالقاهرة:

جدول رقم (٤)

مسلسل	البيـــــان	العـــدد
١	المسلمون:	
	أ - مصريون وعرب،	٢١٠٠٠٠ نسمة
	ب- أتراك،	١٠٠٠٠ نسمة
	جـ- مماليك،	١٠٠٠٠ نسمة
	د - أفارقة.	١٢٠٠٠ نسمة
٢	المسيحيون:	
	أ - أقباط،	١٠٠٠٠ نسمة
	ب- روم أرثوذكس،	٥٠٠٠ نسمة
	ج - روم كاثوليك وموارنة،	٥٠٠٠ نسمة
	د - أرمن،	٤٠٠٠ نسمة
	هـ- أجانب كاثوليك وبروتستانت.	٤٠٠ نسمة
٣	اليهود (قرائين)	٣٠٠٠ نسمة(٥)

(٥) يتضح مما سبق أن عدد المسلمين هو ٢٤٢٠٠٠ نسمة؛ وعدد المسيحيين هو ٢٤٤٠٠ نسمة، وبإضافة اليهود يبلغ العدد الكلى: ٢٦٩٤٠٠ نسمة [المترجم] .

إننا نعرف - بشكل شبه دقيق - عدد غير المسلمين لوجود قائمة "الجزية" وهى : ضريبة خاصة يدفعها غير المسلمين فى الدولة الإسلامية.

جـ- السكان المحليون والفرنسيون:

بدأت المبادلات والتآخى بسرعة بين السكان المحليين وجنود الحملة الفرنسية، وضاعف الفرنسيون من مناسبات اللقاء التى لن نذكر سوى بعضها فقط: ففى المجال الاقتصادى - مثلاً - كان وجود جيش الاحتلال سبباً فى زيادة عدد سكان مصر بحوالى ٣٥ ألف رجل بشكل مفاجئ. وتسببت هذه الزيادة المفاجئة فى حدوث قلاقل فى الحياة اليومية للبلاد خصوصاً فى المدن الكبرى. كما أن بعض هؤلاء الوافدين الجدد تعبوا من الحياة العسكرية وعبروا عن رغباتهم فى الاستقرار بمصر: فأنشأوا مطاعم ومقاه لاقت نجاحاً سريعاً لدى الفرنسيين والمصريين.

ولكن فى المجال الاجتماعى، لم تسر الأمور بسرعة كما حدث فى المجال الاقتصادى: فنقص عدد النساء الأجنبيات كان محسوساً، والفرنسيات اللاتى أتين مع أزواجهن لم يتجاوز عددهن الثلاثمائة سيدة. وبرزت بعضهن واشتهرن مثل: پولين فورنييه (Pauline Fournier)، التى كانت زوجة لضابط نجح فى تحويلها من مجرد صانعة قبعات متواضعة فى كاركاسون إلى سيدة، ولفتت نظر بونابرت فجعلها عشيقته، وبعث بزوجها فى مهمة إلى فرنسا، وأسكنها فى "بركة الرطلى"[٦]. واشتهرت سيدة أخرى لكن فى مجال مختلف تماماً عن الأولى، هى **السيدة ڤردييه** **(Mme Verdier)**: وهذه السيدة إيطالية المولد، وجاءت مع زوجها الجنرال إلى مصر واعتنت عناية كبرى بالمرضى من جنود الحملة.

---

(٦) كان حى "بركة الرطلى" سكناً ومتنزهاً لأثرياء القاهرة خصوصاً فى فصل الفيضان [المترجم] .

كما اشتهرت سيدتان شرقيتان عظيمتان ولفتتا الاهتمام بفضل شجاعتهما وكبريائهما، وهاتان السيدتان هما: **نفيسة هانم** زوجة مراد بك، التى فضلت البقاء فى القاهرة بينما هرب زوجها إلى الصعيد، والثانية هى: **عديلة هانم** زوجة إبراهيم بك.

وللتغلب على نقص عدد النساء، تزوج عدد من العسكريين الفرنسيين من نساء شرقيات لكنهن لم يخرجن من منازلهن حسب عادات البلاد. وحاول بعض الفرنسيين جعل زوجاتهم الشرقيات يعتدن على نمط الحياة الأوروبية، لكن هذه المحاولات أثارت استنكار المصريين بشدة. لقد كان تدفق الفرنسيين على مصر تدفقًا مؤقتًا زال تأثيره مع رحيلهم عن مصر.

وفى المجال العسكرى، أراد بونابرت تعويض الخسائر التى مُنى بها جيشه فقرر تكوين وحدات جديدة ضمها إلى قواته: وهكذا تطوع مالطيون وأقباط ويونانيون وآسيويون وزنوج فى الجيش الفرنسى. وكان من الضرورى أن يتعلم هؤلاء المتطوعين اللغة الفرنسية بسرعة لتنفيذ أوامر ضباطهم الفرنسيين. ومن أشهر قادة وحدات المتطوعين سنذكر اثنين: الجنرال يعقوب وهو قبطى، وقائد الفرقة تيقولا ريِّس، وسنتحدث عنهما فيما بعد بالتفصيل.

وسندرس فى الصفحات التالية المظاهر الأخرى للتبادل الفرنسى / المصرى فى مجالات : الاقتصاد والتعليم والزراعة.

ثانيًا : الفئات الاجتماعية :

أ - الدواوين والأعيان :

بتاريخ ٧ يوليو سنة ١٧٩٨م، أصدر بونابرت بيانًا يطلب فيه من كل الفئات: الأئمة والقضاة والمشايخ أن يبقوا فى مناصبهم، وأمر بأن تستمر الحياة المدنية والدينية فى سيرها المعتاد. وكان هذا القرار يهدف إلى تقليل التدخل فى العلاقات - مع سكان البلاد - إلى أدنى حد ممكن، وعدم إرباك عاداتهم. كما فكر بونابرت فى إنشاء

"الدواوين". إن نظام "الدواوين" أو "المجالس" لم يكن شيئًا جديدًا على مصر، لكن بونابرت قام بتعديله وأعاد العمل به بشكل جديد. والتجديد الذى أدخله بونابرت على هذا النظام يكمن فى "مشاركة سكان البلاد الأصليين فى تقرير مصير بلدهم" لأول مرة: فحتى ذلك التاريخ، كان الأتراك والمماليك يحتكرون اقتسام إدارة البلاد فى إطار من الفوضى الشاملة.

وفى يوم ٢٦ يوليو سنة ١٧٩٨م، أى بعد يومين فقط من دخول بونابرت إلى القاهرة، بدأ فى تنفيذ إجراءات إنشاء "ديوان القاهرة" الأول الذى تكون من تسعة أعضاء مصريين وأربعة أجانب. وأولى مهامه كانت انتخاب رئيس ونائبين وسكرتير عام "للديوان". وكان دور هؤلاء المستشارين ينحصر فى حفظ النظام والأمن فى العاصمة، ومراقبة الأسواق وتزويدها بالبضائع. وتم تمثيل العنصر الفرنسى بثلاثة من السكرتارية ومندوب عن قائد الحملة. وعين بونابرت العالم جاسبار مونج (Gaspar Monge) فى هذا المنصب. وكان "الديوان" يعقد جلساته يوميًا فى منتصف النهار فى مقره بمنزل "قائد (أو "قايت") أغا".

وحرص بونابرت على احترام وتكريم أعضاء "الديوان": فأمر بوقوف حراس فرنسيين وأتراك أمام بابه باستمرار، وتسلم الأعضاء رواتب شهرية كل حسب درجته. لقد قام هؤلاء الأعضاء – باختصار – بدور "مستشارى المجالس البلدية". ولم يمض وقت طويل حتى حصلت كل المدن الكبرى والمديريات على ديوانها الخاص بها.

وتمتعت "الدواوين" بصلاحيات تامة فيما يتعلق بتطبيق العدالة وفرض الضرائب. وبالإضافة إلى ذلك، كانت "دواوين" المديريات ترسل ممثلين عنها إلى "الديوان العمومى" فى القاهرة – الذى صدر قرار إنشائه فى ٢٠ أكتوبر سنة ١٧٩٨م – على أن يكون مختصًا بشئون مصر جميعًا. وتكون هذا الديوان من ٢٥ عضوا عينهم بونابرت: الثلث من "مشايخ البلد"، والثلث الثانى من التجار، والثلث الأخير من القضاة. ومثّل تسعة أعضاء منهم مدينة القاهرة، مع ممثل واحد عن كل مديرية من المديريات الست عشرة التى كانت تتكون منها مصر.

وعيَّن بونابرت الشيخ الشرقاوى رئيساً "للديوان العمومى" الذى كان يعقد جلساته عند الضرورة. ومن "الديوان العمومى" انبثق مجلس مصغر مفوض، مكون من تسعة أعضاء تم اختيارهم ليكون دائم الانعقاد.

ومع تشكيل كل هذه الدواوين ، كان "ديوان القاهرة" هو الأكثر أهمية. وسيطر "ديوان" كل مديرية على كل الموظفين "المحليين"، وتعاون الأهالى مع الإدارة بدون مشاكل تذكر لكن الإجراءات الجديدة الخاصة بالضرائب سببت الكثير من التذمر والاستياء.

لقد حظى "ديوان القاهرة" برضاء الجميع على عكس "الديوان العمومى" الذى ضم: شيوخ طوائف الحرف المختلفة، والمشايخ والقضاة، والعسكريين ، والتجار، بل وممثلون عن الأقليات القبطية والشامية والفرنسية. وأبدى أعضاء "الديوان العمومى" مظاهر تدل على سيطرة العقلية المحافظة الجامدة عليهم: فلم يقبلوا بأى تغيير فى نظام التشريعات أو المواريث. لقد كان هؤلاء الأعضاء من كبار ملاك الأراضى الزراعية – فى الغالب – وكانوا يحظون بامتيازات ضرائبية مهمة خشوا أن تضيع منهم.

وأخيراً، يجب علينا أن نذكر وجود الأعيان الأجانب، أى قناصل الدول الأوروبية: لقد كان لكل دولة – تقريباً – قنصل يمثلها فى القاهرة: النمسا وسردينيا وبيدمونت وتوسكانيا والسويد ... إلخ وكانت لبعض هذه الدول – مثل فرنسا وإنجلترا – وكالات تجارية.

ب- رجال القضاء:

كان قاضى القاهرة يحمل لقب " قاضى العسكر" وهو تركى يصدر بتعيينه فرمان من "الباب العالى" ولم يكن هذا القاضى يفهم اللغة العربية. وكان الفرمان يسمح له باختيار أى عدد يراه مناسباً من النواب. ومع ذلك، فإن عدد النواب كان يتم حسب العرف: فالقاهرة لها تسعة نواب وواحد فى بولاق وآخر فى مصر القديمة.

وكان قاضى العسكر يفصل فى القضايا لكن صلاحياته كانت تشمل أيضًا: اختيار القائمين على شئون المساجد ، وتقسيم التركات والإشراف على الأوقاف، ورسوم البيع، ونقل الملكيات. وكانت رسوم التقاضى تصل إلى نسبة ٢,٥٪ من قيمة الشيء موضوع النزاع. ولكن القاضى كان يفرض - غالبًا - نسبة أعلى قد تصل إلى ٨ أو١٠٪ وسندرس لاحقًا السبب فى ذلك . وأحكام القاضى - الذى يعينه "قاضى العسكر" - كانت قابلة للاستئناف أمام محكمة أعلى.

وكان "قاضى العسكر" يشترى هذا المنصب من الآستانة ويدفع قيمة هذا الالتزام لقاضى قضاة الأناضول ولشيخ الإسلام. وتجدر الإشارة إلى أن منصبى "شيخ الإسلام" و"الوزير" كانا - بعد السلطان - أهم المناصب فى هيكل التسلسل الإدارى التركى . ومن المعروف أن "قاضى العسكر" كان يدفع ما لا يقل عن ١٠ آلاف مدينى شهريًا "لشيخ الإسلام" ولكننا لا نعرف مقدار ما كان يدفعه "لقاضى قضاة الأناضول". ولتعويض ما دفع، كان "قاضى العسكر" يلزم نوابه بدفع مبلغ قد يصل إلى ٩٠٠ مدينى شهريًا . وبالتالى، كان على النواب أن يعوضوا ما دفعوه مقدمًا فكانوا يرفعون من نسبة الرسوم المفروضة على المتقاضين: فكانوا يستردون ما دفعوه ويكونون ثروة فى أسرع وقت. وهكذا نرى كيف تعرضت العدالة للإفساد. وهناك ما هو أسوأ مما سبق ذكره: فإذا كان قاضى العسكر لا يريد أن يقوم بمهام وظيفته بنفسه، فقد كان بوسعه أن يبيع لقبه. وفى هذه الحالة، كان يطالب بتعويض قد يصل إلى ٤٠ ألف مدينى سنويًا .

وكان فى مصر كلها ٣٦ قاضيًا يشغلون مناصبهم. وكان السلطان سليم الأول (١٥١٢ - ١٥٢٠م)، الذى غزا مصر، قد سمح لبعض القضاة بالاستمرار فى مناصبهم. وهؤلاء القضاة - بدورهم - كان لهم "نواب" يشكلون طبقة خاصة فى وظيفة القضاء ، وكانوا قابلين للعزل من وظائفهم: فكان "النائب" منهم يشترى الوظيفة من القاضى الموجود - إما عن طريق الالتزام أو بأى وسيلة أخرى - ويظل فى منصبه

حسبما يتراءى للقاضى. وعندما تنتهى مدة بقاء القاضى فى منصبه، كانت مصلحة "النواب" تقتضى الاتفاق مع القاضى الجديد الذى كان نادراً ما يرفضهم إلا إذا كان هناك تقصير خطير.

وفى فترة الاحتلال الفرنسى لمصر، سعى بونابرت إلى تنظيم العدالة التى وجدها تباع وتشترى . لكن بسبب انشغاله فى مهام عديدة، اكتفى بتحديد راتب القاضى بنسبة ٢٪ من قيمة الشيء موضوع التقاضى على أن يتقاسم القاضى هذا المبلغ مع كتبة المحكمة، وعلى الرغم من أى شيء، فإن هذا القرار كان بمثابة خطوة نحو عدالة أكثر انصافاً للجميع.

ثم حدث وأن زادت منازعات الرعايا الأوروبيين وجيش الحملة مما حدا ببونابرت لإنشاء "محاكم تجارية" فى كل من القاهرة ودمياط والإسكندرية ورشيد. وتم اختيار القضاة من بين التجار والسماسرة، وكانت مدة تعيينهم ثلاث سنوات: وعين ١٢ قاضياً فى القاهرة بينما اختصت باقى المدن – المشار إليها – بستة قضاة فقط كان يرأسهم مفوض فرنسى. ويعتبر هذا التجديد بمثابة أول محاولة لفصل المسائل المدنية البحتة عن المسائل الدينية.

كما تشكلت لجان مهمتها الفصل فى الجنح والمخالفات الخاصة بقوانين الصحة مع فرض عقوبات عليها تبدأ بالغرامة وتصل إلى حد تطبيق عقوبة الإعدام حسب خطورة الفعل المؤثم.

واحتفظ غير المسلمين بشرائعهم الخاصة بهم: فكان الأقباط يتقاضون أمام البطريرك؛ ويلجأ اليهود إلى حاخامهم؛ أما الأجانب، فكانوا يتقاضون أمام قناصل دولهم. وإذا حدث خلاف بين عدة أطراف يدين أحدهم بالإسلام، كان القاضى هو الذى يفصل فى هذا الخلاف ، وكان عليه أن يكون منصفاً وإلا ساءت العواقب.

وفى ظل هذا النظام للتقاضى، لا يوجد مكان للمحامين: فكل متقاض يعرض أدلته وبراهينه أمام القاضى الذى يصدر الحكم.

وكان لابد من إنشاء شرطة منظمة تنظيمًا جيدًا لتكون أداة ضرورية لتنفيذ العدالة المطلوبة: فأنشأ بونابرت كتيبة تركية مكونة من خمس سرايا بكل سرية ٦٥ شرطيًا، وكان رؤساء هذه الكتيبة وضباطها من السكان المحليين تحت رئاسة الجنرال **دوبوى** قائد حامية القاهرة. وفيما بعد، تم إنشاء سريتين فى بولاق ومصر القديمة. وهكذا نجد أنه قد اتخذت إجراءات للإدارة والشرطة بواسطة السكان المحليين ولصالحهم.

جـ- أعضاء المجالس ذات الصبغة الدينية:

كان العلماء، وهم فقهاء الشريعة، ينقسمون إلى ثلاث فئات:

١- **الأئمة:** وهم الذين يقيمون الشعائر ويعتنون بالمصلين والمساجد والمبانى الملحقة بها. وكانت هذه الوظيفة وراثية، ومع ذلك كان يمكن منحها لشخص لا يمت بصله قرابة ما للقائم بهذه الوظيفة مقابل دفع تعويض؛

٢- **المفتيون:** وهم الذين لهم حق إبداء الرأى فى المسائل الشرعية المختلف عليها ؛

٣- **القضاة:** سبق لنا وأن ذكرنا أن "قاضى العسكر" كانت لديه امتيازات عديدة، منها أنه هو الذى يمتحن الأئمة ويعينهم: فكان يقبلهم حسب صلاحيتهم لشغل هذه الوظائف أو يرفضهم لعدم كفاءتهم.

وكان للسلطان العثمانى نوع من السلطة الروحية على القضاة والعلماء، فقطع بونابرت آخر روابط هذه السلطة الروحية مع "الباب العالى" عندما عزل قاضى العسكر من منصبه وقبض عليه، يوم ١٨ يونيو سنة ١٧٩٩م، وبذلك يكون بونابرت قد بدأ فى "تمصير" العدالة.

وكانت توجد أيضًا مؤسستان تقومان على أسس دينية هما: الأشراف والدراويش.

١- **الأشراف:** كان الأشراف يكونون طبقة منفصلة عن غيرها فى المجتمع، أى أنها - بشكل ما - كانت طبقة نبيلة ينتسب إليها المنحدرون من ذرية "**فاطمة ابنة الرسول**" . وكانت السيدات منهن يورثن اللقب إلى أبنائهن وبناتهن. ويلاحظ أن عدد الأشراف زاد منذ بداية العصر الإسلامى.

وفى مصر، يتمتع "الأشراف" بامتيازات عديدة: فمن حق الذكور وضع عمامة خضراء فوق رءوسهم وتعد بمثابة علامة مميزة خاصة بطبقتهم الاجتماعية ، ويختار "نقيب الأشراف" من بين أبرز أفراد سلالة الرسول وهو الذى يمثلهم ، ومن يتولى هذا المنصب المهم يقيم فى القاهرة، ويدفع ٤٠ ألف مدينى عند تقلده مهام "نقابة الأشراف". وفى المقابل، يحصل "النقيب" على عدة ضياع صغيرة بصفة إقطاع خاص به لمدة سنة تجدد حسب رضا السلطان عنه.

وكان "نقيب الأشراف" - عند وصول الحملة الفرنسية - هو السيد خليل البكرى الذى فر هاربًا من مصر. فقام بونابرت بتعيين السيد / عمر مكرم فى هذا المنصب، وكان النقيب الجديد رجلاً ذا نفوذ عظيم جداً ويحترمه الجميع.

ويخضع الأشراف لسلطة نقيبهم. وليس من حق النقيب إدانة أى شريف بعقوبة الإعدام إذا ارتكب جريمة ما، فالقاضى وحده هو صاحب هذا الحق ولكن النقيب هو الذى ينفذ حكم الإعدام فى الشريف المدان. وللأشراف سجن خاص بهم، وجزء من دخل النقيب مخصص للصرف على مسجونى هذه الطبقة ورعايتهم. ولا يتم إعدام الشريف بقطع عنقه بل بخنقه داخل سجنه. وبعد تنفيذ حكم الإعدام، لا تعرض جثته على الملأ بل تدفن فوراً .

٢- **الدراويش:** لا يستطيع الباحث إهمال وجود الدراويش فى المجتمع المصرى. و"الدراويش" صنف من النساك المسلمين يعيش بعضهم فى جماعات تتنقل من تكية لأخرى. وللدرويش الحق فى أن يتزوج ولكن الزوجة لا تستطيع الإقامة مع زوجها فى التكية. وتعيش كل "طريقة" على الهبات التى يوصى بها المورثون والأوقاف. ويحترم

المصريون – بل ويبجلون – الدراويش ويستعينون بهم فى مختلف الاحتفالات.

د – **العسكريون:** قبل مجىء الحملة الفرنسية إلى مصر، كان المصريون يرتجفون فرقًا من القوات العسكرية التركية التى كانت تتكون من ستة "بلوكات" – اتصفت كلها بالقسوة – ومنها: "العزب" و"الانكشارية" اللذان كان مقرهما فى القلعة.

أما المماليك النهابون، فكانوا يتميزون بالأبهة ، وكانوا يثيرون إعجاب المتسكعين فى الشوارع بفخامة ملابسهم وبخيولهم المطهمة. وكانوا يتصفون بالشجاعة ولكنهم لم يقدموا أية حماية لمصر، ولم يستطيعوا حتى أن يشكلوا مجرد قوة شرطة فعالة لحفظ الأمن، وانكسرت شوكتهم أمام "المربعات" التى كونها جيش بونابرت فى حربه ضدهم. ولم تستفد سوى قلة من المماليك من هذا الدرس.

لقد تكونت الحملة الفرنسية من حوالى ٤٠ ألف جندى منهم : ٣٧ ألفًا من جنود المشاة و٢٥٠٠ فارس، ١٩٠٠ من جنود المدفعية(٧) والعديد من سرايا سلاح المهندسين والنَقَّابين وزارعى الألغام. وعندما رست سفن الحملة على ساحل الإسكندرية، كان معها ٣٠٠ حصان فقط أحضرتهم من فرنسا اعتمادًا على ما ستغنمه من خيول المماليك. وفى نهاية ١٧٩٨م بلغ عدد القوات الفرنسية ٣١٣٥٥ مقاتلاً.

وترك بونابرت ٤ آلاف جندى مع الجنرال ڤوبوا (Vaubois) فى جزيرة مالطة، ثم قام بتعويض هذا العدد بتجنيد متطوعين من أهالى الجزيرة: وهكذا تكونت "الفرقة المالطية" التى ضمت ٢٠٠٠ جندى و٤٢ فارسًا من "طائفة فرسان مالطا" جاءوا مع بونابرت إلى مصر.

لقد سبق لنا وأن أشرنا إلى "نيقولا رَيِّس" وهو رومى اسمه الحقيقى هو "پاپا زوغلو" وكان قائدًا لأسطول مراد بك قبل وصول الحملة، ثم انضم إلى بونابرت بعد معركة الأهرام. وكلفه بونابرت بتشكيل سرية ممن تبقى من بحارته، وكانت ترقيته مرتبطة بزيادة عدد المنضمين إليه. وفى عهد كليبر، حصل "نيقولا رَيِّس" على رتبة

(٧) بذلك يصل العدد إلى أكثر من ٤١٤٠٠ جندى، غير أعداد المهندسين والنقابين وزارعى الألغام[المترجم] .

"بريجادير"[8] بعد نشوب ثورة القاهرة الثانية. وكانت مهمته تأمين المواصلات النهرية بين الدلتا والصعيد باستخدام قوارب مسلحة: وهكذا نشأت "الفرقة اليونانية" التى خدمت الجيش الفرنسى بشرف.

وحصل حسين كاشف على لقب "الأفرنجى" بعدما التحق بخدمة الفرنسيين (وهو يونانى الأصل من جزيرة زانت) وحصل على رتبة كابتن[9] وقاد سرية من المماليك. وكان "الأفرنجى" هو صاحب فكرة تجنيد الجيش الفرنسى للشبان من الأرقاء البيض الذين تركهم سادتهم المماليك الهاربون.

وكان الحصار الإنجليزى لسواحل مصر قد منع المغاربة والبربر من العودة لبلادهم، فاستطاع "عمر الكولادى" أن يجمع حوله عدة مئات منهم وكَوَّن كتيبة تحت قيادته.

وكوَّن أحد العسكر - يدعى "إسماعيل" - كتيبة من الجنود الإنكشارية لخدمة الفرنسيين. وربما كان أفراد هذه الكتيبة من الجنود الفارين من الجيش التركى. أما "حموى" و"حرايبى" ، فقد قادا الفرسان الشوام الذين انضموا لقوات الحملة الفرنسية.

وفى الصعيد، استطاع الجنرال / ديزيه أن يجمع الجنود الفارين والزنوج - الذين كانوا عبيداً للمماليك - وشكل منهم فرقة من الهجانة لمطاردة لصوص البدو.

ولكن المعلم يعقوب كان أكثرهم مدعاة للدهشة، واسمه الحقيقى هو "يعقوب حنا": لقد كون المعلم يعقوب "فرقة قبطية" على نفقته الخاصة. وهكذا تكونت كتائب قبطية عديدة لدرجة أن كليبر رفع "يعقوب" إلى رتبة "الجنرال" على "الفرق القبطية" فى سنة ١٨٠٠م. وفى السنة التالية، دعاه القائد التركى للخدمة فى صفوف الجيش العثمانى ولكنه رفض. وتوفى يعقوب - عقب هذه المقابلة - على ظهر السفينة الحربية الإنجليزية "باللاس" (Pallas) التى كانت تقله إلى فرنسا. وبالتأكيد فإن العثمانيين قد دسوا السم له.

---

(٨) بريجادير" (Chef de Brigade) تعادل رتبة "أمير آلاى" - فى الرتب العسكرية التركية القديمة - و"عميد" فى الرتب العربية الحديثة [المترجم] .

(٩) رتبة "كابتن" (Capitaine) تعادل رتبة "يوزباشى" - فى الرتب العسكرية التركية القديمة - و"نقيب" فى الرتب العربية الحديثة [المترجم] .

وكلف الفرنسيون اثنين من أهل البلاد هما: "إبراهيم أغا" و"حسن شوربجى"[١٠] بحفظ موقعى أطفيح والسويس ورقيا إلى رتبة "قائد كتيبة"[١١] وطلب منهما تنظيم سرية محلية يقودها ضباط وصف ضباط مصريين [!!] وأفراد هذه القوة لم يرتدوا الزى العسكرى، ولكنهم حملوا شارة تميزهم وراية فرنسا المكتوب على أحد جانبيها آية قرآنية، وعلى الجانب الآخر لعنة ضد المماليك.

وإذا كان الجيش الفرنسى قد تولى مهام الشرطة فى المديريات، فإن هذا الدور فى القاهرة قد تولاه بارتيليمى سيرا (Bartolomeo Serra) وهو يونانى تقلب فى عدة مهن: فكان بوابًا ثم مدفعجى – لدى الألفى بك – ثم تاجر للزجاجات فى الموسكى، وترقى فى الوظائف العليا – بفضل الدسائس والمؤامرات – فأصبح نائبًا لمحافظ القاهرة. وأقام فى منزل يحيى كاشف – كبير الكشاف – فى حى عابدين: فاستولى على المنزل بكل ما فيه. وبصفته مسئولاً عن شرطة القاهرة فقد عين نائبًا له، ووضع حراسًا فى مختلف أنحاء العاصمة، وأمر بتسيير دوريات تجوب الشوارع ليلاً ونهارًا. وكان يرى دائمًا على صهوة جواده، وهو يقود مائة من الخيالة اليونانيين والمغاربة وكلهم من الأوغاد الذين لا يقلون قسوة عن قائدهم.

وكان بارتيليمى يرتدى دائمًا سترة يونانية مطرزة وسراويل واسعة ويحيط خصره بحزام أحمر عريض بلون النار، وحذاؤه الجلدى كان يصل حتى ساقيه، وكان يضع على رأسه عمامة بيضاء، وفوق ذلك كله ، عباءة غالية الثمن مبطنة بالفرو تزينها – على الكتفين – علامات رتبة "العميد"، وكانت زوجته – وهى خيالة ماهرة – تمتطى صهوة جوادها بجواره.

---

(١٠) هذان الشخصان ليسا مصريين كما يستدل على ذلك من لقبيهما ومن وظيفتيهما اللتين كلفا بهما [المترجم] .

(١١) (Chef de Balaillon) تساوى رتبة "صاغ" – فى الرتب التركية القديمة – و"رائد" فى الرتب العربية الحديثة [المترجم] .

وأطلق المصريون عليه لقب "فرط الرمان". واتصف بارتيليمى بالحزم: فكان يقطع رءوس قطاع الطرق... والفلاحين عندما لا يجد غيرهم أمامه. ونجح "فرط الرمان" فى تطهير أطراف القاهرة من البدو النهابين، وهذا نجاح أكيد يحسب له. وأثناء ثورتى القاهرة ضد الفرنسيين، تصرف "فرط الرمان" بشجاعة وبرود أعصاب. وعند رجوع الحملة إلى فرنسا، رحل بارتيليمى بصحبتها ومعه باقى المهاجرين.

لقد استطاع مينو أن يؤلف بين كل هذه الجماعات المتنافرة والتى تم تجنيدها فى الشرق، لخدمة فرنسا، وكون منها "فرقة مماليك الجمهورية" ، وتميزت هذه الفرقة فى الحروب التى شنها نابليون فى طول أوروبا وعرضها(١٢).

هـ - الموظفون الفرنسيون والمصريون:

لقد سبق للجيش الفرنسى أن تمرس على الحروب منذ سنوات طوال ، ولذلك كانت الحملة العسكرية على مصر - فى نظره - مجرد حملة مثل غيرها . ولكن عندما حل السلام، بعد الاستيلاء على القاهرة، كان لابد من التفكير فى إدارة هذه المستعمرة الجديدة.

وفى البداية، اعتمد بونابرت على القيادة العسكرية: فكانت هى وحدها التى تدير شئون البلاد. ثم جند بونابرت أعضاء "لجنة العلوم والفنون" ففرض عليهم تنفيذ مهام محددة وأمر الجيش بأن يعاونهم فيها . وهكذا انتشرت الشائعات بين هؤلاء المدنيين الذين وجدوا أنفسهم - فجأة - مجندين، ولكن كان عليهم جميعاً الاشتراك فى تنفيذ

(١٢) كل ما ذكره المؤلف - هنا - عن "المتطوعين الأجانب" (أى المرتزقة)، الذين عملوا فى خدمة الجيش الفرنسى، ينطبق على ما سمى - فيما بعد - بالفرقة الأجنبية (La Légion Etrangère) التى تشكلت دائماً من أحط أنواع المرتزقة - من جميع الأجناس والأديان والألوان والجنسيات - الذين اشتهروا بارتكاب أقسى الفظائع بلا أى رحمة (كما حدث - مثلا - فى حرب تحرير فيتنام وحرب تحرير الجزائر). وكان هؤلاء الجنود المرتزقة أساساً من الأجانب ولكن تحت قيادة ضباط فرنسيين، ومنذ إنشائها رسمياً سنة ١٨٣٩ حتى سنة ١٩٦٢ كان مركزها فى مدينة "سيدى بلعباس" فى الجزائر[المترجم] .

هدف الحملة ألا وهو: سحق المماليك وإحصاء ثروات مصر. وكانت هناك أيضًا المشاكل الإدارية التى حظيت بالأولوية وكان لابد من حلها على أفضل وجه.

ومنذ الأسابيع الأولى لبداية الحملة، وجدت الإدارات العسكرية أن الإدارة المدنية تتجاوزها وهذا ما خفف - جزئيًا - من مهمة العسكريين فى هذا المجال.

وفى دراسة منهجية "للخدمة العامة" - التى أنشأها الفرنسيون فى مصر - بدا لنا أنه من الأفضل الحديث عن بعض الإدارات التى تبرز عبقرية بونابرت على وجه التحديد: فمنذ اللحظة الأولى، سنجد أن بونابرت قد خالف كل مفاهيم نظام الحكم التركى/ المملوكى. لقد كان جوهر سياسة هذا النظام هو إبعاد المصريين عن إدارة الشئون العامة لبلادهم خوفًا من ازدياد قوتهم.

ولنا أن نتصور مدى دهشة المشايخ المصريين عندما كلفهم بونابرت بتولى مهام القضاء المدنى والجنائى، والفصل فى جميع المنازعات التى نشأت مع وجود نظام الإدارة الجديد !!! فلم يسبق لهم - أبدًا - وأن لاقوا مثل هذا التقدير.

وبصفته رجلاً سياسيًا ماهرًا، فقد طرح بونابرت على المشايخ هذا السؤال: "لماذا تخضع الأمة المصرية للأتراك ؟؟" لقد كان هذا السؤال - فى واقع الأمر - يمثل تحديًا للمصريين. ولم يتأخر المصريون فى الرد: فعملوا على التحرر تدريجيًا من نير العثمانيين.

إن المرء ليصاب بالدهشة عندما يجد عالم الرياضيات **مونج** وعالم الكيمياء برتولليه (Berthollet) يشتركان مع **ماجاللون** فى "اللجنة الإدارية" - المكلفة بتصفية ممتلكات المماليك - والتى كان ينتظر منها أن تجلب أموالاً جمة. وتولى **پوسييلج** (Poussièlgue) رئاسة "إدارة المالية" الرهيبة وعاونه فى هذه المهمة فريق من المعاونين الذين وجدهم بونابرت جاهزين تحت يده.

وكان هؤلاء الموظفون الفرنسيون ينتمون لتخصصات متنوعة وبرز منهم إداريون مرموقون: "**إيستيف**" فى منصب "أمين الصندوق"، و"**دور**" (D' Aure) ، و"بيروس"، و"دى سوسى" (De Sucy) وغيرهم.

وكان "جرجس الجوهرى" يرأس الإداريين الأقباط الذين تعاونوا بإخلاص مع الفرنسيين إلا أنهم لم يكونوا "منتظمين" دائمًا حسبما جاء فى تقارير كثيرة عنهم.

لقد كانت ملكية الأراضى الزراعية هى أساس المحاسبة الضرائبية التى لم تكن مبنية على قواعد دقيقة : ولذلك، كان هناك جزء من هذه الأراضى يفلت دائمًا من دفع "الضرائب المباشرة" (الميرى)، وكان من الصعب تحديد الحيازات، ولتلافى ذلك العيب، لجأ المماليك إلى أسلوب الإهانات والظلم...

ولما كان **"بوسييلج"** مغرمًا بالعدالة، فقد أنشأ "مكتب تسجيل": حجج الملكية، وجميع العقود الموثقة ، وحقوق نقل الحيازة ، والسجل المدنى، والوثائق الإدارية، ويتم تمويل ذلك كله على حساب دافع الضرائب . ولكن هذا القرار أثار استياء الجبرتى الذى لم ير فيه سوى أنه أعباء مالية جديدة ترهق كاهل الشعب، ولم يكن **الجبرتى** يفهم شيئًا فى نظم الإدارة الحديثة. كما أثار هذا القرار - أيضًا - استياء عامًا بين جميع أوساط الشعب المصرى، فاضطر بونابرت إلى كبح جماح حماس معاونيه. وعلينا أن نذكر أن **ج- ل. تاليان (J- L. Tallien)** كان هو المكلف برئاسة هذه اللجنة.

ونظرًا لعدم وجود شبكة طرق ، فقد كان نهر النيل هو وسيلة النقل الوحيدة، ولذلك أنشئت "إدارة الملاحة النهرية" تحت إدارة مساعد الأميرال بيريه **(Perrée)** وتولى أحد الأغوات مهمة الإشراف على "الشرطة النهرية". كما تم أيضًا إنشاء مصلحة خاصة لنقل البضائع مع تحديد مواعيد منتظمة لنقلها من بولاق ورشيد ودمياط.

ونظم "دى سوسى" مصلحة للبريد مع تحديد تعريفة لنقل الرسائل، وأنشأ مكاتب لهذه المصلحة فى القاهرة، وفى سبعة تجمعات سكنية فى الوجه البحرى.

وبالإضافة إلى الإدارات التى كانت موجودة بالفعل، والتى كانت تمارس عملها (مثل: المالية والعدل، الخ ...) أنشئت إدارات أخرى، فظهرت "إدارة المساحة": لقد كانت عملية مراقبة الترع والإشراف عليها مهمة حيوية لأن ثروة ورخاء السكان مرتبطان بها. واهتمت الإدارة الفرنسية - بشكل خاص - بالترعة التى تربط

الإسكندرية بالنيل. ولهذا السبب، بدأ مشروع رسم خرائط جديدة لأن الخريطة التى رسمها ب. **دانفيل** أصبحت لا تلبى احتياجات الجيش الفرنسى.

وكانت أول خريطة حديثة رسمتها الحملة الفرنسية هى خريطة لمدينة الإسكندرية، ثم وضع جاكوتين (Jacotin) خرائط لأطراف القاهرة، وتولى زميله تيستفويد (Testvuide) رسم خريطة عامة للقطر المصرى بناء على مقياس رسم محدد. وفى منتصف شهر أكتوبر ١٧٩٨م تقريبًا، أصبحت "خريطة القاهرة" شبه كاملة . وتم رسم مخططات جزئية للمناطق الموجودة بين القاهرة والصالحية، ومن القاهرة حتى أطفيح. وكان لابد من الانتظار قليلاً لإتمام رسم خريطة لصعيد مصر.

وأنشئ "السجل المدنى" لأسباب تتعلق بالاهتمام بالصحة والأمن العام . فأصبح الإبلاغ عن الوفيات إجباريًا. ولمكافحة انتشار الأمراض المعدية – التى غالبًا ما تضرب البلاد – قامت السلطات المختصة، وعلى رأسها "ديجينيت"، بإعداد قوائم بسكان كل بيت، فى كل شارع، مع اسم البواب المسئول. وخضع تغيير محل الإقامة لرقابة شديدة. وعبر **الجبرتى** عن غضبه لأن دفن الموتى لم يعد يتم إلا بعد موافقة الطبيب.

ولنتوقف الآن أمام طريقة أداء العمل اليومى فى إحدى الإدارات: لقد كان الفرنسيون يمارسون عملهم وهم جالسون على الكراسى وأمامهم مناضد. ولكن الكتبة المحليين كانوا يفضلون الكتابة بنفس طريقتهم القديمة أى وهم جالسون متربعون على أريكة، ويفردون الورقة على اليد اليسرى بينما تمسك اليمنى بالقلم البسط، وكانت طريقة الكتابة هذه تجعل السطور المكتوبة تبدو دائمًا مائلة بالنسبة لحافة الورقة. وكان الكاتب يستخدم مقلمة نحاسية والحبر.

وتم استحداث حافز جديد دفع الموظفين المحليين للعمل بنشاط أكثر: فأصبح لكل وظيفة عامة أجر مجز، وأصبح راتب أعضاء "الديوان" مساويا للراتب الأساسى اليومى للإنكشارية . أما فى العهد التركى/ المملوكى، فقد كان الموظفون – بموافقة رئيسهم – يفرضون نسبة مئوية (لا تراجع) على المبالغ التى تم تحصيلها: لقد حل نظام جباية الدولة للضرائب محل نظام الالتزام الذى أنشأه الحكام السابقون.

وكما أسلفنا القول فإن "الإدارات" المختلفة اتخذت مقارها فى العديد من قصور المماليك الهاربين . وأثبتت "ثورة القاهرة الأولى" ضرورة نقل مقار "المصالح العامة" من وسط المدينة لأنه موقع غير آمن: وهكذا ظهر مشروع نقل كل الإدارات إلى "حى خاص" جديد فى جزيرة الروضة أو الجيزة، بل وتم – أيضًا – التفكير فى نقل العاصمة من القاهرة وأن تصبح الإسكندرية هى عاصمة مصر.

الفصل الثالث

مظاهر الاقتصاد المصرى

أولاً : الزراعة :

أ - المحاصيل الزراعية:

تمثل الزراعة النشاط الأساسى لسكان مصر الذين يزرعون: الحبوب والخضروات وقصب السكر والتبغ والنباتات التى تستخرج منها الزيوت.

وسنتكلم فى الفقرات التالية عن الحبوب التى تستخدم فى إنتاج الخبز وأولها - بالطبع - هو القمح الذى يزرع فى جميع أرجاء مصر.

ففى الصعيد، يبذر الفلاح نصف إردب من البذور لزراعة فدان من القمح؛ بينما فى الدلتا، يحتاج فقط إلى كمية تتراوح ما بين ثلث ونصف إردب لزراعة نفس المساحة قمحًا. ويستخدم الفلاح المنجل فى حصاد المحصول. وفى العادة، يستطيع ٨ أو١٠ رجال حصد فدان من القمح[١] فى اليوم الواحد. وعوضًا عن النقود، يأخذ كل عامل زراعى منهم "رُبْعَة" (١/٢٤ من الأردب) قمح يوميًا. ونلاحظ أن العمال الزراعيين يأخذون أجرهم بـ (الحِزْمَة) وليس حبوبًا.

وبعد الحصاد، يتم درس السنابل بواسطة "النورج" الذى يجره ثور فى "الجُرْن" ، وثمن غذاء الثور - فى اليوم - يساوى يومية أجر عامل تقريبًا. وبإجراء عملية حسابية، يتضح لنا أن ٧٢ حزمة قمح تنتج - فى المتوسط - أردبًا من الحبوب يزن ٢٧٥ رطلاً (أى ١٢٥ كجم). أما التبن المتبقى من عملية "الدَّرْس" فيخصص لعلف الماشية.

---

(١) يستخدم الفلاحون المصريون تعبير "ضم الغلة" [المترجم] .

ولاحظ علماء الأحياء - الذين صحبوا الحملة الفرنسية - أن محصول القمح المزروع فى الصعيد ينتج عنه مقدار من الحبوب مساو لمقدار التبن. ويزرع الفلاح المصرى الشعير بنفس الطريقة السابقة.

وبالنسبة للذرة، فإن الفلاح يبذر من ١٢/١ إلى ٢٤/١ من الأردب، من البذور، فى الفدان الواحد. ويتم حصاد المحصول، ثم تعرض الذرة للشمس - فى الجرن - حتى تجف، ثم تضرب . وتباع عيدان الذرة للاستخدام كوقود فى المطابخ والفواخير وقمائن الطوب والجير الخ الخ...[٢] كما تستخدم هذه العيدان - أيضًا - فى عمل أسقف الأكواخ فى الريف والمدن، ويستخدمها الفلاح لعبور النيل وذلك بضمها إلى بعضها على هيئة حزمة تطفو فيركب فوقها.

أما الأرز ، فيزرع فى الدلتا فقط خصوصًا حول مدينتى رشيد ودمياط. وتتطلب زراعته وجود عمال زراعيين متخصصين يحصل كل منهم على "ريال أبو طاقة" مقابل كل فدان يزرعه أرزًا. وعند اقتلاع الشتلات القديمة وشتل الشتلات الجديدة، يحصل كل عامل على خمسة ريالات أبو طاقة.

ثم تأتى مرحلة الحصاد ثم الضرب[٣] فالتبييض لفصل حبة الأرز عن قشرتها. وتبييض الأرز يتم بواسطة آلة بها "مدق" إسطوانى الشكل مصنوع من الحديد المفرغ: فتمر حبوب الأرز ثلاث مرات تحت هذه الآلة؛ وفى المرة الرابعة، تضاف إليها كمية من الملح لكى يصبح لونها أبيض تماما . وبعد ذلك ، تطرح للبيع فى الأسواق. ويعمل هذا المضرب - ذو المدقين - ليلاً ونهارًا بواسطة تسعة ثيران مع سبعة عمال يتناوبون العمل بنظام الورديات. وينتج الفدان الواحد ٣ ونصف أردب من حبوب الأرز تحتاج إلى ٣/٤ إردب من الشتلات لزراعتها.

---

(٢) تستخدم عيدان الذرة و"القوالح" أيضًا "كوقود"، وكذلك تستخدم عيدان الذرة فى بناء "الخص" و"الدروة" [المترجم] .

(٣) عملية "ضرب الأرز" تكون لفصل حبوب الأرز عن السنابل (وندين بالشكر للمهندس الزراعى خالد العنانى لتفضله بتوضيح وتصحيح المعلومات الواردة بالملحوظات رقم ٣، ٤، ٥، ٦)[المترجم] .

ويُزرع القطن فى مناطق الصعيد والدلتا. ويتم جنى أول محصول بعد مرور ثلاثة أشهر على تفتيح "اللوزة"، وعندئذ نستطيع رؤية القطن بداخلها(٤). ويقوم الأطفال والنساء بعملية جنى القطن التى تستمر لمدة ثلاثة أشهر. وتترك "النوارة" فى الشمس لتجف ثمَّ تنزع القشور عنها يدويًا . أما فصل البذور عن القطن، فيتم باستخدام آلة بسيطة يمر القطن من خلالها بينما تحجز البذور(٥). وتستمر نفس "الغَرْسة" فى الأرض لمدة تتراوح ما بين ثمان سنوات(٦) حتى عشر. وينتج الفدان الواحد حوالى ٣٠٠ رطل ويبلغ سعر الرطل من ١٠ إلى ١٢ بارة.

ويُزرع قصب السكر فى الصعيد، خصوصًا فى جرجا وفرشوط وأخميم. ويستهلك جزء من المحصول بشكل مباشر بواسطة هواة مص القصب، ويستخدم باقى المحصول فى صناعة السكر. وينتج الفدان ٢٠ قنطارًا من أقماع السكر و١٢ قنطارًا من المولاس(٧). وقنطار السكر يساوى ١٠٥ أرطال ويبلغ ثمنه من ١٠ إلى ١٢ ريالاً أبو طاقة بينما سعر الميلاس يساوى ٣ ريالات أبو طاقة للقنطار.

وتزرع "النيلة" فى مديرية المنيا وبنى سويف والجيزة. ويستخرج اللون من لب النبات بواسطة نقعه ثم تصفيته. وتوضع المادة المستخرجة فى قوالب تتراوح سعتها ما بين رطل ونصف إلى رطلين ؛ وعندئذ ، تكون النيلة جاهزة للبيع وللاستخدام فى المصابغ، ويبلغ متوسط ثمن الرطل من ١٦ إلى ١٨ مدينيًا.

ويُزْرَع التبغ فى الصعيد، وتنقل أوراقه فى بالات صغيرة اسطوانية الشكل وخضراء اللون. ويختلف سعر قنطار التبغ حسب محصوله: فإذا كان "درجة أولى" – أى أول محصول – فإن سعره يتراوح ما بين ٢٥٠ إلى ٥٠٠ مدينى للقنطار، أما المحصول الثانى – أو الدرجة الثانية – فيصل سعره إلى أقل من نصف السعر السابق.

---

(٤) عندما تتفتح "اللوزة" تصبح "نوارة" وبداخلها يكون القطن "مكمكم" [المترجم] .

(٥) يُستخرج "الزيت الحلو" من بذرة القطن بعد كبسها [المترجم] .

(٦) كذا فى النص الأصلى، والصحيح أن "الغرسة" تستمر فى الأرض لمدة من ٨ أشهر إلى عشرة [المترجم] .

(٧) "المولاس" هو ما يطلق عليه اسم "العسل الأسود" [المترجم] .

ويزرع الفلاح المصرى: العدس والبقول (مثل: الفول والحمص والترمس) ، والخضراوات مثل: البامية والملوخية والباذنجان والقلقاس والبصل والخيار والبطيخ والشمام والحلبة - التى تستخدم كعلف للحيوانات فى أوروبا - لكن حبوبها تستخدم هنا لغذاء البشر، كما يطهو المصريون الخبيزة.

ومن الأشجار المثمرة، يحب المصريون زراعة نخيل البلح وأشجار: الخوخ والبرقوق والتين والزيتون والرمان والبرتقال والليمون. ويجهل الفلاحون المصريون طريقة تقليم الأشجار وتطعيمها ولذلك نجد أن ثمار الفاكهة تكون - بصفة عامة - ذات نوعية منخفضة الجودة. وبصرف النظر عن أن شجرة الجميز تعطى ثماراً عديمة الطعم إلا أن خشبها يستخدم فى صناعة المراكب والألواح الخشبية.

وتوجد فى مصر أشجار النبق (أو السدر) ذات الثمار حمضية الطعم. ويُوجد أيضًا شجر السنط ويستخدم المصريون حبوبه لدباغة الجلود، مثلما يستخدم الأوربيون لحاء شجر البلوط لنفس الغرض. ويصل ثمن الأردب من هذه الحبوب إلى ٤٨٠ مديناً تقريباً.

وأخيراً، نجد أن نبات "القنب الهندى" يزرع بصفته مخدراً وليس لجودة نوعية الألياف التى تستخرج منه. ويفضل العوام تدخينه فى جميع المقاهى. ومما هو جدير بالذكر أن تدخين الحشيش لم يكن محظوراً قبل سنة ١٨٠٠[(٨)].

ولدينا بعض الملاحظات العامة عن الزراعة فى تلك الفترة: فالأرض المصرية شديدة الخصوبة وتنتج - فى المتوسط - ١٤ ضعفًا من كمية البذور المبذورة فيها، والفدان الواحد (٤٢٠٠ م٢) يلزمه نصف أردب من البذور، يضاف إليه أردب ونصف بمثابة تكاليف عن كل سبعة أرادب أنتجت. وبالتالى فإن الربح الصافى يصبح ٥ أرادب.

---

(٨) بخصوص منع استخدام الحشيش فى مصر، سنذكر هنا المادة الأولى من القرار الصادر فى ١٧ فيندميير من العام التاسع للجمهورية (٩ أكتوبر سنة ١٨٠٠م) والذى أصدره الجنرال مينو قائد القوات الفرنسية فى مصر: "المادة الأولى: يمنع استخدام المشروب المسكر الذى يصنعه بعض المسلمين مستخدمين نوعًا من الأعشاب اسمه الحشيش ويمنع كذلك تدخين حبوب نبات القنب". (راجع كتاب: Chrestomathie arabe تأليف : S. De Sacy المطبعة الإمبراطورية - باريس سنة ١٨٠٦م- ص ٢٨٣). وهذه هى المرة الأولى التى يصدر فيها قرار بمنع الحشيش فى مصر (المؤلف). وكان هذا الشراب المسكر "يصنع بغلى بذور الحشيش غلياً شديداً ويُشرب المنقوع [المترجم] .

وبما أن هذا البلد لا يزال بلداً زراعيًا فى الأساس، فمن الطبيعى أن كل الضرائب فيه تكاد تكون ضرائب عينية.

والخضراوات والنباتات المجلوبة من أوروبا - أو من المناطق البعيدة- تطرح محصولين أو ثلاثة فى السنة لكن جودتها تتدهور بسرعة، ولذلك يجب شراء البذور الأجنبية من جديد. وبالتأكيد، فإن تأقلم الأنواع النباتية الجديدة مع مناخ مصر يتطلب تعاملاً دقيقًا للحصول على نتائج مشجعة وأطول عمراً مما قدره علماء الأحياء الذين جاءوا مع الحملة إلى مصر.

ب - الماشية:

سندرس باختصار - فى الفقرات التالية - مجموعة الحيوانات التى يربيها الفلاح المصرى ويعتنى بها لاستخدامها فى الإنتاج الزراعى وهى: الثيران والجاموس والخيل والجمال والحمير. ولا يوجد فى مصر - حتى الآن - مكان يختص بانتقاء وتكاثر الأنواع المختارة.

ويستخدم الفلاح الثيران والأبقار فى الأعمال الزراعية. وزوج الثيران يبلغ ثمنه من٥٠ إلى٦٠ ريالاً أبو طاقة، ولكن هذا السعر يتضاعف فى الدلتا. وعندما تحدث أوبئة تهلك الحيوانات، يتم شراء حيوانات من سوريا وجزر الأرخبيل اليونانى لتعويض النقص.

أما الجاموس ، فقد جلبه الأتراك من بلاد فارس(٩)، واعتاد هذا النوع على مناخ البلاد. وفى الصعيد، تربى الجاموسة للحصول فقط على لبنها. ويترك الفلاح الجاموس يرعى نبات الحلفاء فى الأراضى غير المزروعة. وفى شمال مصر، نجد ذكور الجاموس تساهم فى الأعمال الزراعية: فهى التى تدير السواقى، وتحميها أشجار الجميز من حرارة الشمس لأنها لا تتحمل الحرارة ولابد من تركها تستحم يوميًا فى مياه النيل أو الترع.

---

(٩) أدخل العرب الجاموس إلى مصر فى حوالى القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى). وأصبح معروفًا ومنتشراً منذ عهد الفاطميين (القرن العاشر الميلادى) [المترجم] .

وعلى شاطئ بحيرة "البرلس"، يعيش نوع شبه برى من الجواميس، ويحلبها سكان هذه المنطقة لصناعة الأجبان والزبد من لبنها. ويفضل السكان أكل لحم الجاموس، وتشترى المدابغ جلدها بثمن يتراوح ما بين ٢ و٣ ريالات أبو طاقة.

والجمال - فى الصعيد - أصغر وأضعف من أمثالها التى تعيش فى باقى أرجاء مصر. والبدو الرحل - الذين يعيشون على أطراف وادى النيل - هم الذين يربونها عادة. وتستخدم الجمال فى النقل الثقيل ، ويتراوح ثمن الجمل الواحد من٣٠ إلى٦٠ ريالاً أبو طاقة حسب السن، وغالبًا ما يتم تأجيرها ممن يربونها . ويتغذى الجمل بالتبن والفول وأوراق نبات الذرة أو أوراق شجرة التين.

وفى مصر، لا توجد قطعان كبيرة من الأغنام نظراً لندرة المراعى. وتربى الماعز للحصول على لبنها؛ أما التيوس، فتربى من أجل جلودها التى تستخدم فى صناعة القِرَب.

وتتصف الخراف فى الصعيد بأن لونها بنى فى الغالب. ويتم جز صوفها فى شهرى مايو ويونيو، ويعطى كل رأس من رطلين إلى أربعة أرطال من الصوف الذى ينظف ويغسل ثم يباع بثمن يتراوح ما بين٤٠ و٥٠ بارة للرطل الواحد. وتشتهر الفيوم بأن بها أجود أصناف الصوف.

أما الحصان، فهو أغلى الحيوانات: فثمنه يتراوح ما بين٤٠ إلى٦٠ ريالاً أبو طاقة (أى من١٢ إلى٢٠ لويسا ذهبيا)[١٠]. والبدو شبه الرحل، الذين يمارسون قليلاً من الزراعة، يربون الخيل على حواف الصحراء، ويفضل المشترون شراء خيول الصعيد. ويتغذى الحصان بالتبن والبرسيم ولكن الأثرياء يضيفون إليهما حبوب الشعير.

والحصان حيوان نبيل ولذلك لا يركبه سوى المماليك الذين يستخدمونه فى الحروب . وعندما يمتطى فرسان المماليك صهوة الحصان، فإنهم يجعلونه يسير إما خطوة فخطوة وإما يجعلونه ينطلق عدواً ولا يتركونه يمشى مسرعًا أبداً. وهناك تمرين

(١٠) "لويس" (Louis) عملة ذهبية فرنسية قديمة عليها صورة لويس ١٣ ملك فرنسا. كانت قيمتها ١٠ جنيهات ثم ارتفعت إلى ٢٠ جنيهًا [المترجم] .

يفضله المماليك: فهم يحثون الحصان على أن ينطلق بأقصى سرعة ثم يوقفونه فجأة. وهذا التمرين يسبب هشاشة عظام ساقى الحصان. ويبدأ استخدام الحصان فى الركوب عند وصوله لسن الثلاث سنوات وحتى سن العاشرة فقط. وبعد تلك السن، يصبح عديم الفائدة نظراً لتعرضه للإعياء.

ولكى يظل راكب الحصان ثابتًا على سرجه، فإن الشرقيين يرتكزون على ركاب عريض يستخدم أيضاً بصفة مهماز. ويكفى أن يعطى الفارس ضربة بركابه العريض هذا لكى يمزق جنب الحصان. واللجام الذى يستخدمونه صلب وطريقتهم العنيفة فى إيقاف الحصان، وهو يعدو مسرعًا، تحطم أسنانه مبكراً، ولذلك يجب إيقافه بهذا اللجام بعد انطلاقه فى العدو.

ولكن العرب يفضلون ركوب الفرس ويعتنون بها عناية كبيرة ولديهم شجرة نسب لخيولهم. والحصان الأصيل – أو الفرس الأصيلة – قد يساوى ما بين٥ و٦ آلاف فرنك.

والحمار هو وسيلة الركوب الأكثر شعبية فى مدن مصر وريفها. ويمتطيه المصريون للتنقل بين المسافات القصيرة وحمل الأشياء الخفيفة. وأفضل أنواع الحمير يباع الواحد منها بسعر يتراوح ما بين١٠ و١٢ ريالاً أبو طاقة.

ولا نستطيع إنهاء هذا الجزء بدون ذكر: الكلاب واليمام والتماسيح. لقد كرس فولنى (Volney) وجاللان (Galland) فقرات طويلة – فى كتاباتهما – للحديث عن الكلاب. وهذه الحيوانات – فى مصر – ليس لها صاحب، وينظر المصريون إليها باعتبارها حيوانات نجسة ولكنهم لا يقتلونها أبداً. وبما أن المصريين يتصفون بالشفقة، فإنهم يلقون إليها ببقايا طعامهم. وفى المدن، توجد أوقاف أوقفها بعض الأثرياء لإطعام الكلاب. وفى الإسكندرية، تغطس الكلاب حتى العنق فى مياه البحر لترطيب أجسادها عندما تكون المياه نادرة.

وفى الريف، تعيش الكلاب حياة شبه برية على أكوام الأنقاض المجاورة للتجمعات السكنية. وفى هذه الحالة، تكون مجموعات صغيرة تعيش على المنحدرات الجنوبية لتلك الأكوام. وفى ليالى الشتاء الباردة، تلتصق ببعضها للحصول على الدفء. واللون الأصفر هو اللون الغالب على تلك الحيوانات التى تشبه الذئاب من حيث الشكل والحجم.

لقد ثارت أعصاب جنود الحملة الفرنسية بسبب الكلاب التى لم تكف عن العواء طوال الليل، فصدر الأمر للجيش بتسميم هذه الحيوانات[١١]. وأثار هذا القرار استنكار سكان الإسكندرية الذين احتجوا قائلين: "لا يجب قتل هذه الحيوانات - التى خلقها الله - لهذا السبب التافه". والأغرب من ذلك هو أن السذج يعتقدون بأن الكلاب لديها مناعة ضد مرض "السُعَار". وهذا المرض معروف فى مصر بما أن اسمه موجود فى اللغة العربية. إن الكلاب والقطط والطيور الجارحة لها وظيفة محددة: فهى تقوم بدور "هيئة النظافة" فى بلد ما زال يجهل وجود مثل هذا التنظيم.

ويحظى "اليمام" بعناية خاصة من قبل المصريين بسبب حكاية جعلت من هذا الطير رسولاً للملك سليمان[١٢]. ولهذا السبب ، نجد على بعض المآذن أطباقًا واسعة مليئة بالحبوب لإطعام اليمام[١٣].

ولرؤية التمساح، يجب علينا أن نصعد فى النيل حتى نصل إلى قنا. ويتصف التمساح بالحذر الشديد، ولذلك لا يمكن ملاحظته بسهولة. وعادة ما يكون التمساح محاطًا بالطيور، خاصة البجع، ومن النادر أن يتجاوز طوله الثلاثة أمتار. وهذا الحيوان الزاحف خطر للغاية؛ وعندما تسنح له الفرصة فإنه يلتهم خروفًا أو معزة أو طفلاً صغيراً. ولتفادى مثل هذه الحوادث، يقيم الفلاحون سياجًا قويًا من البوص لحماية "موردة" المياه التى تملأ منها النسوة الجرار على شاطئ النهر. كما يعلق المصريون تماسيحاً محنطة فوق المدخل الرئيسى لمنازلهم لحمايتها. ومن المؤكد أن هذه العادة إرث توارثوه من مصر القديمة[١٤]. وترى هذه التماسيح المحنطة بكثرة على مداخل منازل البكوات.

---

(١١) نعتقد أن السبب المنطقى لتسميم الكلاب "الضالة" ليس فقط لأنها تعوى طول الليل (فماذا نتوقع منها غير ذلك؟!) بل لأن الأعداد الكبيرة لهذه الكلاب الضالة جعلت أطباء الحملة الفرنسية يخشون انتشار مرض "السعار" [المترجم] .

(١٢) حسبما جاء فى القرآن الكريم، فإن "الهدهد" (la huppe) كان هو رسول النبى سليمان لملكة سبأ وليس "اليمامة" (la tourterelle) كما يذكر المؤلف هنا [المترجم] .

(١٣) ولماذا اليمام فقط ؟ [المترجم] .

(١٤) عبد المصريون القدماء التمساح باعتباره رمزًا للمعبود "سوبك" واستمرت عادة تعليق التماسيح المحنطة فوق مداخل البيوت حتى منتصف القرن العشرين فى القاهرة نفسها فى الأحياء الشعبية وتوجد قرى تحمل اسم هذا المعبود (مثل : سُبك الأحد وسبك الضحاك" ... وتوجد أيضًا عائلات "السوبكى" . [المترجم] .

ج- الأدوات الزراعية:

لا يعرف الفلاح المصرى سوى المحراث البسيط المكون من سلاح حديدى مدبب يكون أحيانًا على هيئة معزقة كما فى منطقة رشيد مثلاً. وتجر الثيران- أو الدواب الأخرى - المحراث. وبدلاً من استخدام المشط، فإن الفلاح المصرى يستخدم جذع نخلة بالعرض . وتستخدم "المسوقة" لتسوية المساحة التى يريد الفلاح ريها، وهى عبارة عن لوح عريض طوله ٨٠ سم يوجد على أحد جانبيه مقبض طوله ١٤٠سم؛ وفى الجانب الأخر، يوجد حبل يشده رجل أو اثنان ويمسك شخص ثالث المقبض بيديه ويوجهه. كما يستخدم الفلاح "الفأس" لعزق الأرض، والمجرفة "والقُفَّة" لنقل الردم والبذور.

وعملية رى الأراضى الزراعية هى - بالتأكيد - أكثر الأعمال مشقة بالنسبة للفلاح المصرى، لأن مصر تكاد لا تعرف الأمطار. لذلك فإن رى الأرض عملية مستمرة لا غنى عنها. ويجب على الفلاح - أيضًا - تطبيق نظام الرى والصرف ليس فقط حسب طبيعة الأرض بل أيضًا حسب ظروفه الاقتصادية التى عادة ما تكون محدودة للغاية.

ويستخدم الفلاح المصرى "الشادوف" لرى الأراضى المرتفعة وقد يضطر أحيانًا لاستخدام شادوفين أو ثلاثة يكون كل منها فى مستوى أعلى من الآخر. وهذا النظام يسمح للفلاح بالحصول على عشرة ليترات من الماء فى الدقيقة الواحدة . أما الساقية - أو "الناعورة" - فهى أكثر فاعلية من الشادوف ولكنها أيضًا أكثر تكلفة منه وتديرها إحدى الدواب. وأخيرًا ، عندما لا يكون مستوى الماء مرتفعًا، فإن الفلاح يستخدم "الطنبور" أو "النطالة"(١٥) وهى عبارة عن وعاء جلدى يحركه رجلان فى حركة متأرجحة.

ويحرص الفلاح على أن يكون كل خط يشقه المحراث قد أخذ كمية مناسبة من الماء: ولذلك، عليه أن يفتح ويغلق كل حوض بمعرفته لإدخال الماء فى الحوض أو منعه عنه. وهذا العمل الشاق والدءوب لا يتوقف إلا مع غروب الشمس.

---

(١٥) "النَطَّالَة" أو "المَنْطَل" [المترجم] .

وفيما يتعلق بالحصاد، فالفلاح لا يستخدم سوى المنجل . ويجمع الحبوب فى "الجرن" حيث تدوسها الثيران ، فتنفصل الحبوب عن التبن الذى يستخدم لعلف الدواب ؛ وهذه العملية تتم أيضاً بواسطة "النورج" . وبالنسبة لبعض النباتات، يتم الحصول على حبوبها بضربها بالعصا ثم بالتذرية بواسطة مذراة صغيرة ذات أسنان متقاربة. وأخيراً، يغربل الفلاح الحبوب عدة مرات ثم ينقلها على ظهر الجمال أو الحمير حسب الكمية.

لقد كانت مهمة دراسة جريان مياه نهر النيل – من الشلال الأول وحتى المصب – ودراسة نظام الرى فى الصعيد، إحدى المهام الرئيسية التى شغلت مهندسى الطرق والكبارى الذين جاءوا مع الحملة على مصر.

ويحق لنا الآن أن نتساءل عما إذا كان الوجود الفرنسى فى مصر قد عدل من ظروف معيشة الفلاح أم لا ؟ لقد تحسن وضعه إلى حد ما: ففى البداية، نعم الفلاحون بفترة استراحوا فيها من المظالم والابتزاز التى اعتادوها من المماليك. ثم جاءت الضرائب الثقيلة التى فرضها الفرنسيون – مثل ضرائب المماليك – إلا أنها كانت تقسط بطريقة أكثر عدالة ، حتى ولو ظل جباة الضرائب الأقباط قساة وشرسين كعادتهم. وأخيراً، استطاعت الحملة الفرنسية وضع حد لغارات البدو النهابين... كلما سمح لها الوضع العسكرى بذلك.

وفى واقع الأمر، فإن السنوات الثلاث – التى قضاها الاحتلال الفرنسى فى مصر – كانت قصيرة جداً ولا تسمح بإحداث تقدم حقيقى فى مجالى الزراعة والحياة اليومية للفلاحين المصريين.

ثانياً : الصناعة :

أ- طوائف الحرف:

كان الحرفيون والتجار يتجمعون فى طوائف لا تسمح لأى شخص من غير أعضائها بممارسة هذه المهن أو الحرف. وكان يرأس كل طائفة "شيخ" مسئول – غالباً – أمام قائد "فرقة الإنكشارية" الذى يعتبر بمثابة "رئيس شرطة القاهرة"؛ وكان

"شيوخ" بعض الطوائف مسئولين أمام قائد "فرقة العزب" وهى فرقة تركية تعسكر فى القلعة؛ كما كان البعض الآخر مسئولين أمام "المحتسب" (وهو أحد موظفى بيت المال كلفته الإدارة بمراقبة الأسواق خصوصاً فيما يتعلق بالمواد الغذائية).

ولكن لابد لنا وأن نذكِّر بأن بعض الحرف لم يكن شيخها مسئولاً أمام أى من السلطات التى سبق لنا وأن ذكرناها، فقد كانت هذه الحرف منعزلة عن غيرها ولكل منها "شيخها" مثل: المهرجون والمغنون والراقصات وضاربو الطبول والمشعوذون. وكذلك كان للعاهرات والشحاذين واللصوص "شيوخهم" المسئولون عنهم. ولاسترجاع الأشياء المسروقة، كان لابد من الاتصال بـ "شيخ اللصوص". وهؤلاء "الشيوخ" كانوا من بقايا رجال الشرطة القديمة فى البلاد !!! (١٦) إن اللصوص نادرون فى مصر مع أن الدكاكين تكاد تكون مفتوحة دائماً ومع وجود الزحام الشديد فى الشوارع.

ومن الغريب أن يكون "شيخ الحمامجية" هو المشرف على "شيوخ" ٢٤ حرفة أخرى مختلفة منها: الخيامية والمغنون والخطباء المتجولون فى الشوارع، ومُدَرِّبو الحمير الصغيرة واللاعبون بالعصى... الخ.

وكان أفراد الطائفة هم الذين ينتخبون شيخهم دائمًا، وكانت التزاماته الأساسية هى: تسوية الخلافات البسيطة التى قد تنشب بين أعضاء الطائفة، وتوزيع الضريبة "الميرى" المطلوبة من طائفته. وفى المدن التى يكون بها عدد كبير من أفراد طائفة ما، كان من حق "الشيخ" أن يعين عدة نواب له. وفى حالة نشوب نزاع بين "المعلم" وعامل (أو عمال) لديه، كان الشيخ هو الذى يفصل فى هذا النزاع إذا لم يكن هناك اتفاق مسبق بين الطرفين. وفى هذه الحالة، كان الشيخ يسمح للعامل بممارسة حرفته لدى "معلم" آخر، وكان العامل يدفع - فى هذه الحالة - ما بين ٣٠ و٤٠ بارة.

ويأخذ الشيخ من أعضاء طائفته رسومًا بسيطة محددة للحصول على امتيازات لا يمنحها أحد سواه. وعليه أيضًا أن يدفع الضرائب الثابتة نقدًا أو عينًا لمن يرأسونه:

---

(١٦) مازالت هذه العادة موجودة حتى الآن. والمبلغ المدفوع لاسترداد المسروقات يسمى فى القاهرة "الحلاوة" وفى الريف "الحلوان" [المترجم] .

رئيس الشرطة أو الجيش حسب الحالة. ولا توجد قواعد ثابتة تحكم كل التصرفات السابقة، ولكن كل شيء كان يتم في إطار من الاعتدال لكى لا يفقد أحد امتيازاته أو وضعه الاجتماعى.

ولا يحق لأحد أن يغير شيخ الطائفة طالما أنه يحظى برضاء أعضاء طائفته، كما أنه ليس من حق الشيخ تعديل الرسوم التى تم الاتفاق عليها. أما إذا لم يرض أعضاء الطائفة عنه، فعلى "المتولى" تعيين آخر: وفى هذه الحالة، يكلف "المتولى" الأعضاء كلهم بترشيح شخص آخر بالإجماع . وعندما يقبل الشيخ الجديد تولى مهام منصبه، عليه أن يبذل كل ما فى وسعه لإعادة استتباب النظام فى صفوف الطائفة . وإذا أرادت السلطات جباية ضريبة جديدة من طائفة ما، فإنها تطلب ذلك من شيخ هذه الطائفة فقط – دون سواه – وهو الذى يجمع المبلغ المطلوب من أغنياء طائفته.

ب- الحرفيون وحرفهم:

يقدر عدد العاملين فى القاهرة بـ ١٥ ألف عامل ينتمون إلى ثلاث فئات:

الفئة الأولى : هى الأكثر عدداً – وأيضاً الأكثر تواضعاً – وبها أكثر من ١٠ آلاف من العاملين فى الأشغال الثانوية ورواتبهم ضئيلة تكاد لا تكفيهم. والعامل منهم يرتدى جلابية طويلة يحزمها من الوسط بحبل ويغطى رأسه بطاقية من اللباد، ويسكن فى نوع من الأكواخ يبلغ إيجاره الشهرى ١٠ بارات، ومتوسط الأجر اليومى يصل إلى ١٥ بارة مقابل ساعات عمل تتراوح ما بين ١٢ إلى ١٦ ساعة يومياً. ولا يستطيع أفراد هذه الفئة الزواج بأكثر من زوجة واحدة. ويمارس الفرد منهم أعمالاً بسيطة متفرقة لزيادة دخله بمقدار أربع أو خمس بارات فى كل مرة. وطعامهم يتألف من : الخبز والخضر المطبوخة والبيض ولا يأكلون اللحم أبداً. وينفقون جزءاً من راتبهم فى المقاهى لتدخين التبغ الردىء والحشيش. وترتدى نساؤهم رداءً أزرق، أما الأطفال فيرتدون أسمالاً، هذا إذا لم يتركوا عراة تماما.

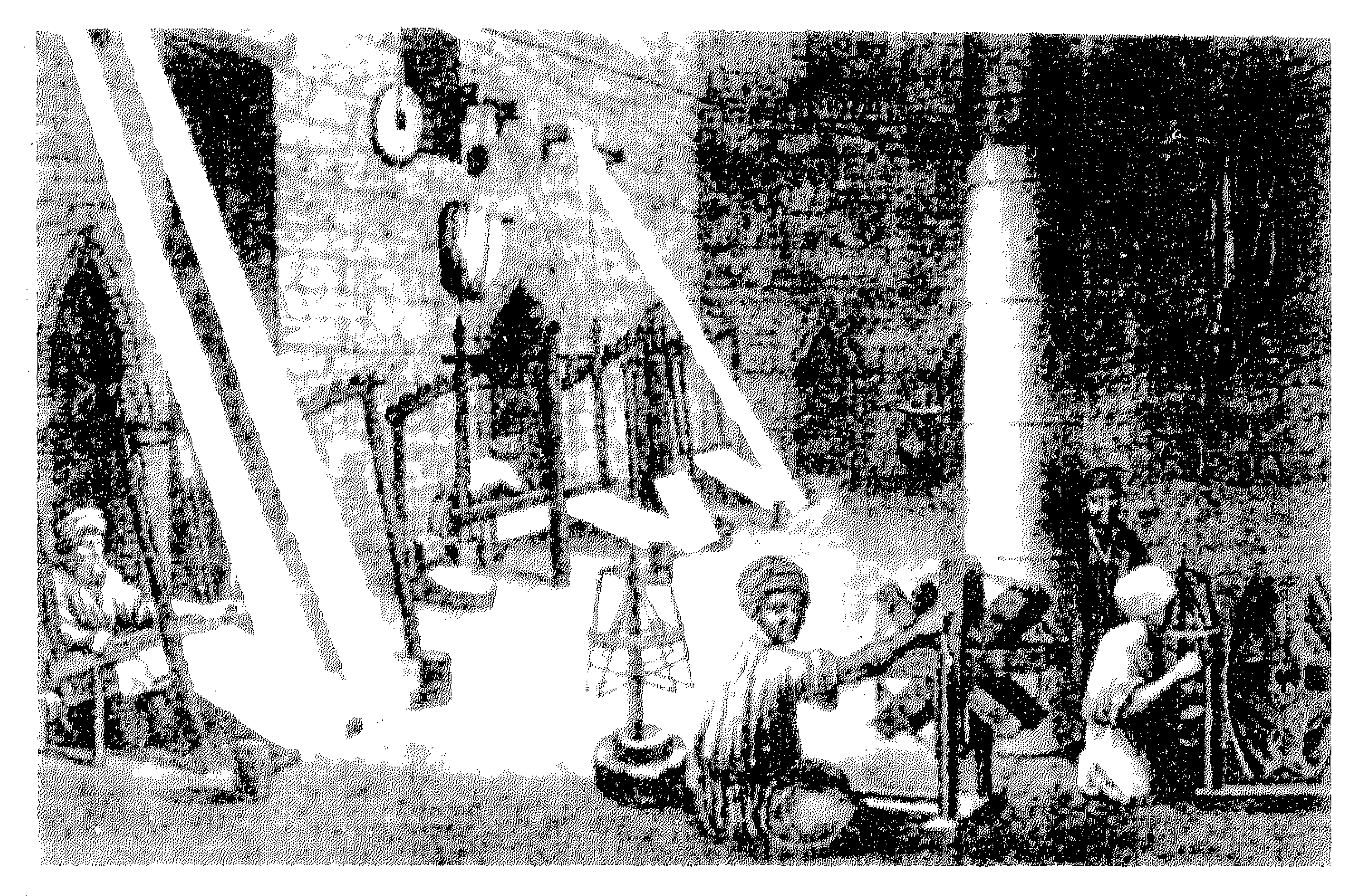
أما الفئة الثانية: فتشمل حوالى ٣ آلاف عامل باليومية، ورواتبهم لا تتجاوز رواتب عمال الفئة الأولى إلا أنهم – على العكس منهم – يحظون بمرتبة اجتماعية أفضل. وهذه الفئة تتكون أساسًا من ملاحظى العمال ، ومن المتعارف عليه أن يحصلوا على أرباح بسيطة من عمل الآخرين. ومنازلهم مؤثثة بشكل أفضل وبها بعض الرفاهية النسبية، وللواحد منهم ثلاث جلاليب كما أن نمط حياتهم يختلف قليلاً عن نمط حياة الفئة الأولى.

والفئة الثالثة: يبلغ عدد أفرادها حوالى ألفين عامل وهم فى العادة من أصحاب الورش، ومساكنهم عبارة عن بيوت منخفضة ذات طابق أو اثنين. وهذه البيوت بها طرقات تطل عليها الحجرات المؤجرة بأسعار معتدلة تصل إلى حوالى ٣٠ بارة شهريًا.

وأفراد هذه الفئة يمتلكون حصيرة، ومرتبة من القطن، وبعض الوسائد ، وحلة نحاسية (أو اثنتين)، ولديهم ملابس أكثر من أفراد الفئتين السابقتين. وبالإضافة لارتدائهم لجلابية من الصوف يجددونها، فإنهم يلفون رءوسهم بشال، وينتعلون أحذية بالية ، ويأكلون الطعام الذى تعده لهم زوجاتهم: وهذا الطعام – بالتأكيد – أكثر قليلاً فى الكمية ومتنوع عن طعام الفئتين السابقتين.

وبما أنهم عمال ماهرون فى صناعتهم أكثر من غيرهم، فإنهم يعملون بشكل دائم. وتمتلك الزوجة منهم جلابية سوداء للزينة وجلابية زرقاء – أو اثنتين – للأيام العادية. وتنشغل نساؤهم – غالبًا – بغسل وغزل الصوف مما يدر عليهم مبلغًا إضافيًا بسيطًا ولكنه ذو قيمة.

وفوق هذه الفئات، نجد المعلمين والشيوخ الذين يعيشون – عادة – عيشة رغدة ولكن بدون تفاخر أو تظاهر: فتجربتهم فى الحياة قد علمتهم أن مظاهر الثراء الخارجية تثير دائمًا غيرة وجشع المماليك فكان لابد من الحذر.



لوحة رقم (١٢) : ورشة النساجين.



لوحة رقم (١٣) : ورشة الحدادين.

وعندما يرغب شاب يافع فى تعلم حرفة ما، يبدأ أولاً كصبى عند أحد العمال المتمكنين والموثوق بهم، وعندما يكتسب درجة كافية من الخبرة ويرغب فى فتح ورشة خاصة به، يأخذه معلمه إلى "شيخ الطائفة" الذى يستقبله على أنه أُسطى. وليس مطلوبًا من الأسطى أن يقدم للشيخ نموذجًا من صنع يده(١٧)، كما كان الحال فى فرنسا قديمًا. ومع ذلك، فهناك استثناء واحد لهذه القاعدة عند النساجين: فالنساج الذى يريد فتح ورشة لحسابه كان عليه أن يقدم قطعة نسيج من صنعه لكبار معلمى طائفة النساجين الذين يفحصونها. فإذا حكموا بأن الصانع على درجة كافية من المهارة، يقبلونه عضوًا فى طائفتهم، له جميع الحقوق والامتيازات وعليه واجباتها.

وعندما يقبل "الأسطى"، يقرأ الحاضرون **"سورة الفاتحة"** ويقترب حائز اللقب الجديد من "شيخ الطائفة" الذى يعقد حزاما حول خصره، ويعلن أنه قد أصبح عضواً فى الطائفة. ولا يدفع العضو الجديد أية رسوم ولكنه - بعد بضعة أيام - يدعو شيخ الطائفة، وكبار معلميها، لوليمة فاخرة تعتبر بمثابة مجاملة وشكر لمن هم أكبر منه سنًا.

وعلى سبيل التبسيط، فإننا سنقسم الحرفيين إلى ثلاث فئات حسب ما يؤدونه من أعمال فهناك: من يطعمون الناس، ومن يكسونهم، ومن يسكنونهم ويؤثثون مساكنهم ويلبون احتياجاتهم المنزلية.

ومن الحرف التى تندرج تحت الفئة الأولى (إطعام الناس)، نجد طائفة الطحانين: ففى القاهرة، توجد طواحين كثيرة تدار كلها بواسطة الدواب. وفى أغلب الأحيان، تتكون الطاحونة من عامود خشبى تديره دابة. ويوجد أيضًا "المنسف" وهو عبارة عن سلة مفلطحة لها أذنان ينسف بها الحب. والمنسف يصنع من أوتار الخيل أو الثيران أو الحمير ويستخدمه النسافون. والدقيق الناتج عن هذه الطريقة يكون خشنًا ومنخفض الجودة، ويباع للأفراد لأنه لا توجد مخابز بل توجد أفران بسيطة(١٨) يذهب إليها

---

(١٧) (Chef d'oeuvre) فى فرنسا، أثناء القرون الوسطى، كان على "الصبى" الذى يريد الترقى ويصبح "أسطى" أن يقدم لشيخ الحرفة (أو الطائفة) عملاً من صنع يديه يثبت به مهارته فى الحرفة التى تعلمها [المترجم].

(١٨) ربما يقصد المؤلف - هنا - *"الأفران الطباقى"* التى كانت موجودة فى *الأحياء الشعبية* فى القاهرة حتى عقد الثمانينات من القرن العشرين [المترجم].

الأفراد بالعجين لإنضاج الخبز الخاص بأسرهم. وبالإضافة إلى الطواحين المذكورة سلفًا، فقد كانت أسر كثيرة تمتلك "رحاية" وطواحين صغيرة تديرها الدواب، كما كان لديها – أيضًا – فرن خاص بها لاستخدامها العائلي.

وكان "الجزار" يبيع – بالتجزئة – لحوم: الجمال والجاموس والبقر والضأن. وكانت أكارع الضأن المدخنة[١٩] وكروشها تلقى إقبالاً شديداً من الفقراء. وقامت السلطات بتخصيص أماكن المذابح على أطراف المدن لكى تحمى السكان من مضار هذه المهنة. وبالطبع فإن الحيوانات كانت تذبح حسب الشريعة الإسلامية.

ويوجد الكثير من الحرفيين يعملون فى "السرج"[٢٠] التى تعمل بنفس طريقة طواحين الحبوب، أى أنها تدار بالدواب. وتتنوع البذور التى تستخرج منها الزيوت حسب المناطق الجغرافية المختلفة: ففى الصعيد، تعصر بذور الخس والقرطم لاستخراج الزيت منها ؛ وفى مصر الوسطى، يستخرج الزيت من حبوب نبات السلجم[٢١] والكتان[٢٢]؛ أما فى الدلتا، فتعصر بذور السمسم[٢٣] والكتان. ويستخدم المصريون الزيت للغذاء والإنارة.

واستخلاص الزيوت من النباتات المختلفة يتم بالطريقة التالية: تُكبس الحبوب فى مكبس من الجرانيت حتى تتفتت، ثم توضع بين حصيرتين مصنوعتين من سعف النخيل وتكبس من جديد. والكُسب الناتج من هذه العملية تعلف به الحيوانات التى تدير الطاحونة. أما حبوب السمسم، فتعامل بشكل مختلف قليلاً: فالحبوب تغسل أولاً، ثم تحول إلى نوع

---

(١٩) لم نعرف أبداً أن المصريين استخدموا التدخين لحفظ اللحوم أو الأسماك، وبالتالى فلم نسمع بأنهم استخدموا "أكارع الضأن المدخنة" !! بل كانت الأكارع تباع نيئة أو مسلوقة فقط [المترجم] .

(٢٠) يوجد فى حى "باب الشعرية" بالقاهرة شارع "بين السيَّارج" وهو مواز لشارع "أمير الجيوش البرانى" (مرجوش) ويصل ما بين شارع المعز لدين الله و"ميدان باب الشعرية". و"السرج" أو"السيارج" جمع "سرجة" أى معصرة الزيوت [المترجم] .

(٢١) نبات "السلجم" هو "اللفت" [المترجم] .

(٢٢) زيت الكتان هو "الزيت الحار" [المترجم] .

(٢٣) زيت السمسم هو "الزيت السيرج" [المترجم] .

من العجينة، وتوضع بعد ذلك فى دن شبه كروى قطره ١٥٠ سم، ويهرسها رجل بقدميه العاريتين، فيسيل الزيت من حافة الدن ويجمع فى إناء من النحاس، ثم يسكب فى البلاليص. والعجينة التى تتبقى بعد ذلك، يستهلكها المصريون بكميات كبيرة: فهى تساعد على سمنة الأجسام(٢٤).

وفيما يتعلق بكميات وأسعار أنواع الزيوت، فقد وجدنا أن حبوب السلجم قد يصل ثمنها إلى ٣٨٠ بارة للأردب، ويستخرج منها ملء بلاصين من الزيت، بكل بلاص ٣٥ رطلاً وسعر الرطل ٥ بارات إن أردب الحبوب يعطى زيتًا ثمنه ٣٥٠ بارة(٢٥). وسعر زيت السمسم أغلى قليلاً: فأردب البذور ينتج قنطارًا من الزيت بسعر ١١ ريالا أبو طاقة للمكيال.

وصناع السكر كثيرون فى الصعيد خصوصًا فى فرشوط وأخميم، ويستهلك المصريون كميات كبيرة منه. ولاستخراج عصير القصب، يمرر الصناع العيدان بين اسطوانتين من الخشب مع الضغط عليهما، ثم يسكب العصير فى دسوت يتم تسخينها بواسطة عيدان الذرة أو قش القمح. وبعد مرور حوالى الساعة على غليان السائل لأول مرة، ينقل فى جرار حيث يظل لمدة ١٠ أو ١٢ يومًا. وبعد ذلك، يغلى مرة ثانية، ويسكب العصير فى قوالب مخروطية ويترك حتى يجف ويتصلب، ثم ينقل السكر الخام إلى القاهرة حيث يتم تكريره إلى حد ما بعناية. وسكر الدرجة الأولى أغلى فى الثمن ولكنه أكثر بياضًا من سكر الدرجتين الثانية والثالثة فلونهما يميل إلى اللون البنى وثمنهما أقل. أما الراسب – "المولاس"، فيستهلك بكميات كبيرة، ويأكله الناس كما يحل محل عسل النحل فى صناعة الحلوى.

والفدان الواحد المزروع بقصب السكر ينتج من ١٠ إلى ١٢ قنطارًا من المولاس ومن ٥ إلى ٢٠ قنطارًا من أقماع السكر ويبلغ متوسط ثمن السكر ١٢ ريالاً أبو طاقة للقنطار.

وبمناسبة الحديث عن السكر، علينا أن نذكر أن الكثير من صناع الحلوى

---

(٢٤) المؤلف يقصد هنا الحديث عن "الطحينة" [المترجم] .

(٢٥) كذا فى النص [المترجم] .

والمربيات يقطنون فى "حى السكرية" الذى ينعم بالرخاء والثراء. ويستخدم العسل الأسود فى صناعة نوع واحد فقط من الحلوى: فيخلط بدقيق الذرة والحمص الخ الخ... "فالسمسمية" هى الحلوى المغطاة بحبوب السمسم، و"الحمصية" هى الحلوى المصنوعة من دقيق الحمص وحباته، وتحتوى "اللوزية" على ثمار اللوز. وبعد أن يخلط الصانع هذه العجينة، ينضجها ثم يمطها ويعجنها ويقطعها على مربع خشبى ويرش هذه القطع بالدقيق؛ لكى لا تلتصق ببعضها.

وبعد السكر، يأتى عسل النحل بصفته أساساً لصناعة مربحة. وتوجد فى القرى خلايا للنحل متفاوتة الحجم. وهذه الخُلايا عبارة عن اسطوانات طولها ١٢سم وقطرها ٢سم، وتوضع هذه الاسطوانات بشكل أفقى. وبعد موسم زراعة البرسيم، يتم شراء إنتاج أسراب النحل التى تغذت برحيق هذا النبات. وتنتج الخلية الواحدة خمسة أرطال من عسل النحل ونصف الرطل من الشمع. وثمن المائة رطل من العسل تساوى من ٥ إلى ٨ ريال أبو طاقة، ويصل ثمن الشمع إلى ٤٠ بارة للرطل. ويحظى عسل أسيوط بشهرة كبيرة لجودته. وبالإضافة للاستهلاك المباشر للعسل فى الغذاء، فإنه يدخل فى تكوين العديد من وصفات الطهى والعلاج.

وبمصر صناعة خاصة هى صناعة الشعرية: وصانعها يمسك فى يده بكوز به عدة خروم فى أسفله. وهذا الكوز يكون مليئًا بعجينة سائلة مكونة من دقيق القمح أو الذرة والبيض والماء. ويضع الصانع صفيحة معدنية عليها مادة دهنية ويسخنها.. وبحركة دائرية يوزع هذا الخليط الذى ينساب من الثقوب على السطح الساخن فيتركه لبعض الوقت كى ينضج. وفى الوقت نفسه ، يضع صبى عيدان الذرة باستمرار لكى تظل النار مشتعلة تحت الصفيحة الساخنة. وتتولى سيدة توزيع نسب الشعرية بعد إضافة السمن والملح إليها. ويزداد الإقبال على هذا الصنف فى شهرى أبريل ومايو حينما يستهلك الناس كميات أقل من اللحوم[٢٦].

ومديرية الفيوم: هى المديرية الوحيدة فى مصر التى تنتج النبيذ. ومع ذلك، فهو لايُصنَع بشكل جيد: فبعد هرس العنب، توضع السُلافة فى قطعة قماش ثم تبرم بشدة

(٢٦) لم يحدد المؤلف لماذا يقل استهلاك اللحوم فى هذين الشهرين تحديداً [المترجم] .

فيخرج العصير منها ، ويوضع العصير فى جرار تسد بسدادة من الخشب أو الجبس. وهذا النوع من النبيذ لا يمكن حفظه إلا لبضعة أشهر فقط رغم جودة نوعية العنب. ولكن إذا زادت مدة التخمير، فإن النبيذ يتحول إلى خل.

واستهلاك المصريين للنبيذ محدود للغاية لكن استخدام الخل منتشر جداً. كما يصنع النبيذ أيضًا من الزبيب المجلوب من الجزر اليونانية وقبرص وسميرنا: فيُكبس فى مكبس يديره حصان، ثم يطرح الناتج فى دنان ويترك ليتخمر لمدة أسبوعين تقريباً فى درجة حرارة تتراوح ما بين ١٥ و١٨ درجة مئوية. ونظراً لعدم وجود ترمومتر، فإن الصانع يعتمد على غريزته لمعرفة درجة الحرارة المناسبة . ويتم توزيع كل عشرة قناطير من العنب فى جرار ارتفاعها ٧٠سم وقطرها ٥٠سم ويضاف الماء إليها. وبعد ذلك، يمرر الصانع كل المحتوى من خلال منخل ويضيف إليه العسل الأبيض ويتركه ليتخمر لفترة من الوقت. وبنفس هذه الطريقة تقريبًا، يصنع "خل البلح". و"خل العنب" يساوى ١٢ مديناً للبنتة(٢٧). ولكن خل البلح أقل فى الجودة، فيباع بسعر لا يجاوز ٨ و١٠ مدينيا للبنتة.

والخمر المستخرجة من البلح والعنب تنتج بطريقة بدائية للغاية ثم تُعَطَّر بالأنيسون المزروع محليًا. وهذه الخمر لا يستهلكها سوى المسيحيين المصريين والشوام؛ أما الأوربيون، فيستهلكون كمية بسيطة منها. و"البوسطة" الواحدة تساوى ٩٣١,٠ من الليتر وتباع بسعر يتراوح ما بين٩٠ و١٠٠ مدينيات. ومن المفيد هنا أن نذكر بأنه يوجد ١٢ مصنعًا لتقطير هذه الخمور فى القاهرة وحدها، وأشهرها موجود فى وكالة سليمان جاويش وبه ١١ إنبيقا لتقطير الخمور. ولا يتم تنظيف هذه الأماكن من بقايا هذه الصناعة، ولذلك تنبعث منها رائحة عفونة بشعة.

إن صيد الطيور والسمك يعتبر مُكملاً غذائيًا مهمًا للمصريين. ويمتاز النيل بكثرة أسماكه وتنوعها، إلا أن المصايد توجد على ضفاف بحيرتى البرلس والمنزلة، وبالقرب

---

(٢٧) "البنتة" (La pinte) مكيال للسوائل يسع ٥٦٨,٠ من الليتر [المترجم] .

من هاتين البحيرتين، توجد قريتان[٢٨] بهما ٣٠٠ مركب صيد يمتلك السكان نصفها.

وسكان القريتين متخصصون فى صيد سمك "البورى" ويصنعون من بيضه البطارخ التى يفضلها كل سكان حوض البحر المتوسط. أما السمك نفسه، فيرسل ليباع طازجًا فى المنصورة وأرجائها. وفى دمياط، يتم تمليحه وحفظه ثم يرسل ليباع فى القاهرة وسوريا وموانئ بلاد الشام. ويستهلك المسيحيون الشرقيون كميات كبيرة منه خصوصًا فى فترات الصيام المفروضة عليهم.

وينتشر صيد البط البرى على طول البحيرات الشمالية، ويتم بطريقة غريبة: فيضع أحد الفلاحين كومة من القش فوق رأسه ويربطها من أعلى فتأخذ شكل القبعة الصينية، وغطاء الرأس يسمح للصياد بالرؤية. ويحمل الصياد معه حقيبة ويغوص فى الماء حتى عنقه الذى يربط فيه بضع بطات منزلية بخيوط للإيقاع بالطيور البرية. وعندما تحط الطيور البرية لتسبح حول البط المستأنس بلا خوف، يقبض الصياد عليها من قدمها بأقل قدر ممكن من الحركة، ويضعها فى الحقيبة بدون أن يخيف باقى الطيور الأخرى. وهذه السهولة فى صيد البط البرى جعلته رخيص الثمن جدًا فى أسواق دمياط. ويتم تمليح البط البرى بكميات هائلة ويرسل لكل أسواق مصر حيث يباع بسعر زهيد.

وفى نهاية هذه الفقرة الخاصة ببعض الحرف المتصلة بغذاء السكان، لابد لنا من ذكر مكان تحميص حبوب البن، أى "المحمصة". وتجلب حبوب البن من "ينبع" و"جدة" على ظهر السفن التركية، ويتم تفريغ الشحنات فى مينائى "القصير" و"السويس"، ثم تنقل إلى قنا والقاهرة، ويتم تحميص حبوب البن على صفيحة عريضة من النحاس مثبتة فوق فرن يسخن بالنار المباشرة الناتجة عن حرق البوص. وأثناء التحميص، يحرك أحد العمال حبوب البن بأداة تشبه المكنسة المصنوعة من خوص النخيل. وبعد ذلك تطحن الحبوب فى الهاون. وسنتحدث فيما بعد عن مهنة طحانى البن.

---

(٢٨) هما قريتا "تَبَروُه" وبُورَة" [المترجم] .

وبعد الصناعات الغذائية، سنتحدث عن الفئة الثانية أى الصناعات التى تكسو السكان. وقبل غزل القطن أو الصوف، يجب أن يقوم المنجد بندف القطن أو الصوف لإعداده للغزل، ويكون ذلك باستخدام قوس مشدود يحركه المنجد بواسطة مضرب، وهذا ما يجعل ندف الألياف النسيجية تتجزأ. ويذهب المنجدون إلى المنازل - أيضاً - لندف قطن المراتب والوسادات التى لا تندف عادة. ويسكن المنجدون فى "سكة" و"ميدان القطن"(٢٩).

أما النسج: فيتم فى الورش حيث توجد أنوال النسيج التى تشبه تماما الأنوال التى كانت تستخدم قديماً فى ريف فرنسا. وينسج النساجون "الملايات" (وهى ملابس واسعة تلتف بها النساء)، وأقمشة الصوف ذات اللون البنى أو الأسود (البشت)، وبعض "البشوت" التى تزين بخيوط صفراء ("العباية") أو تلك التى يكون قماشها ثخيناً ("الزعبوط")، كما ينسجون معاطف من الصوف الأبيض ("البُرْنُس") وهى أقل جودة من تلك المنسوجة فى بلاد المغرب. ويعمل الكثير من الرجال والنساء فى صناعة الغزل والنسيج .

ويشتهر نساجو الصعيد - من جرجا إلى أسوان - بنسج الأقمشة القطنية؛ أما فى الفيوم والوجه البحرى، فيعملون فى نسج الأقمشة الكتانية؛ لكن القاهرة والمحلة ودمياط - وبعض المدن الأخرى - تخصصت فى نسج الأقمشة الحريرية. والأقمشة السميكة المصنوعة من الصوف - التى يرتديها الفلاحون - فهى تنسج فى القرى نفسها، والشىء نفسه نجده بالنسبة للأقمشة التى تصنع منها خيام البدو الرحل.

كما ينسجون من الحرير أقمشة فاتحة اللون تسمى "الكريشة" وتتعدد درجات جودتها وتستخدم للعمائم. وبصفة عامة، ينسج الشال من أجود أنواع خيوط الحرير المجلوبة من سوريا.

وتوجد بمصر أيضاً صناعة الجوخ: فيقوم العمال بنقع الصوف فى الصابون الأخضر، وهو مادة مذيبة، ثم يلبدونه بطيه وفرده بأرجلهم فى حركة منتظمة ومتوالية.

---

(٢٩) بالقرب من "ميدان باب الشعرية [المترجم] .

واللباد الأكثر سمكًا يستخدم لصنع سروج الخيل؛ أما الأنواع الأدق، فتصنع منها الطرابيش الحمراء والطواقى البيضاء (اللبدة).

ولصناعة الطرابيش، ترش قطعة من اللباد بماء به صمغ خفيف وتوضع على قالب خشبى، ثم تضغط باليد حتى تأخذ شكل القالب. وبعد ذلك، يرش عليها ماء مذاب فيه صابون لتسهيل عملية الكبس. وثمن الطربوش الواحد يساوى ٣٠ مدينيًا تقريبًا. وفى القاهرة، يشتهر حيان بهذه الصناعة هما: "اللبودية" و"الحمزاوى".

وتشغل المصابغ حيًا بأكمله من أحياء القاهرة. ويستخدم الصباغون نبات "النيلة" لصبغ الأقمشة والملابس باللون الأزرق. وتُزرع النيلة فى مصر وتجلب من الريف على هيئة أقماع؛ ويحصلون على اللون الأصفر من "البليحاء" (وهو نبات عشبى أصفر)؛ واللون الأحمر يحصلون عليه من نبات القرطم ومن حشرة القرمزية. ويُزرع نبات القرطم فى مصر وسوقه رائج لأنه يستخدم فى إنتاج مختلف درجات اللون الأحمر. وإذا خلط ببودرة "التلك"، تصنع منه مصانع أوروبا بودرة لزينة السيدات. وتجهل مصابغ أوروبا كيفية استخدام القرطم لصبغ الملابس والأقمشة القطنية بشكل جيد ولكن - فى هذا المجال - يتقن الصباغون المصريون عملهم بشكل أفضل. ويستخرج اللون الأحمر المائل إلى البنى من نوع من الخشب يسمى "البقنس" وهو مستخدم لصباغة الأقمشة الحريرية والشعر على حد سواء. وأخيرًا، يحصل الصباغون على اللون الأسود من ثمرة الرمان.

و"**المصبغة السلطانية**" هى أكبر مصابغ القاهرة ويعمل بها من ٣٠ إلى ٤٠ عاملاً يصبغون الأقمشة بجميع الألوان. وبالقاهرة - أيضًا - أربعة مصانع تنقش الألوان على الأقمشة ("دولاب البصمجية") ولكن رسومها وألوانها المطبوعة غير متقنة: فالعامل ينقع اللوح فى إناء ويلبس فى يده قفازًا من الجلد ويضرب بقوة القماش المراد طباعته. وهذا القماش يكون عادة قماش الموسلين المجلوب من مكة.

ويمارس الطرزية حرفتهم منذ قديم الزمان: فهم يُطرزون أغطية السرير والأقمشة الحريرية – لعمل الوسائد – وفرش الأرائك. كما يطرزون قماش الموسلين لعمل الأحزمة والمناديل التى تقدم كهدايا.

و"القبورجية" هم العمال الذين يطرزون الجلود والسختيان والقطيفة باستخدام خيوط الذهب أو الفضة. وفئة عمال "القبورجية" تعتبر أمهر العمال فى القاهرة.

و"المزركشون"[٣٠] يتركزون فى حى "العقادين" وهم أقباط فى الغالب ويصنعون شراريب (جمع شُرّابة) صغيرة من خيوط الذهب أو الفضة، وشرائط أعنة الخيل والأزرار واللآلىء الاصطناعية على شكل الزيتونة، والستائر، وحمالات السيوف وكل هذه المنتجات غالية الثمن ويتراوح ثمنها من ٨ إلى ١٠ بارات للدرهم الواحد ويزركشون أيضًا الأقمشة القطنية والصوفية ولكن بسعر أقل.

ويتراوح عدد "الدباغين" من ٢٠٠ إلى ٣٠٠ دباغ يسكنون حيًا خاصًا بهم – هو حى "المدابغ" – ويجهزون الجلود بطرق بدائية للغاية ورثوها بالتأكيد عن صناعة موغلة فى القدم: فهم يبدأون بغسل الجلود بكميات كبيرة من المياه المضاف إليها الجير. وبعد ذلك يجعلونها صلبة باستخدام ثمار "العفص"[٣١]. والشبة والملح ويجعلونها تلين بالدعك. والدباغون متخصصون فى إنتاج جلد السختيان ذى الألوان الحمراء والصفراء والخضراء والسوداء، كما ينتجون الرق للكتابة عليه. ويباع الجلد حسب لونه: من ٦٠ مدينيا ويصل حتى ١٠ ريالات أبو طاقة.

وبالقرب من الدباغين، يوجد "الصرماتية" المتخصصون فى صناعة "البُلُغ" (جمع بُلغة) التى يحتذيها سكان البلاد. وبجوارهم يوجد "السروجية" وهم صناع سروج الخيل وبراذع الحمير ورواحل الجمال. وفى نفس الحى، يوجد "القربية" "صناع" القرب "الجلدية التى تستخدم لنقل المياه أو السمن أو الزيت أو العسل. إن كل الحرف المرتبطة بالجلد توجد فى حى واحد، هو حى "المناخلية".

---

(٣٠) "المزركشون" يطلق عليهم أيضًا اسم "الزراكشية" أو"القياطين" وهم الذين يزركشون بخيوط حريرية – أو معدنية – أطراف الثوب أو الأقمشة المختلفة [المترجم].

(٣١) العفص" مادة تؤخذ من لحاء شجرة البلوط أو ثمرة العفص [المترجم].

وتخصص "الخياطون" فى صنع نوع من الأردية الشعبية اسمه "توب القميص" وهو قميص طوله ذراعان مفرودان وعرضه يبلغ نصف طوله. وهذا الرداء مفتوح تماماً من الأمام وينزل حتى الركبة ، والحزام الملفوف حول الخصر يجعله مقفولاً.

و"الفراءون" هم الذين يزينون ملابس الأعيان بالفرو وخدماتهم تقتصر على علية القوم - فقط - فهم الذين يزينون ملابس الاحتفالات بالفرو.

ونصل الآن إلى الفئة الثالثة من الحرفيين، وهم كل الحرفيين الذين يشتغلون بكل ما له صلة بالمنازل والأثاث وبرفاهية الإنسان بشكل عام.

وسندرس - أولاً - "المعماريين": وعندما نقول "معماريين" فإن الأمر يتعلق بمجرد بنائين يعملون بدون مخطط أو تصميم للمبنى المراد بناؤه، ومقاييسهم غير متقنة. وبالطبع ، فإن النتائج تكون غير مرضية؛ نظراً لتعدد أخطاء التنفيذ: فالأرضيات غير مستوية والزوايا غير دقيقة. وهم يلوحون الأسقف بشرائح خشبية رقيقة ثم يغطونها بالجبس. وهذه الطريقة تناسب مناخ مصر نظراً للمرونة التى تتميز بها هذه الشرائح. ويتم تنفيذ القباب بطريقة مماثلة وتتميز بأنها تبقى زمناً طويلاً حتى ولو كانت ذات مساحات كبيرة.

ويستخدم عمال البناء الآجر والحجر الجيرى الذى يأخذونه من محاجر "طره" و"المقطم" و... الآثار القديمة.

وتوجد أربع قمائن لحرق الجير فى "باب النصر" كما توجد اثنتان بالقرب من القاهرة. ويستخدم روث الحيوانات - "الجلة" - والبوص فى عملية الحرق. ويتراوح سعر قنطار الجير من ٣٠ إلى ٤٠ بارة. وأفضل أنواع الجير هو "الجير السلطانى" الذى يساوى ٢٥ بارة للقفة الواحدة.

كما توجد عدة قمائن للجبس فى العاصمة خصوصاً فى "حى الجباسة". والجبس المجلوب من "بياض" - بالقرب من "بنى سويف" - يتميز بلونه الأحمر. ويوجد نوع آخر من الجبس يجلب من "علوان" من سلسلة جبال الصحراء الشرقية ويتميز بلونه الأبيض الناصع. ويوضع الجبس فى فرن لمدة ثلاث ساعات ثم يخرجونه ويتركونه ليبرد لمدة يوم

كامل. وبعد ذلك، يطحنونه فى طاحونة للجبس فيتحول إلى مسحوق، أما فى فرنسا فيسحقونه يدويًا.

والطوب المستخدم فى المبانى يكون إما محروقًا – وهو الآجر– وإما نيئًا (وهو الطوب اللبن أو النيئ). وفى هذه الحالة، يكون مخلوطًا بكمية من التبن والصلصال. وتتسع أفران حرق الآجُر لحرق أربعة آلاف طوبة بالإضافة إلى ١٢ أو ١٥ جرة كبيرة ويحرق الكل فى وقت واحد، ويستخدم البناءون الملاط المكون من الجير والطين الأسمر.

ويتجمع "الحدادون" فى حى النحاسين ويستخدمون نوى البلح فقط لإيقاد أفرانهم، وهم ماهرون فى صناعة المسامير والأدوات البسيطة والأشياء التى يستخدمها الناس فى الحياة اليومية، وبعضهم ماهرون فى صنع الحديد المشغول. ويحتكر الأتراك صناعة القدور النحاسية ويستخدمون نفس الأدوات التى يستخدمها نظراؤهم فى فرنسا إلا أن المنتج المصرى غير متقن.

وبالإضافة إلى صناعة أدوات المطبخ والفوانيس وأباريق المياه وكنكات القهوة، يصنع هؤلاء الحرفيون الصوانى النحاسية والطسوت والدست والمراجل. وعند صناعة القطع النحاسية الكبيرة، يشترك ٣ أو ٤ عمال فى صناعتها بسرعة ودقة وهم يترنمون بعبارات منغمة. ويستخدمون القصدير لتبييض النحاس: فيبدأون بتنظيف القطعة النحاسية، ثم يجلونها بالرمل أو حجر المسن، ثم يوضع القصدير كما يحدث فى أوروبا.

ودور ضرب النقود – البارة والمدينى – تلفت النظر: فالمصريون يعرفون الاسطوانات، ويستخدمونها فى عصر قصب السكر إلا أنهم لم يستخدموا هذه الأداة – ذات النصل المعدنى – لصناعة قطع النقد بل إنهم يستخدمون المطرقة لتقليل سمك القطعة المعدنية إلى الحد المطلوب. فهل نستطيع القول بأن فن صناعة السكر أحدث من صناعة ضرب النقود التى لم تتطور ؟

وتوجد فئة من الحدادين تعمل فى صناعة الأدوات الحديدية مثل: المنجل والمقص الضخم (لجز وبر الجمال وشعر الحمير) والبلطة والقدوم. ويصنعون أيضًا بعضًا من أدوات النجارين وصناع الأخشاب لمختلف الأغراض الأخرى.

إن صناع القدور النحاسية والحدادين والخراطين – وتقريباً كل العمال فى مصر – يحملون أدواتهم على ظهر حمار أو جمل وينتقلون إلى مكان الشخص الذى يحتاج إلى خدماتهم.

وأغلب صياغ مصر هم من الأقباط أو اليهود ويصيغون معدنى الذهب والفضة مستخدمين أدوات بدائية. ولا يوجد لديهم أى ذوق فى تنفيذ المشغولات الذهبية أو الفضية. وفى الواقع، فإن الزبائن الشرقيين يهتمون أساساً بكمية المعدن الثمين فى الحلية أكثر من اهتمامهم بجمال الحلية نفسها.

و"الماوردية" هم صناع ماء الورد، وهم كثيرون خصوصاً فى مديرية الفيوم ويستخدمون نوعاً من الأنابيق البدائية مصنوعاً من النحاس. ويخلط الماوردى ٥٠ رطلاً من بتلات الورد مع ٤٠ رطلاً من الماء، وينتج من تقطير هذا الخليط ٢٥ رطلاً من ماء الورد. ويطلب البكوات طلبيات أكثر تركيزاً: فقنطار بتلات الورد يعطى كمية صغيرة من خلاصة ماء الورد يضاف عليها قنطار آخر من الزهور فيتم الحصول على "ماء ورد مركز". وإذا أضيفت كمية أخرى من الورد، فسنحصل على منتج أكثر تركيزاً.

والمائة رطل من بتلات الورد تساوى ما بين ٦ و ٧ ريالات أبو طاقة ، والفدان المزروع ورداً ينتج ٨ قناطير من الزهر. وخلاصة ماء الورد تلقى رواجاً كبيراً وتباع فى كل أرجاء مصر وحتى فى سوريا.

وصانع الحصير (الحُصَرى) ينتج الحصير الذى لا يمكن الاستغناء عنه فى مصر. وأبسط أنواعه تصنع من نبات الحلفاء[٣٢] الذى ينمو فى الأرض البور أو من سعيفات النخيل. وأفضل أنواع الحلفاء لصناعة الحصير ينمو حول بحيرة قارون – فى مديرية الفيوم – وفى وادى النطرون ومنوف. وتعتبر صناعة الحصير صناعة موسمية.

ويستخدم الحُصَرى نوعاً كبيراً من أنوال النسيج تشد عليه خيوط اللُحْمَة، ويمرر الحصرى من خلالها أعواد الحلفاء. وإذا كان مطلوب تنفيذ حصيرة كبيرة، فالأمر

---

(٣٢) وتصنع الحُصر أيضاً من نبات "السمار" [المترجم] .

سيتطلب ٤ عمال يعملون فى مواجهة بعضهم. وبهذه الطريقة يستطيعون صناعة حصيرة قد تصل أبعادها إلى ٤ × ٤ أمتار فى اليوم الواحد. وإذا كان الحصرى على قدر من المهارة، فإنه يستطيع إدخال أشكال وألوان مختلفة - على الحصيرة - مستخدمًا أعواد الحلفاء المصبوغة.

وسعر الحصيرة مقاس ٣ × ١,٥ متر قد يصل إلى ٩٠ بارة. وفى القاهرة يباع الحصير فى حى "الحُصَرية"، خصوصًا الحصير المجلوب من الفيوم. والحصير المودع فى بولاق يصدر إلى إسطنبول وسميرنا وأرخبيل الجزر اليونانية وعكا والقدس. وهذا دليل على جودته.

وبالإضافة إلى البلح ، فإن النخلة تعطى "للحبالين" الليف الذى يفتلونه ويصنعون منه حبالاً خشنة "السلبة"، كما أن سُباطة البلح - المنقوعة فى الماء - تعطيهم أليافًا أقل خشونة. ويستخدم الجريد فى صنع أعواد الرماح والأقفاص. ويصنع الحصير من السعف، وكذلك القفف التى تستخدم فى نقل الحبوب أو التراب. أما جذع النخلة فيستخدم فى صناعة الكمر والوقود.

والحرف المتصلة بالخشب تسمى حرفة "النشارة". ويستخدم "النشار": القدوم والمنشار. ويقطع كل أنواع الخشب والكمر والبراطيم وينشرها على شكل ألواح ويثبتها بالمسمار. ومن النادر استخدام الوتد أو التعشيق. وأغلب أنواع الخشب المستخدم تؤخذ من أشجار النبق واللبخ التى تنشر جذوعها بالطول.

ويباع الخشب بـ "الحملة" (أى ١٥٠ رطلاً) وثمنها يبلغ ١٥٠ بارة. أما الخشب الذى يباع على هيئة ألواح منشورة، فيتراوح سعره ما بين ٢٠٠ و٢٢٠ بارة "للحملة".

ويمارس "النجار" عمله وهو راكع أو جالس. ويستخدم الفارة والقدوم والمنحت لتقويم الألواح. ونجارو مصر لا يعرفون "المسحاج"[٣٣].

وتوجد فى مصر صناعة غريبة هى صناعة "الضُبَبَ" وهى الأقفال الخشبية. ويصنع الحرفيون الضبب الجديدة ويصلحون القديمة، ويضبطون ما يحتاج منها إلى

(٣٣) المسحاج" عبارة عن "فارة" كبيرة تستخدم لتقشير لحاء لخشب [المترجم] .

ضبط. والضبة تصنع من الخشب ولا تفتح إلا بمفتاحها الخشبى المسنن الخاص بها فقط. وإذا فقد هذا المفتاح، فلابد من نزع الضبة بالكماشة من الباب وإعطائها للضُبَبِيَّ وصنع مفتاح جديد. ولا توجد فى القاهرة وسيلة محكمة أخرى لإغلاق أبواب المنازل والدكاكين والدواليب سوى استخدام الضبة(٣٤).

ويوجد أيضًا "خراط الخشب" الذى يمارس حرفته وهو جالس على الأرض أمام مخرطة – موضوعة على الأرض بشكل أفقى – وهو يمسك بأصابع قدمه إزميلاً وبيده اليمنى يحرك قطعة الخشب المراد خرطها بواسطة قوس صغير. وينتج "الخراط" قطع الخشب، الخرط الصغيرة التى تصنع منها المشربية.

وهناك أيضًا صناعة "الشُبُك" وهى الغلايين الشرقية. ويصنع "الشُبُكْجى"(٣٥) أداة التدخين هذه بطريقتين، *الطريقة الأولى*: يصنع العامل جزئى الشبك : المدخنة (أو الفرن) و"القصبة" أو ("الجسم") بالكامل فى قالب من الصلصال، ثم يجمع الجزئين قبل أن يجفا. وفى هذه المرحلة، ينقش الزخارف على الشبك. ولثقب الأنبوب (أو القصبة)، يستخدم الحرفى آلة يدوية مزودة بمثقب. وبعد ذلك، يزين الشبك ببذخ: بالحرير والشراريب والأحجار شبة الكريمة، وأحيانًا يكون المبسم من العنبر.

وفى *الطريقة الثانية*، يصنع الشبكجى قصبة الشبك من خشب شجرة الجوز (أو الياسمين أو الكرز أو الليلك). ويتراوح طول الشبك من متر إلى ١٩٠سم. ويبلغ ثمنه من ٦٠ إلى ١٠٠ ريال أبو طاقة وهو ثمن غال جداً. ويثقب الشبكجى الخشب باستخدام قوس صغير ومثقب. ثم يزين الشبك بالحرير، وتزين قاعدته بخيوط الفضة والحرير. ويصنع الشبك – عادة – من قطعتين لكى يسهل فَكُّه. وعند التدخين، يربط الجزءان بمفك.

ويوجد أيضًا صانع "السبَح" والعقود والأزرار الذى يستخدم المرجان فى صناعته، ولكنه يستخدم أيضًا العنبر الحقيقى أو الاصطناعى.

---

(٣٤) يوجد فى القاهرة شارع "الضببية" فى حى الجمالية. وهو يصل ما بين "شارع المعز لدين الله" (من جهة "سوق الليمون") و"شارع الجمالية وهو شبه امتداد لشارع أمير الجيوش البرانى" ("مرجوش") [المترجم] .

(٣٥) الشُبُكشى" هو نفسه "الشُبُكْجى" [المترجم] .

ويحتكر الأقباط صناعة الشمع الذى يستهلك المصريون كميات كبيرة منه. وبما أن أعياد مصر كثيرة، فإن "الشماعين" لا يشكون أبدًا من البطالة. ومما هو جدير بالذكر أن المصريين يستخدمون المصابيح الزيتية فى حياتهم اليومية بشكل أساسى.

وتستوعب صناعة الفخار أيدى عاملة كثيرة. ويعمل "الفخرانى" على عجلة (أو دولاب) مائلة يديرها برجليه. وميل الدولاب يعوض وزن العجلة التى تجعله يهبط باستمرار.

وفى ضواحى أسوان، يصنع العرب أوانى من حجر سهل النحت ويبيعونها فى الأسواق المحلية. وهناك من يسحقون هذا الحجر ويخلطونه بنوع من الصلصال ويصنعون منه أوانى رقيقة.

وتقع مدينة قنا على حافة الصحراء ويوجد بها نوع من الصلصال الأبيض. ويخلط هذا الصلصال مع ثلث كميته من الرماد، وتصنع من الخليط أوان تحرق فى الأفران(٣٦) وتباع فى المدن بسعر يتراوح ما بين بارتين وثلاثة. وفى منلوى ومنفلوط، تصنع أوان فخارية تباع خصيصًا لصناع النيلة والدباغين والصباغين الخ... وتصنع قنا - أيضًا - البلاليص وقواديس السواقى.

وفى القاهرة، يصنعون نوعًا من الخزف - غير متقن الصنع - مخصص لعمل برطمانات المربى وفناجين القهوة اللامعة والبلاط المسمى "بالقيشانى". وفى منوف - فى الدلتا - يصنعون فخارًا مطليًا بطلاء أزرق مكون من النطرون وأكسيد النحاس وكلورات الصودا.

ولا يعرف حرفيو مصر صناعة الزجاج بل إنهم يصهرون كَسْر الزجاج المستورد من فينيسيا. وتوجد أربع ورش للزجاج فى القاهرة: اثنتان فى حى "الحسينية" واثنتان فى "الفوالة". كما توجد ورشة للزجاج فى الجيزة والورشة الأخيرة توجد فى المنصورة. ويصنع الحرفيون زجاجًا مسطحًا لإنارة القباب والحمامات، والزجاجات، وكريات زجاجية، وأنابيق، وهاونات ومدقات تستخدم فى صناعة الجلود، ومصابيح زيتية. أما باقى المصنوعات الزجاجية، فتستورد من فينيسيا: النجف والألواح الزجاجية والمرايا

(٣٦) يقصد المؤلف "القلل" القناوى والبلاليص والطواجن وغيرها من المنتجات الفخارية [المترجم].

الخ الخ... لقد انحطت صناعة الزجاج فى مصر بسبب عدم وجود وقود كاف، وبسبب الضرائب الظالمة التى أحبطت صناع الزجاج حسبما ذكر أحد أعضاء "لجنة العلوم والفنون".

ويرتبط صناع ملح النوشادر ارتباطًا وثيقًا ومباشراً بصناع الزجاج. ويستخرج هؤلاء الصناع ملح النوشادر عن طريق حرق أكوام السباخ الجافة التى تكونت من فضلات الحيوانات. وهذه الصناعة منتشرة فى دميرة، فى الغربية، حيث يوجد بها ستة معامل لصناعته، وفى دمياط ودمنهور وبولاق وغيرها. وهذا الملح يصنع فى كريات زجاجية مشتراة من صناع الزجاج؛ وفيما مضى، كانت مصر هى التى تزود أوروبا بملح النوشادر.

أما ملح الطعام، فيُجمع من على ساحل البحر المتوسط فى الإسكندرية ، وضفاف بحيرة المنزلة ، والسويس ، وضفاف بحيرة قارون. كما يوجد الملح الصخرى على عمق بسيط فى الصحراء الغربية. وتصدر مصر كميات كبيرة من ملح الطعام لشبه الجزيرة العربية ولداخل أفريقيا.

وفيما يتعلق بملح البارود، اللازم لصناعة البارود، فإنه يستخرج من الكيمان التى تشرف على كل مدن وقرى مصر. وحسبما ذكر الجنرال **أندريوسى (Andreossy)**، فإنه توجد مصانع لملح البارود فى "الدهاشمة" - بالقرب من قنا - وفى حى مصر القديمة. ومعروف أن نوعية البارود المخصص لبعض الصناع الأجانب - المستقرين فى مصر - ليست جيدة لأنها تحتوى على كمية كبيرة من الفحم.

ويستخرج سنان السكاكين حجر المسن من عرق من الحجر الرملى موجود فى منطقة البساتين بالقرب من القاهرة، ويستخدم إسفين من المعدن يغرزه فى الأرض فيفصل الكتلة المراد استخراجها. ولذلك نجد أن رحى حجر المسن تتكون من قطعتين أو ثلاث قطع، ونتيجة الاستخدام غير مرضية تماما. ويدير السنان العجلة بقدمه اليمنى ويسن السكاكين والسيوف والخناجر ؛ أما الأشياء الأصغر، فيستخدم لها حجر مسن مجلوب من بلاد اليونان، تحديداً من مدينة سترانخيو فى جزيرة كوس.

ويسن الحلاق أمواسه على سير من الجلد المدهون بالزيت. وهو يحلق شعر رأس الزبائن، ويشذب اللحية، ويقلم الأظافر بالموسى وبطريقة فى غاية المهارة. ومثل باقى حلاقى العالم، فإن الحلاق المصرى يمارس بعضاً من مهنتى الطب والجراحة. ولديه فى دكانه حوض وعجينة لنزع شعر الجسم مكونة من: الجير الحى والزرنيخ الأحمر وأكسيد الزرنيخ. وجميع من فى مصر يطلقون لحاهم ولا يحلقها سوى: المماليك والأروام والفرنجة.

ومعارف "البستانجية" (أو "الجناينية") محدودة للغاية. ونظراً لأن مناخ مصر يتصف بالجفاف، يقوم البستانى برى الحدائق (أو الجناين) بطريقة الغمر، ويقسم الأرض إلى أحواض صغيرة يعزقها بالفأس، ويزرع فيها الفاكهة التى يعرف القليل عن تطعيمها. وتنتج الجناين الخضراوات والأعشاب التى تستخدم فى تتبيل الطعام خصوصاً الريحان.

وتوجد فى مصر حرفة شديدة الأهمية هى **"معمل الفروج"** وهو عبارة عن فرن لتفريخ فراريج الدجاج. وهذه المعامل يوجد اغلبها فى الصعيد والقليل منها يوجد فى الدلتا. ويكاد الأقباط يحتكرون ممارسة هذه الحرفة خصوصاً بالقرب من منفلوط. وكادت هذه المهنة تندثر قبيل مجىء الحملة الفرنسية إلى مصر، فتفرق العاملون بها فى شتى أرجاء الصعيد: فى جرجا وفرشوط وبهجورة وخصوصاً فى إسنا.

ويتكون "فرن" أو "معمل الفروج" من ممر طويل به حجيرات ضيقة ذات مستويين – بالضبط مثل الأفران الموجودة فى فرنسا – وهى مبنية من الطوب اللبن أو الآجر. والحجيرة الموجودة فى المستوى الأسفل تتصل بالعلوية بواسطة فتحة موجودة فى المنتصف؛ والحجيرة العلوية مضاءة بواسطة فتحة مماثلة فى أعلاها ولكنها أصغر من الفتحة الأولى. وفتحة كل فرن موجهة نحو الممر.

وهذه الفتحات ضيقة جداً وتسمح بالكاد بمرور رجل، وهذا ما جعل بعض الناس يصدقون خرافة "الرجل الذى يبيض" !! وتستخدم الجلة كوقود لهذه الأفران التى يجب أن تحتفظ بدرجة حرارة تبلغ ٤٠ درجة مئوية فقط بداخلها. وبما أن هؤلاء الحرفيين

يجهلون استخدام الترمومتر، فإنهم يعتمدون فقط على خبرتهم الشخصية للاحتفاظ بحرارة الأفران فى هذه الدرجة.

ويسع كل "فرن" أو "معمل" عدداً يتراوح ما بين ٣ إلى ٤ آلاف بيضة فى المرة الواحدة . وقبل وضع البيض فى الفرن، يجب فحصه واستبعاد البيض الفاسد أو غير المخصب، ثم يغلق الفرن على البيض الصالح للتفريخ لمدة تتراوح ما بين ١٠ إلى ١٢ يوماً مع الاحتفاظ بنفس درجة الحرارة. وفى نهاية هذه الفترة، يفتح الفرن . وبعد ٢٠ يوماً، يفقس البيض وتخرج الفراريج. ويوجد عدد قليل من البيض الذى لا يفقس.

وفى اليوم الثالث للفقس، تباع الفراريج لمربى الدواجن المتخصصين أو تعطى لأصحاب البيض: فيأخذ كل فلاح ٥٠ فروجًا عن كل مائة بيضة. ويحتفظ صاحب "المعمل" بالباقى لنفسه وهناك بالطبع طرق أخرى للمحاسبة. وثمن المائة فروج يبلغ حوالى ٤٠ مدينيا (أى ٣ فرنكات فرنسية).

وبما أن مصر يوجد بها ٢٠٠ معمل وبكل معمل ١٠ أفران فى المتوسط، ومعدل الفقس يصل سنوياً إلى حوالى ٤ فقسات، فإن عدد الفراريج المنتجة بهذه الطريقة يصل إلى ٢٤ مليون فروج. ولكن لابد أن نَذكُر أن نوعية الإنتاج ليست على مستوى كميته...

وفى نهاية هذا العرض المختصر للحرف والحرفيين فى مصر، فإننا نطرح ثلاث ملاحظات حول هذا الموضوع. **الملحوظة الأولى** : خاصة بالعمال: ففى أغلب الأحوال، نجد العمال يمارسون أعمالهم وهم جالسين، غالبًا على الأرض، ويستخدمون أقدامهم كثيراً لأداء العمل (على عكس نظرائهم فى أوروبا).

والملحوظة الثانية: خاصة بشيوخ طوائف الحرف: أن كل محاولة لرفع مستوى أداء الحرفة تبوء بالفشل بسبب تسلط شيوخ الحرفيين على أعضاء الطوائف، ونزوعهم إلى بقاء الوضع على ما هو عليه، ومحاربة التجديد بضيق أفق شديد.

والملحوظة الثالثة: ناتجة عن الملحوظة الثانية: فصناعة النجارة والمعادن وغيرها

لاتزال بدائية. ففى القاهرة، نجد بالكاد ساعاتى واحد يتقن إصلاح الساعات، وهو أوروبى !! أما الصياغ، فهم أقل مهارة من نظرائهم فى سميرنا أو حلب لدرجة أنهم لا يعرفون تركيب فص الحجر الكريم على الخاتم. ويوجد الكثير من معامل تكرير السكر فى مصر، ولكن الإنتاج به الكثير من "المولاس"، كما أن عملية التكرير باهظة التكاليف. أما صناعة الحرير، فإنتاجها أغلى ثمنًا وأقل جودة من مثيله المنتج فى أوروبا.

ثالثًا: المهن الدنيا:

إن هذه المهن الدنيا لا تتطلب أى تأهيل خاص بل تتطلب القليل من الجَلَد والقوة وبعض المهارة. ومن أكثر هذه المهن رواجًا، سنتناول مهنة **"السقائين"** الذين يحملون المياه إلى المنازل مقابل أتعاب بسيطة ، وهم كثيرو العدد فى القاهرة. ويملأ السقاء قرب الماء من عدة مواضع[٣٧] على بعد ١ كم من القاهرة أو من الخليج. وقربة الماء مصنوعة من قطعة كاملة من جلد التيس وتسع حوالى ٢٠ ليترًا. ويملأ السقاء قربته من ناحية العنق ويفرغها من أحد الأقدام فى طست أو زير. والسقاء هو الذكر الغريب الوحيد المسموح له بدخول المساكن. وقبل دخوله إلى المنزل، ينادى بصوت عال قائلاً "يا ساتر". وهذا النداء يذكر الله الذى يستر الناس ويحميهم، وهو إشارة للنساء؛ لكى يفسحن الطريق أو يسترن وجوههن. ولكثرة تَرَدُّد السقاء على المنزل، فإنه يحظى بثقة رب البيت وحريمه ويعتبرونه كأنه أحد خدم المنزل، وكثيرًا ما تذكر الحكايات الشعبية غرامياته الناجحة[٣٨].

وباعة "الفول النابت" و"الترمس" ينقعون حبوب الفول الجافة لعدة أيام فى الماء، وعندما تنبت الحبوب يتبلونها ويبيعونها جاهزة للأكل. وبنفس هذه الطريقة، يتم إعداد حبوب الترمس الذى يؤكل للتسلية [القزقزة].

---

(٣٧) يقصد "المورَدَة" [المترجم] .

(٣٨) كتب يوسف السباعى رائعته "السقا مات" عن هذه المهنة [المترجم] .

ويعمل "الغزالون" و"الغزالات" على المغازل اليدوية. وهناك آخرون يحلُّون الغزل على البَكَر مستخدمين آلة خاصة (حلالة أو مسلكة) تمكنهم من وضع عدة خيوط معًا على نفس البكرة (أو المردن) فى وقت قليل. وفى كل مكان فى الريف، وعند البدو، نرى رجالاً ونساءً يمارسون هذا النشاط الإنتاجى.

وبما أن مصر تفتقر إلى خشب الوقود، فإن الناس يلجأون لاستخدام بقايا النبات و"الجلة" (روث الحيوانات): فتقوم بعض النسوة الفقيرات بجمع روث الحيوانات ويضفن إليه بعضًا من التبن، ويشكلنه على هيئة أقراص يلصقونها على حوائط المنازل لكى تجف تحت أشعة الشمس، وهذا الوقود يشتعل لمدة طويلة قبل أن يتحول إلى رماد.

وفى مصر توجد ثلاث فئات من الناس يمارسون مهنة "الدقاق" أو "الهراس" أو "الطحان" أولهم هو من يقوم بدق أوراق التبغ لأن أوراق التبغ هنا يتم هرسها ولا تُبْشَر (كما هو الحال فى فرنسا). ويستخدم هؤلاء الدقاقون جرنًا خشبيًا[٣٩]. ومدقته الخشبية تكون عبارة عن هراوة طويلة للغاية. والجزء الأدق من هذه الهراوة هو الذى يهرس أوراق التبغ فى الجرن. ثم يضاف القليل من ملح النطرون إلى التبغ المهروس؛ لأنه يساعد على الاحتفاظ برطوبته كما أنه غير ضار بالصحة، أو هكذا كانوا يعتقدون فى الماضى.

ويوجد أيضًا "طحانو البن" الذين يمارسون عملهم مستخدمين جرنًا عبارة عن قُرْمة خشبية تم تفريغها من الداخل بعمق ٢٠سم، وقُطر هذا الجرن لا يزيد عن ١٠سم، وعادة ما يقوم عاملان أو ثلاثة - معًا - برفع مدقاتهم وإنزالها بإيقاع منتظم فى الجرن لطحن حبوب البن. وهذه المدقة يبلغ طولها ٤٠ سم وتزن من٥ إلى ٦ كجم. ويمارس الطحانون عملهم وهم يغنون أغنية ذات إيقاع رتيب؛ وفى الوقت نفسه ، يوجد

(٣٩) استخدم المؤلف هنا كلمة "هاون" ولكننا فضلنا استخدام كلمة "جرن" لأن "الجرن" (ويده أو مدقته) مصنوعان عادة من الخشب أو الحجر أما "الهاون" (ويده أو مدقته) فمصنوعان عادة من النحاس[المترجم] .

طفل صغير يضع يده بخفة فى الجرن ليسقط البن إلى أسفله ونادراً ما تقع حوادث أثناء طحن البن لأن الأطفال يتدربون - منذ نعومة أظفارهم - على متابعة إيقاع الطحانين. والمدقة المستخدمة فى طحن البن مصنوعة من النحاس، ولذلك قد نجد بعض شذرات المعدن فى البن المطحون بهذه الطريقة.

ونصل - أخيراً - إلى الطحانين الذين يطحنون مختلف الأشياء التى يبيعها العطارون: فنراهم يمارسون عملهم وهم واقفون بجوار أجرانهم المصنوعة من الأحجار الصلبة (الجرانيت أو البازلت) التى يتراوح عمقها من ٤٠ إلى ٥٠ سم، وعرضها يبلغ ٢٠ سم، وفتحتها الواسعة تأخذ شكل المخروط المقلوب. ويطحن هذا العامل: الحبوب وأوراق النباتات أو الخشب بمدقة مصنوعة من الحديد ومقببة من الوسط. ولإنجاز العمل سريعاً يقوم رجلان بالطحن مستخدمين مدقتيهما بالتناوب وهما يزفران.

وبالإضافة إلى هذه المهن الصغيرة نذكر أيضاً: مؤجرى الدواب لحمل البضائع، والمكارية، والشحاذين المحترفين ... إلخ .

رابعاً : التجارة :

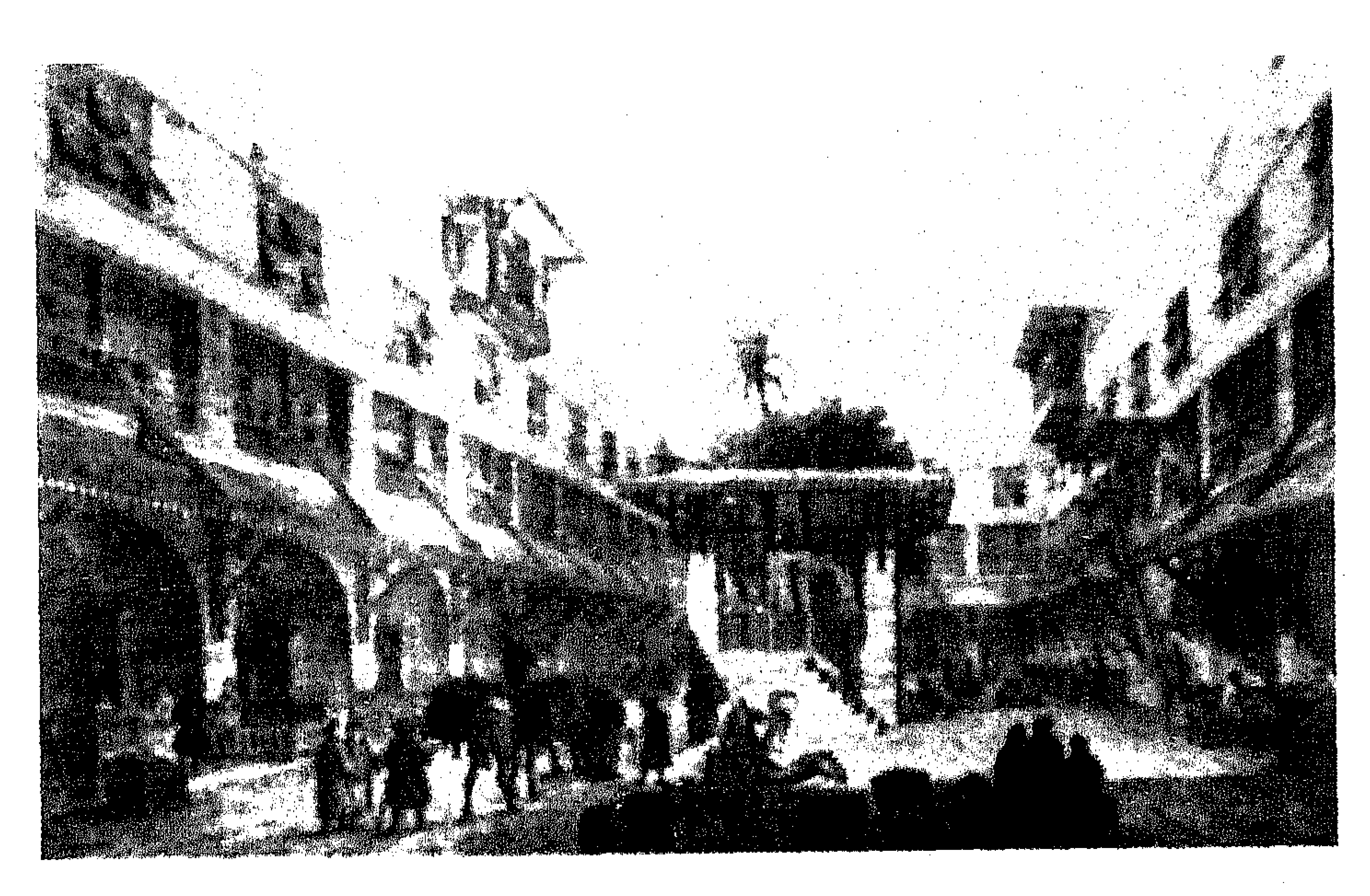
١- تجارة التجزئة:

يمارس التجار عملهم من خلال : الوكالات والخانات والفنادق التى يبلغ عددها كلها حوالى ٢٠٠ منشأة، وهى عبارة عن : أماكن للنوم ومخازن تجارية معًا. وتخطيطها العام عبارة عن مبان بارتفاع دورين أو ثلاثة تحيط بفناء واسع مربع أو مستطيل. وفى الدور الأرضى منها، توجد المستودعات التى قد تستخدم - أحياناً - كمحال تجارية. أما الأدوار نفسها، فهى مخصصة لسكن التجار ، وقد تتحول - أحياناً - إلى مخازن حسب الظروف. وكل مسكن أو دكان له مفتاح واحد فقط لكل مستأجر.

وللوكالة مدخل ضخم يطل على الشارع ويحرسه بواب - أثناء النهار- ويغلق هذا المدخل مساء. ويتجمع التجار الأجانب فى الوكالات حسب جنسياتهم: ففى "وكالة

رحبان" يتجمع التجار الأروام، و"وكالة البكير شوربجى" مخصصة للتجار الأتراك، و"وكالة الجلابة " مخصصة للزنوج، ... إلخ .

وفى العادة تكون المتاجر متجاورة ومتراصة على طول الشارع الواحد، وقد تمتد هذه المتاجر إلى الشوارع المتعامدة معه ، وتمارس فيها "تجارة التجزئة" للأصناف المتشابهة. وهذه المتاجر ليست متصلة بالطوابق الموجودة فوقها . والشارع الواحد – أو أى جزء منه – الذى يكون مخصصاً لتجارة صنف واحد، أو سلعة واحدة يطلق عليه اسم "سوق" ويضاف إليه اسم السلعة الأساسية التى تميزه عن غيره، ولذلك نجد أسماء: "سوق السلاح" و "سوق النحاسين" ... إلخ ، وأحياناً يتم تمييزه باسم المسجد المجاور له مثل "سوق الغورية".



(صورة رقم ١٤): وكالة ذى الفقار فى القاهرة.

وأغلب الأسواق يظللها الحصير أو الألواح الخشبية المدعومة بكمرات مثبتة بأعلى المتاجر أو البيوت، وذلك لحماية التجار والعملاء من حرارة الشمس.

ولا تتجاوز أبعاد المتاجر ٦ أو٧ أقدام ارتفاعًا و٣ أو٤ أقدام عرضًا، ومن النادر أن تزيد عن تلك الأبعاد. وبعض هذه المتاجر تتكون من حجرتين ضيقتين - واحدة تلو الأخرى - فتستخدم الداخلية كمخزن. ويحتفظ التاجر بفائض بضاعته فى منزله أو فى الوكالة المجاورة له. وأرضية المتجر ترتفع بمقدار قدمين عن أرضية الشارع وتمتد - بنفس المقدار تقريبًا - فى نهر الشارع نفسه فتكُون ما يشبه الشرفة الضيقة.

وأبواب المتاجر عبارة عن ثلاثة مصاريع من الخشب يمكن رفع الجزء الأعلى منها فتتكون سُقيفة أمامية ؛ أما الجزآن الآخران، فيمكن طيهما ليُكَوِّنا ما يشبه المصطبة التى يجلس عليها التاجر بعد فرشها بسجادة. وعادة ما يجلس البائع متربعًا، ويترك هذا الوضع ليجلس فى ركن من متجره ليفسح المكان لزبون أو اثنين ؛ فيجلسا على المصطبة بعد أن يخلعا خفيهما. ومن المعتاد أن يقدم التاجر الأرجيلة للزبون لكى يدخن ؛ فإذا كانت لديه الأرجيلة، فإنه يُعمرها بالدخان ويشعله ويقدمها للزبون ويطلب له القهوة من أقرب قهوجى. وكل عملية بيع محتملة تتم بعد فصال طويل تتخلله حوارات لا قيمة لها فضلاً عن ترديد حكم دينية.

ويؤدى البائع الصلوات فى متجره أمام الرائح والغادى ولا يلتفت إليه منهم أحد. وإذا اضطر لترك متجره، فإنه يعهد به لأحد جيرانه أثناء لحظات غيابه أو يضع حبلاً على مدخله، ولا يغلقه بالمصاريع الخشبية إلا فى نهاية النهار، وفى يوم الجمعة أثناء صلاة الجماعة ، ويزين التاجر مدخل متجره بالأدعية الدينية.

والسؤال الذى يطرح نفسه - الآن - هو: مَن هم هؤلاء التجار الصغار؟؟ إنهم باعة الأقمشة والصياغ والخياطون والدخاخنية وباعة النُقل والجزارون والزياتون وباعة الأجبان والزبد والعقادون ... إلخ ويتناول هؤلاء التجار وجبتى الإفطار والغذاء فى متاجرهم ، فيشترونهما من عند "الطباخ" أو "الفوال" أو "الفطاطرى".

وتجارة التجزئة لا تقتصر فقط على أصحاب المتاجر، بل إن الباعة المتجولين يكونون جزءًا أساسيًا فى هذه التجارة ولهم نصيب مهم فى توزيع البضائع. وللباعة المتجولين نداءات خاصة بهم تذكُر مزايا سلعتهم، فنجد كل باعة الترمس يرددون نفس النداء بنفس النغمة: "يا ترمس امبابة، يا ألذ م اللوز، يا ترمس"(٤٠) فيرد عليهم باعة الشمام قائلين: "يا شمام، يا مداوى المزنوقين، يا شمام"(٤١) ؛ لأن الشمام يشتهر بأنه ملين. أما باعة الحلوى فينادون: "بمسمار!! بمسمار"!! ؛ لأنهم فيما يبدو كانوا يبادلون حلواهم مقابل أشياء تافهة يختلسها الخدم أو الصغار من المنازل.

لكن باعة الورد والأزهار كانوا يعرضون بضاعتهم وهم يتغنون بهذا الموال الجميل: "الورد كان شوك من عرق النبى فَتَّح"(٤٢) فى إشارة لمعجزة ينسبون حدوثها للرسول.

والآن علينا أن نتساءل: كيف كان حال تجارة التجزئة فى مصر أثناء الحملة الفرنسية؟؟ إن **الجبرتى** يعطينا معلومات حول هذه الجزئية فيذكر أنه بعد استتباب الهدوء فى القاهرة، أمر بونابرت بعدم التعرض بتاتًا للتجار، وأن أى عملية شراء يجب أن تتم باستقامة. ولاحظ الجبرتى بدهشة كيف "كان العسكر الفرنسيون يدفعون بسخاء ويبدون مشاعر الود. وكانوا يدفعون ريالاً كاملاً ثمنًا للدجاجة و٢٠ بارة للبيضة الواحدة"؛ ولذلك أسرع التجار ففتحوا متاجرهم. وكان الجيش الفرنسى يدفع ثمن ما يشتريه من منتجات ضرورية لجنوده.

---

(٤٠) فضلنا ترجمة نداءات الباعة المتجولين كما ينطقونها باللهجة العامية وكما سمعناها منهم، لأنهم لا يزالون يرددونها بنفس الألفاظ – وربما بنفس النغمة – وأيضًا لإضفاء بعض الحيوية والواقعية اللغوية على الترجمة [المترجم] .

(٤١) سمعنا فى طفولتنا – فى أحياء القاهرة الشعبية – تنويعات على هذا النداء، منها: "يا مريح المزنوق" و"يا مسهل كل عسير"... [المترجم] .

(٤٢) سمعنا هذا الموال فى سنة١٩٧٩م فى عُرس بقرية "كفر الحما" – مركز طنطا – غربية، ونصه الكامل هو:

"الورد كان شوك ... من عرق النبى فتَّح

سعيد يا مسعد ... واللى يصلى عليه يسعد

إيـوه يـا ولـه" [المترجم] .

وكلف بونابرت لجنة مشتركة – من المصريين والفرنسيين – بوضع قائمة بالنقود الفرنسية وما يساويها من النقود المصرية، فاطمأن التجار. وذكر الجبرتى بعد ذلك: "وقام بعض السكان بفتح حوانيت للمأكولات بالقرب من منازلهم: ففتح الأروام الحانات والقهاوى؛ وفتح بعض الأوربيين المقيمين فى المدينة المطاعم" . وباختصار، لقد أعطى الوجود الفرنسى فى مصر دفعة لتجارة التجزئة وأيضًا لتجارة الجملة، كما سنرى فى الفقرات التالية.

٢- تجارة الجملة:

كانت القاهرة المركز التجارى لمصر كلها، ليس لأنها مجرد عاصمة البلاد فقط، بل لأن المماليك ورجال الشريعة وكبار ملاك الأراضى يقيمون فيها ، فأصبحت القاهرة هى المركز الذى تتجمع فيه البضائع القادمة من بلاد السودان والبحر الأحمر وأوروبا.

وتصل إلى القاهرة – فى كل عام – قافلة من الحبشة بها: من ألف إلى ١٢٠٠ من العبيد السود والببغاوات والقرود والعاج والصمغ.

وتأتى إليها قافلة أخرى من بلاد المغرب متجهة إلى مكة، لتلتقى بحجاج القاهرة. وتجلب هذه القافلة معها: منتجات بلاد السنغال والجزائر وتونس وطرابلس الغرب. وعدد جمال هذه القافلة يتراوح من ٣ إلى ٤ آلاف جمل. وعند عودتها من الحجاز، فإنها تجلب معها: أقمشة وشيلان الهند وحبوب البن والعطور واللآلئ.

وتأتى هذه البضائع نفسها إلى مصر فى شهرى مارس وأكتوبر من كل عام ، على متن ٢٦ أو ٢٨ سفينة شراعية تبحر من جدة حاملة كميات أكبر من حبوب البن الذى يستهلك المصريون منه كميات كبيرة، ويتم تفريغ هذه البضائع فى ميناء السويس.

وبعد ذلك، تأتى قوافل صغيرة من دمشق. وعندما يكون الجو معتدلاً، ترسو السفن دائمًا فى ميناء دمياط وتفرغ حمولتها من تبغ اللاذقية الذى يحظى بشهرة واسعة لدى المصريين.

وتتم – بين القاهرة واستانبول – مبادلة العبيد والإماء البيض بالعبيد والإماء السود المجلوبين من أفريقيا.

وهناك سفن أخرى تصل من ليفورن وفينيسيا ومرسيليا وهى محملة بالجوخ والأقمشة والشرائط الحريرية (المصنوعة فى ليون)، والورق واللون القرمزى والحديد والصلب والرصاص والطرابيش (المصنوعة فى ليون ومرسيليا وأورليان)، وقطع النقود الذهبية المسكوكة فى (فينيسيا "السكين" Sequin)، وقطع "الداهلر" (Dahler) الذهبية المسكوكة فى ألمانيا، وغيرها ... إلخ ثم تشحن كل هذه البضائع إلى القاهرة.

وفى المقابل كانت مصر تصدر أساسًا: الأرز والقمح والدقيق والعدس والسكر والمنسوجات الكتانية والزبد والزيت وزهور القرطم والزعفران والجلود وملح النوشادر ومختلف منتجات أفريقيا وآسيا.

إن مقارنة هذا التبادل التجارى بين مصر وأوروبا يجعلنا نلاحظ بسهولة أن مصر كانت تستورد مواداً مصنعة ، وتعتمد فى التصدير على مواد أولية وزراعية. إذن، فهذا التبادل التجارى لم يؤد إلى زيادة ثروة مصر كما لاحظ – بحق – الرحالة فولنى قبل سنوات من وصول الحملة الفرنسية إليها.

وحسب الأرقام التى تقدمها لنا الجمارك المصرية، فإن قيمة التعاملات السنوية قد بلغت ١٥٠ مليون جنيه (بالعملة الفرنسية). إننا لن نقدم هنا قائمة بالتعريفات الجمركية، التى تم التعامل بها فى نهاية القرن الثامن عشر، ولكننا سنكتفى بإعطاء مثال يوضح الصورة: ففى أسيوط، دفع أحد التجار مبلغ ٤ زِرْ محبوب عن كل رأس من العبيد و ٥،٥ زر محبوب عن كل جمل. وفى القاهرة، طلبت منه الجمارك دفع: واحد زر محبوب زائد ٢/١ زر محبوب مقابل استخدام الوكالة التى أسكن العبيد فيها قبل بيعهم.

ومن المعروف أن قيمة التعريفات الجمركية – المتباينة جداً – تجعل عمليات التهريب تنشط بين سوريا ومصر، عبر الصحراء وبحيرة المنزلة، بالنسبة للمنتجات التى يعتبر التجار أن الضريبة – المفروضة عليها – مُبالغ فيها.

وفى العادة، فإن البدو الرحل لا يمارسون التجارة بمعناها الحقيقى: فهم يكتفون بنقل البضائع – بواسطة جمالهم – مقابل أتعاب يتقاضونها. ونظراً لوجود القوات الفرنسية، فقد أُغلق طريق دمياط، فاضطر التجار للجوء لخدمات هؤلاء البدو لتسيير أمورهم. وأصبح البدو يفرضون الثمن الذى يريدون ، كما أن المكاسب الهائلة – التى ربحوها – دفعتهم لممارسة التجارة لحسابهم الخاص. والمخاطرة الوحيدة التى يتعرض لها هؤلاء البدو الرحل هى أن تُنهب بضائعهم على يد قبائل بدوية أخرى معادية لهم.

وهذه النقطة الأخيرة تدفعنا للتساؤل عن الحماية التى كان يتمتع بها التجار فى مصر فى تلك الفترة: لم تكن لبلاد التجار الشرقيين قنصليات تحمى مصالحهم . وفى حالة حدوث نزاع تجارى، يلجأ المتنازعون إلى التحكيم؛ فإذا فشل التحكيم، يلجأون إلى القانون التركى ، وهنا يتم تصالح التاجر المفلس مع دائنيه.

أما التجار الأوروبيون، فإن قنصليات بلادهم كانت موجودة – نظرياً – لحمايتهم من المظالم أو عدم دفع المماليك لقيمة التوريدات التى قدمها لهم هؤلاء التجار، أو حبسهم ظلماً لكى يفتدوا أنفسهم – مجبرين – لإطلاق سراحهم. ولتعويض مثل هذه المظالم، كان التجار الأوروبيون يرفعون أسعار بضائعهم. وكان القناصل يفحصون الاتفاقيات التجارية – بدقة – لتجنب وقوع مضايقات فى "المستعمرة". لكن هذا التوازن الهش كان ينهار – غالباً – بسبب جشع المماليك.

وقبل وصول الحملة الفرنسية إلى مصر، كان بحارة فينيسيا وتوسكانيا وفرنسا وجمهورية راجوزا هم – فقط– الذين يبحرون على طول شواطئ شرق البحر المتوسط. أما مشاركة البحارة الأتراك والأروام فكانت ضئيلة. وفضلاً عما سبق، فقد كان للأتراك والأروام ثلاثة أو أربعة بيوت تجارية – فقط – فى القاهرة. وبالإضافة إلى هؤلاء التجار ، يجب أن نذكر الـ (Bazariotti)، وهى تجارة التجزئة التى كان يمارسها البحارة لحسابهم الخاص مستفيدين من أن القانون كان يسمح لهم بذلك.

إن العدد المحدود للبيوت التجارية الأوروبية فى مدن مصر الثلاث: القاهرة ورشيد ودمياط، يبدو – ظاهرياً – وكأنه كاف لرعاية العلاقات الاقتصادية مع بلاد الغرب. ومع

ذلك، فمنذ زمن طويل، كانت تلك العلاقات متوترة بشكل أو بآخر. وخوفًا من حدوث عمليات تحريض أو إثارة، انتقل قنصل فرنسا من القاهرة للإقامة فى الإسكندرية - مؤقتًا - فى سنة ١٧٧٧ لأسباب فنية. وعلق الجبرتى على ذلك بقوله: "لقد كان رهينة لدى السلطان". وبعد فترة رجع القنصل إلى القاهرة.

وكان التجار الأوروبيون - فى العاصمة - يعيشون منغلقين على أنفسهم فى حارة مسدودة، وعلاقاتهم محدودة للغاية بالسكان المحليين - الذين كانوا يبغضونهم - والمماليك الذين كانوا يحتقرونهم. وكان الفرنجة يدفعون سنويًا مبلغ ٦٣ ألف جنيه "تورى"[٤٣] فى المتوسط، على سبيل الظلم والابتزاز كما ذكر الرحالة فولنى فى سنة ١٧٧٩

ولكن الوضع، خارج القاهرة، كان أقل سوءًا: فبفضل ما ذكره ج.ج. مارسيل (J.J. Marcel)، عرفنا بوجود بيت ڤارسى (Varsy) التجارى فى دمياط، وكيف استقبل هذا التاجر الجنرال مينو - حاكم المدينة - مما يدل على ثرائه. وذكر المؤلف نفسه - أيضًا - أسماء التجار: نيدورف (Neydorf) وكاف (Caffe) وهنريسى (Henricy) وبوديف (Baudef) وپرى - ريال (Prix-Real) وكلهم يقطنون القاهرة.

وفى الإسكندرية، كان يوجد عدد لا يستهان به من البيوت التجارية ، أو "الفاكتورى (les factories) ، كما كان يطلق عليها حينذاك. ويذكر ر. كليمان (R. Clément) أن عددها بلغ ١٥ فاكتورى.

وكان ميناء الإسكندرية يستقبل سنويًا ما بين ٦٠ إلى ١٨٠ سفينة، منها عدد يتراوح من ١٥ إلى ٢٠ سفينة تحمل منتجات مرسيليا؛ أما باقى السفن، فكانت تتبادل التجارة مع القوافل.

وعلى الرغم من هذه الحركة التجارية المهمة، فإن وضع التجار الفرنسيين والأجانب لم يكن جيدًا: فقد عانوا من التعريفات الجمركية المتغيرة، وظلم وابتزاز المماليك، وسفر القنصل الفرنسى ماجلون إلى فرنسا، كما أن انهيار النظام الملكى فى

---

(٤٣) Tournois نقد فرنسى قديم مسكوك فى مدينة "تور" Tours الفرنسية [المترجم] .

فرنسا لم يفدهم كثيراً فى أعمالهم وعرضهم لحالة خطيرة من عدم الاستقرار. فهل تحسن وضعهم مع مجيء الحملة الفرنسية إلى مصر؟؟ لقد أصبحوا – بدون شك – فى وضع أفضل لفترة قصيرة.

إن تاليران Talleyrand[٤٤] قد اعتمد على حدس الدوق دى شوازيل Duc de Choiseul[٤٥]؛ فذكر فى "مقالة عن المنافع التى يمكن الحصول عليها من المستعمرات الجديدة" ما يلى: "إن الدوق دى شوازيل هو أحد رجال عصرنا ، ولكن فكره كان مستقبلياً : فمنذ سنة ١٧٦٩م، تنبأ بانفصال أمريكا عن انجلترا، وأبدى خشيته من تقسيم بولندا، وسعى – منذ ذلك الوقت – لضم مصر إلى فرنسا عن طريق المفاوضات. وكان يهدف إلى أن تحل مصر محل المستعمرات الفرنسية فى الأمريكتين (فتنتج نفس المنتجات وتصبح سوقاً تجارية أكثر اتساعا) استعداداً لذلك اليوم الذى ستفلت فيه تلك المستعمرات من بين أيدينا".

لقد أصبح الاستيلاء على تلك المنتجات وتطويرها هو الهدف الاقتصادى للحملة على مصر، فاعتمد بونابرت على علمائه وعلى وادى النيل للحصول على: السكر والقطن والقرطم، وباقى المحاصيل الضرورية الأخرى التى تحتاجها بلاده، والتى منع الحصار البحرى الإنجليزى وصولها إلى فرنسا[٤٦].

ولكن الوقت لم يمهل الحملة الفرنسية لتنفيذ هذا المشروع بسبب ظهور مشاكل اقتصادية أكثر إلحاحاً شغلت بال الجنرال: فكان لابد من دعم وتشجيع المبادلات التجارية بين مصر وجيرانها (شبه الجزيرة العربية وسوريا وبلاد السودان)، وذلك بتحديد التعريفة الجمركية وجعلها مستقرة وبسيطة نسبياً. وهذا ما طبقه بونابرت – فعلاً – بخصوص واردات مصر من البن أثناء زيارته السريعة للسويس فنال ثناء التجار عليه.

---

(٤٤) تاليران" سياسى فرنسى (١٧٥٤ – ١٨٣٨) من أصل أرستوقراطى لكنه، فى سنة ١٧٨٩، صوت لصالح مصادرة أملاك الكهنة لصالح الأمة الفرنسية، عُين وزيراً للعلاقات الخارجية بعد وفاة روبيسبير [المترجم] .

(٤٥) الدوق دى شوازيل: سياسى فرنسى (١٧١٩ – ١٧٨٥) بدأ حياته عسكرياً ثم انتقل للدبلوماسية عرف بعدائه لبريطانيا وعقد معاهدات مع النمسا وأسبانيا للتحالف ضدها [المترجم] .

(٤٦) هذه الفكرة الاستغلالية الواضحة والصريحة تتناقض تماما مع ما يدعيه المؤلف فى ثنايا هذا الكتاب عن المهمة الإنسانية/ التحريرية/ الثقافية/ التنويرية للحملة على مصر[المترجم] .

ب- الأسواق والموالد:

١- الأسواق:

كانت التجارة الداخلية في مصر غير آمنة : لأن الشرطة كانت تشرف على الأسواق فقط ولم تراقب طرق المواصلات . ولهذا السبب كان يجب على من يريد السفر براً أن يسافر مع قافلة، أو على الأقل مع مجموعة. ولم تكن الظروف الأمنية للملاحة فى النيل أفضل حالاً من طريق البر: فالسفن النيلية كانت تتعرض لهجمات سكان القرى الواقعة على ضفتي النهر والذين كانوا يعيشون - أحيانًا - على نهب المراكب التى تقع تحت أيديهم.

وبالإضافة إلى المدن الساحلية والعاصمة، كانت توجد - فى الدلتا - مراكز تجارية مهمة منها: طنطا والمحلة الكبرى وسمنود. وكانت كلها بمثابة مستودعات للبضائع الواردة من دمياط. وفى الصعيد، كانت: الفيوم وأسيوط وإسنا تقوم بهذا الدور.

وكان السوق الأسبوعى الذى يقام فى القرى حدثًا مهمًا لسكانها: فقد كان الفلاحون يحضرونه لمبادلة محاصيلهم بالمنتجات الصناعية: الأقمشة والآلات والأدوات المنزلية والزجاج والحلوى والحيوانات ... إلخ . وعلى سبيل المثال، ففى سوق إسنا، كان المزارعون يلتقون بقبائل العبابدة والبشارين أو "البَشَّارية" - وهم بدو رحل - ويبادلونهم الأرز والحديد والمعادن الأخرى بالجمال والعبيد السود الذين استولى عليهم هؤلاء الرحل من القوافل.

وبالإضافة إلى هاتين السلعتين (الجمال والعبيد)، كان العبابدة والبشارية يجلبون معهم صمغ شجر السنط وفحم الخشب الذى يصنعونه من غصون تلك الأشجار، فكانت إسنا ترسل هذا الفحم إلى القاهرة وغيرها من الأسواق.

وكان الفلاحون يعرضون للبيع منتجات المزارع والحبوب والطيور، والقطن الخام والمغزول، والثيران والجواميس والجمال. أما المنتجات مثل: الصابون والأرز والجوخ، فكانت تصل من القاهرة على متن السفن النيلية. واعتبرت مدينة إسنا بمثابة مستودع لمنتجات أفريقيا: العبيد والعاج وريش النعام ... إلخ .

وفى أقصى الجنوب، اعتمدت أسوان أساساً على تجارة البلح الجاف ويليه تجارة نبات "السنامكي" الذى يجمعه العبابدة من الصحراء. وكان كارلو روسى - قنصل فينيسيا والنمسا فى القاهرة - هو الذى يحتكر تجارة هذا النبات الملين ، وعرفت مدينة الفيوم سوقًا للجمال والبلح، وكان الفلاحون يبيعون فيه الشيلان أيضاً.

إذن، فكما رأينا، كان لكل سوق تخصصه الخاضع لاقتصاديات المكان. وعلى الرغم مما ذكرناه، فإن علاقات الفلاحين بالبدو لم تكن مثالية كما قد يتصور البعض: لقد رسم لنا جومار (Jomard) لوحة حزينة للغاية عندما كتب: "إن عدد المظالم والآثام التى يرتكبها البدو غير مقبول. فمثلاً، فى أسواق القرى، تتجمع الحشود للبيع والشراء؛ فتكون للبدو جميع المزايا ويسيطرون على هذا الجمع، ولا يجرؤ أى فلاح على معارضتهم فى أى شىء، ولا يستطيع بيع أى سلعة إلا بالثمن الذى يحددون. ويغرز البدوى رمحًا قصيراً فى الأرض بجانبه وكأنه يقول بوقاحة: أنا سيد هذا المكان".

وقبل مجىء الحملة الفرنسية، كان المملوك - "بك" المنطقة - هو الذى يحتكر تأجير الأماكن فى السوق، وهو الذى يجبى قيمة الإيجار لحسابه الخاص بنفسه أو بواسطة وكيله أى "الكاشف". فمثلاً، فى مدينة الفيوم، كان هذا الالتزام يُمنح - عادةً - مقابل تسديد مبلغ ١٤٠ ألف مدينى سنويًا: فكان الملتزم يجبى سنوياً لحسابه مبلغًا يتراوح ما بين ١٧٠ إلى ٢٠٠ ألف مدينى.

ولكن مع بونابرت، أصبحت حصيلة هذه الالتزامات تدخل فى خزانة الدولة أو المديريات، وأصبحت السلطات تُشرف - بشكل منتظم - على الأسواق الأسبوعية والدائمة، وفرضت عقوبات رادعة على الغش.

ولمنع محاولات الغش، تم تعيين أغا مخصوص يشرف على الأسواق: فكان يذرع المدينة - يوميًا - على ظهر حصانه مسبوقًا بعبيد يحمل ميزانًا كبيراً، ووراءه خدم يحملون العصى فى أيديهم. وكان الأغا ينفذ عقوبات قاسية وفورية ضد المخالفين: فكان يأمر بضرب المخالف ٢٠٠ أو ٣٠٠ عصا على كفوف قدميه؛ وفى حالة المخالفة الجسيمة، كان يأمر بقطع عنقه فوراً. لكن الناس اشتكوا - أحيانًا - من أن هذا الأغا كان يتجاوز فى استخدام الحق المخول له.

٣- الموالد:

ترتبط الموالد بالاحتفال بذكرى أحد الأولياء الذين تجذب شهرتهم الجماهير. وأشهر هذه الموالد هو مولد السيد البدوى فى طنطا (توفى فى القرن الثالث عشر الميلادى). ويقام المولد بجوار مسجده والأراضى المجاورة له. وهذا المولد عبارة عن: احتفال بذكرى السيد البدوى ، وعيد ، وسوق تجارية كبيرة يأتيها عدد يتراوح ما بين ٢٥٠ ألف و ٣٠٠ ألف شخص ثلاث مرات فى السنة.

وفى هذه السوق يباع كل شيء: الأقمشة والدواب والأدوات الزراعية والفخارية وألعاب الأطفال والأدوات المنزلية... وحتى الحُب. ولا تجبى الدولة أية رسوم عن مولد طنطا، وتشرف الشرطة عليه ممثلة فى اثنين من الكُشاف: أحدهما من المنوفية والثانى من الغربية، وهما المديريتان القريبتان من هذه المدينة التى تُعتبر أكبر مدينة فى الدلتا. ومولد السيد البدوى يُعلن عنه رسمياً فى جميع أنحاء القطر المصرى.

وهناك أيضاً مولد دسوق(٤٧) الذى يقام مرتين فى السنة ويزوره حوالى ٢٠٠ ألف زائر. ويقال إن العوالم يأتين إلى هذا المولد من كل أنحاء مصر.

وسنتحدث عن الموالد - مرة أخرى - عند حديثنا عن الاحتفالات ذات الطابع الدينى.

ج- إسهامات الفرنسيين في الاقتصاد المصرى:

بعد استقرار القوات الفرنسية في مصر، بدأت تظهر فى القاهرة - وباقى مدن مصر الكبرى - صناعات جديدة هدفها الأساسى كان تلبية متطلبات الجيش الفرنسى فى المقام الأول.

(٤٧) يقصد المؤلف هنا مولد سيدى "إبراهيم الدسوقى" [المترجم] .

ولقى العلماء الفرنسيون، الذين التحقوا بخدمة الحملة، العون والحماية من الجيش الفرنسى. واستطاع الطرفان معًا - العلماء والعسكريون - وضع أسس الصناعة الحديثة فى مصر. وبالتأكيد، فإن هذه الصناعات ظلت بسيطة فى حجمها وإنتاجها، ولكنها كانت تبشر بمستقبل عظيم.

ويعتبر نيقولا جاك كونتيه (١٧٥٥- ١٨٠٥) (Nicolas Jacques Conté) هو محرك هذه الانطلاقة الصناعية، وهو نفسه مخترع القلم الرصاص المصنوع من الجرافيت الصناعى. وتجلت ذروة عبقريته فى مصر عندما غرقت السفينة "La Patriote" التى كانت تحمل على متنها الأدوات العلمية فى البحر المتوسط، وما تبقى من هذه الأدوات تم تدميره أثناء ثورتى القاهرة، فاضطر كونتيه لصناعة: المثاقيب والفارات والبلط والقواديم والمفكات ... إلخ من الصلب ذى النوعية الجيدة، لكن كان عليه أن ينتجه أولاً.

وازداد الانبهار به عندما لم يتوقف عند هذه المرحلة بل إنه ذهب إلى أبعد من ذلك عندما صنع: النظارات والمجاهر والأدوات الجراحية والورق والأقمشة والورنيش، وآلات لدباغة الجلود والطباعة على الأقمشة وتنظيف الحبوب، وفرنًا لتسخين جُلل المدافع، ومضخة عائمة لإطفاء الحرائق - استُخدمت فى الإسكندرية - كما صنع أيضًا ... القبعات. وأراد أيضًا تزويد مصر بالتلغراف الهوائى لزيادة سرعة الاتصالات بين الإسكندرية والقاهرة ، واخترع حوامل للمدافع لاستخدامها فى الصحراء. وأنشأ - فى القاهرة - مصنعًا لصناعة الجُلل والخراطيش والسيوف الفولاذية. وبفضله، أُنشئت أول طواحين الهواء فى جزيرة الروضة وفوق تلال المقطم، فتحسنت نوعية الدقيق.

ودارت المطبعتان اللتان أحضرتهما الحملة الفرنسية معها فى وقت واحد لفترة محدودة. وبعد ذلك، استمرت "المطبعة الوطنية" تعمل بمفردها على أيدى عمال طباعة فرنسيين ومصريين ؛ وفيما بعد، سيطلب محمد على من أحد الموظفين المصريين - ن. ماسابكى - إدارة "المطبعة الأميرية".

وأمر بونابرت باستيراد الأخشاب لصناعة الأثاث على الطريقة الأوروبية على يد صناع الأثاث في الجيش الفرنسي الذين صنعوا: الطاولات والكراسي والدواليب وغيرها من قطع الأثاث غير المستخدمة حينذاك في مصر.

وتم تشغيل عمال مصريين في مختلف الورش، فتعلموا الصناعات الجديدة سريعًا، واكتسبوا المهارات الموجودة لدى زملائهم الأوروبيين وتطوروا سريعًا في مجالات: الصناعات المعدنية وصهر المعادن، وصناعة أزرار البزات العسكرية والأحذية والسروج والطباعة والزركشة والحياكة، وكذلك أشغال الذهب والفضة.

ويعترف الجبرتي بأن كل هذه الأعمال تمت بسرعة ودقة نتيجةً لوجود عدد من الآلات يسرت إنجاز هذه الأعمال بشكل أفضل، وأيضًا بفضل المرتبات الجيدة التي حصل عليها هؤلاء العمال المصريون. وأيضًا يعترف ڤيڤان دينون (Vivant-Denon) قائلاً: "إن العامل المصري ماهر ومرن ولا ينقصه سوى الحصول على الأدوات العديدة لاستخدامها بدلاً من أصابع يديه وقدميه التي يستخدمها بطريقة مدهشة. والعامل المصري صبور ومتواضع ومستعد لإعادة العمل – الذي صنعه – حتى نحصل منه على ما نريد تقريبًا".

وأبدى بعض الفرنسيين رغبتهم في البقاء بمصر فقرروا إقامة منشآت بغرض الكسب: فبدأت – في تلك الفترة – تظهر مَحال جميلة لتقديم عصير الليمون ومطاعم وحتى صالات للعب البليارد، وبدأ المصريون يترددون عليها. وافتُتح مصنع لصناعة الجعة – في أطراف حي مصر القديمة – ولكنها كانت بدون إضافة "حشيشة الدينار" إليها (للأسف!!)(٤٨)، وذلك حسب تركيبة كيميائية قدمها علماء الكيمياء في "المجمع العلمي" ولكن هذه الجعة لم تحظ بإعجاب الجميع .

---

(٤٨) "حشيشة الدينار" (Le houblon) نبات يضاف إلى الجعة، في المرحلة الثالثة لصناعتها، لإعطائها طعمها المميز [المترجم] . .

وأعلن مصنع لتقطير الخمور عن نفسه في جريدة (Le Courrier d'Egypte) بهذه الصيغة: "في نهاية شارع "فينيتيين" يصنع المواطن/ الطبيب ولمار (Wolmar) العصائر وجميع أنواع الليكور[٤٩] الصافية والطافية"[٥٠]. ونشرت نفس الجريدة - بعد فترة - الإعلان التالي: "في آخر سور حي الإفرنج بالقاهرة، افتتح "فور" (Faure) و"جيشار" (Guichard) وشركاهما مصنع ومحل لصناعة وبيع جميع أنواع: الليكور والعصائر والخمور الأجنبية والنبيذ والقهوة والسكر والعطور ... إلخ"

وبدأ ترف العيش يظهر كما يشهد به هذا الإعلان: "حمام على الطريقة الفرنسية في منزل رضوان كاشف في حي "مالافار"، مسكن قائد الفصيلة الأولى خلف ميدان بركة الفيل..." وإذا أراد أحد شراء غطاء رأس جديد، فها هو عنوان مناسب ظهر في نفس الجريدة: "يعلن صناع القبعات الفرنسيون لمواطنيهم أنهم قد افتتحوا مصنعًا للقبعات خلف مكتب البريد". وهذا الإعلان موجه للمدخنين: "المصنع الفرنسي لجميع أنواع التبغ، في منزل محمد كاشف، شارع "بيتي توما" أمام مطعم ميلانو".

وبمناسبة الوجود الفرنسي في مصر، تشجع أجانب آخرون فافتتحوا - بدورهم - منشآت تجارية، ولم يكونوا يجرؤون على فعل ذلك من قبل تحت حكم المماليك المضطرب.

لقد أحضر العلماء والعسكريون الفرنسيون الكثير من المعارف لخدمة المصريين[٥١]؛ ومع ذلك، فإن هذه المعرفة مرت عالية فوق رؤوس المصريين بل أعلى بكثير من قدرتهم على الإمساك بها. وعلق ف. شارل- رو (F. Charles-Roux) على ذلك بقوله: "إن أغلب المصريين لم يفهموا ما بدا لهم على أنه طقوس غامضة غير مفهومة قد تكون زندقة فأظهروا ضدها اللامبالاة أو العداء".

---

(٤٩) "الليكور": نوع من الخمور المصنوعة من الفواكه ويساعد على الهضم [المترجم].

(٥٠) الطافية: نوع من الخمور يصنع من "المولاس" الذي يتبقى من عملية تكرير السكر أي "العسل الأسود" وهو نوع من شراب "الروم" [المترجم].

(٥١) عودة مرة أخرى للتناقض مع ذكره نفس المؤلف عن الأسباب الحقيقية للحملة [المترجم].

خامساً: التوقيت والمقاييس والنقود:

أ - التوقيت:

فى الشرق، لا يمثل عنصر الوقت إحدى ضروريات الحياة مثلما تنظر إليه أوروبا: فالحياة - عند الشرقيين - تسير حسب إيقاع الفصول، ونستنتج من ذلك أن يوم العمل فى الشتاء يكون أقصر منه فى الصيف. ويستدل الناس على الوقت بالآذان الذى يدعو به المؤذن الناس للصلاة خمس مرات فى اليوم: فعند سماع آذان الفجر، يستيقظ الناس ويبدأون فى ممارسة أشغالهم؛ ويتوقفون عند صلاة الظهر لتناول وجبة الغذاء وأخذ قيلولة قصيرة؛ ومع صلاة العصر - حوالى الساعة الثالثة ظهراً - يستأنفون العمل الذى يتوقف مع آذان المغرب؛ ويؤدون صلاة العشاء - وهى الخامسة والأخيرة - فى منازلهم غالباً.

ولا يعتبر الإسلام يوم الجمعة يوم راحة: فصلاة الجمعة فى المسجد هى الصلاة الجماعية الوحيدة الإجبارية؛ وعندئذ يغلق التاجر حانوته أثناء أدائه لصلاة الجماعة، وتلتزم الأقليات غير الإسلامية بهذا الإيقاع اليومى.

وبما أن مصر بلد متعدد الأديان، فهى - بالتالى - بلد تتعدد فيه التقاويم: فيأخذ المسلمون "بالتقويم الهجرى". والسنة الهجرية سنة قمرية، وكل عام هجرى جديد تتأخر بدايته بمقدار ١١ يوماً عن العام الذى سبقه.

أما الأقباط، فلهم تقويمهم الخاص الذى يسمونه "عصر الشهداء" وبدأوا التأريخ به منذ سنة ٢٨٤م(٥٢). والسنة القبطية تبدأ فى يوم ٩ سبتمبر وهى سنة شمسية بها ١٢ شهراً، وكل شهر به ٣٠ يوماً تضاف إليها ٥ أيام يطلقون عليها "أيام النسىء". وهذا التقويم موروث عن مصر القديمة ومناسب تماما للزراعة كما تشهد بذلك الأمثال العديدة التى تربط ما بين الأنشطة الزراعية ومختلف شهور السنة القبطية(٥٣). ومع أن

---

(٥٢) فى سنة ٢٨٤م أصبح ديوقلديانوس إمبراطورا على بيزنطة، واضطهد المسيحيين اضطهاداً شديداً [المترجم].

(٥٣) ومن هذه الأمثلة "توت رى ولا فوت"، "هاتور أبو الذهب المنتور"، "برمهات روح الغيط وهات"، "فى برمودة دق بالعامودة"، "بشنس يكنس الغيط كنس"، "فى بؤنة نقل القمح وتخزين المئونة" "أبيب فيه العنب يطيب" و"أبيب طباخ العنب والزبيب"، "مسرى تجرى فيه كل ترعة عسرة" و"إن فاتك مسرى ما تلقاش ولا كسرة" [المترجم].

التقويم القبطى خاص بإحدى الأقليات، إلا أنه منتشر تماماً بين جميع أوساط الشعب المصرى الذى لا يزال يعمل أغلبه بالزراعة وبالحرف المتصلة بها.

ويتبع الروم "التقويم اليوليانى" الذى ينقص ١١ يوماً عن "التقويم الجريجورى". وأول أيام السنة اليوليانية يقع فى الأول من أكتوبر من كل عام ويرتبط مسيحيو الشام بنفس هذا التقويم. ولليهود تقويمهم الخاص وأعيادهم التى يحتفلون بها.

وسندرس فيما بعد الاحتفالات المصاحبة للأعياد الدينية والمدنية، وكذلك المشاكل الناتجة عن كثرتها وتداخلها مع بعضها.

ونصل – أخيراً – إلى الفرنسيين الذين كانوا يؤرخون – فى تلك الفترة – "بتقويم الثورة الفرنسية" وكانوا يقيمون احتفالات عظيمة للمناسبات المدنية، كما احتفلوا أيضاً بالأعياد الدينية الإسلامية احتفالاً كبيراً.

ولابد من الأخذ بعين الاعتبار أن اليوم – فى البلاد الإسلامية – يبدأ مع غروب الشمس وعلينا إضافة ٥ ساعات على التوقيت الفرنسى لكى نحصل – تقريباً – على ما يقابلها من ساعات التوقيت العربى **فمثلاً:**

التوقيت الفرنسى		التوقيت العربى
الساعة صفر (١٢ مساءً)	=	الساعة ٥ مساءً (٥٤)
الساعة ٧ صباحاً	=	الساعة ١٢ ظهراً
الساعة ١٢ ظهراً	=	الساعة ٥ عصراً
الساعة ٢٠ (٨ مساءً)	=	الساعة ١ مساءً

والأغلبية العظمى من الناس تربط إيقاع حياتها اليومية بسماع الآذان؛ نظراً لأن قلة فقط من الأفراد هى التى تمتلك ساعات، ولأن المزاول الشمسية لا يستطيع قراءتها سوى المتعلمين فقط.

(٥٤) كذا فى النص، ونعتقد أن الصحيح هو "الساعة الخامسة" صباحاً أو فجراً [المترجم].

ب- المقاييس :

في مـصـر، من الصـعب أن نتـحـدث عن وجـود "نظام" للأوزان والمكاييل يمكن مقارنته "بالنظام المترى" - مثلاً - بسبب عدم وجود معيار ثابت: فمنذ أقدم العصور، ترك الغزاة آثارهم على نظام المقاييس. وفضـلاً عن ذلك، فإن المراجع لا تذكر لنا نفس قيمة الوزن أو المكيال فى مختلف المدن أو فى مختلف مناطق البلاد، بل إن الوزن أو المكيال يختلف حتى حسب المنتجات أو الشيء المراد وزنه أو قياسه. ومع ذلك، يمكننا اعتبار أن "الذراع البلدى" هو أساس النظام المصرى فى القياس، حسبما نعرف.

إن تطبيق "النظام المترى" [أو العشرى] كان حديث العهد جداً حتى فى فرنسا نفسها التى بدأت فى تطبيقه منذ سنة ١٧٩٥ فقط، وتسبب تطبيقه فى مصر فى إضافة المزيد من الارتباك للمصريين الذين اعتادوا القياس بالقدم والوزن بالرطل: لقد استلزم الأمر مرور حوالى قرن كامل لكى تطبق مصر "النظام العشرى" جزئياً.

١- مقاييس الطول:

لن نذكر هنا سوى مقاييس الطول الأساسية والأكثر انتشاراً فى مصر فى تلك الفترة، وهى:

جدول رقم (١)

م	الوحدة		النظام العشرى
١	الذراع البلدى(٥٥)	=	٠,٥٧٧٥ متر
٢	الشِبر	=	٠,١٩٢٥ متر
٣	الفِتر	=	٠,١٦٠٠ متر

ويستخدم البناؤون مقياساً طولياً مختلفاً :

(٥٥) "الذراع البلدى" هو نفسه "الذراع المصرى" القديم الذى كان يتراوح طوله ما بين ٠,٥١ و ٠,٥٣ متر تقريباً [المترجم].

جدول رقم (٢)

م	الوحدة		النظام العشرى
١	القيراط (واحد وثلث ذراع بلدى)	=	٠,٧٧٠٠ متر
٢	القصبة (٦ وثلث ذراع بلدى)	=	٣,٦٥٧٥ متر

أما المقاييس الزراعية، فتتخذ "القصبة" وحدة قياس أساسية:

جدول رقم (٣)

م	الوحدة		النظام العشرى
١	الفدان (٢٤ قيراطًا = ٢٠ قصبة مربعة)	=	٥٩٢٩ مترًا
٢	القيراط (١٦ سهمًا)	=	٢٤٧,٠٤ متر
٣	السهم	=	١٥,٤٣ متر

وتُستخدم "القصبة" في حساب المساحات وطولها يبلغ ٣,٨٥ متر، وبالتالى فإن ضلع الفدان يبلغ ٧٧ مترًا، فالمساحة الكلية للفدان الواحد تساوى - إذن - حوالى ثلاثة أخماس مساحة الهكتار. ومع ذلك، فإننا نلاحظ أن "القصبة الرسمية" - التى تفرض الضريبة على أساسها - تقدر بـ ٣,٦٥٨ متر فقط. وبالتالى، فإن ضلع الفدان يصبح ٧٣,١٦ متر فقط، أى أن مساحة الفدان - فى هذه الحالة - تبلغ ٥٣٥٣ مترًا فقط، أى أكثر بقليل من نصف هكتار... فيحتار الممول. والفدان ينقسم دائمًا إلى٢٤ قيراطًا فى القاهرة والصعيد، ولكنه فى الدلتا يصبح ١٢ أو١٥ أو١٨ أو ٢٠ قيراطًا حسب رغبة المالك المدعمة بنفوذه. وهناك أيضًا ما هو أغرب من ذلك: فالفدان فى أنحاء دمياط عبارة عن مستطيل أبعاده: ٢٤ قيراطًا × ١٨ قيراطًا، أى ٤٣٢ قصبة مربعة، أو ٦٨٧٧,٤٨ متر مربع تساوى سبعة أعشار الهكتار ، وفيما بعد سيزيد أكثر.

ج- المكاييل :

الوحـدة الأسـاسـيـة للمكاييل هى "الأردب". وفى القـاهرة، فـإن الأردب الواحـد يساوى بالضبط ٢٠ صاعًا رومانيًا قديمًا أو نصف قدم مكعب أو ١٨٠ ليترًا. وينقسم الأردب إلى ٢٤ جزءًا (أو رُبعًا) ولكن قيمة الأردب تتعرض - هى الأخرى - للتغيير من مكان لآخر. وسنذكر شيئًا غريبًا بخصوص المكاييل: فالأرز له مكيال خاص به وحده هو "الضـريبـة". و "الضـريبـة" - بدورها - يخـتلف مـقـدارها من مـدينة لمدينة: فـفى القـاهرة، يسـاوى ١٢/١٣ مـن مـقـدار "ضـريبـة" رشـيـد، فى حـين أن "ضـريبـة" دمـيـاط تساوى ١٣/٣٦ بالنسبة لضريبة القاهرة. وضـريبة الأرز تعطى أردبًا وثُلُثَىْ الأردب من الأرز ذى النوعـيـة الجيدة. أمـا إذا كان الأرز من نوعـية أقل جـودة، فـتـعطى الضـريبـة أردبًا ونصف الأردب. وهناك وحدة كيل للسوائل خاصـة بالماء وحده، هـى "القربة" التى تحتوى على ٢٠ كجم من الماء تقريبًا.

د - الموازين :

"الدِّرْهـم" هو وحـدة القيـاس الأسـاسـية. وأصـل هـذه الكلمة إغريقى (دراخم) ووزنه يسـاوى ٣,٠٨٨٤ جرام. ومـضـاعـفـاته هـى: ١٠ أضـعـاف و١٢ ضـعـفًـا، وفى أحيان قليلة يصل إلى ١٦ ضعفًا.

جـدول رقـم (٤)

م	وحـدة الوزن		النظـام العشـرى
١	الأوقية (١٢ درهمًا)	=	٣٥,٩٤٦٨٤٨٠ جرام
٢	الرطل القبانى (١٤٤ درهمًا)	=	٠,٤٤٣ كجم
٣	الأقة (٤٠٠ درهم)	=	١,٢٣٥ كجم
٤	القنطار (١٤٤٠٠ درهم)	=	٤٤,٣٣٦ كجم

ووزن القنطار يتراوح ما بين ١٠٠ و١٥٠ و٢٧٥ رطلاً حسب نوع الحبوب. فإذا وضعنا فى الاعتبار أن الرطل أو القنطار يساوى مكيالين – من جهة – وأن الحبوب – من جهة ثانية – هى أشياء يتم وزنها، فسنلاحظ فوراً أن وزن الحبوب غير ثابت. وهذا ما يوضحه الجدول التالى:

جدول رقم (٥)

م	النوع		النظام العشرى
١	حبة القمح (٠,٠١٥٦٢٥ درهم)	=	٠,٠٤٨١٠٧٩ جرام
٢	حبة الشعير (٠,٠٢٠٨٣٣ درهم)	=	٠,٠٦٤١٤٣٩ جرام
٣	حبة خروب (خروبة)[٥٦]	=	٠,١٩٢٤٣١٥ جرام

وهذا ما يفسر التفاوت الواضح فى الأوزان الناتج عن وقوع خلط بين الوزن والكيل. وتُستخدم "الأُقة" فى الوجه البحرى ، بينما يكثر استخدام "الرطل" فى باقى أرجاء البلاد. ولابد من الإشارة إلى أنه لا يوجد نظير "للأقة" أو "الرطل" فى سائر بلاد السلطنة. ومع ذلك، فإن وجود ما يعادل "الرطل" و"القنطار" – كوحدتى وزن – فى موانئ شبه الجزيرة العربية ومصر وفينيسيا [البندقية] يثبت أن هاتين الوحدتين قد أدخلهما تجار فينيسيا [البندقية] إلى تلك البلاد عندما كانوا يسيطرون على التجارة فى البحر المتوسط، حسبما قال الرحالة بروس (Bruce) .

ولوزن الذهب والأحجار الكريمة وشبه الكريمة، تستخدم الوحدات التالية:

جدول رقم (٦)

م	النوع		النظام العشرى
١	المثقال (درهم ونصف = ٢٤ قيراطًا)	=	٤,٦١٨ جرام
٢	الدرهم (١٦ قيراطًا)	=	
٣	القيراط (٤ حبات)	=	

(٥٦) من الكلمة الإغريقية "Caration" التى أعطتنا الكلمة العربية "قيراط"، وهو وحدة وزن للأشياء الصغيرة (المؤلف).

إن نظام المقاييس هذا غير مريح، واستمرار العمل به يرجع فقط لمجرد تعود الناس عليه، ولابد من مرور سنوات طويلة لكى يتم – أولاً – توحيد النظام القياسى فى مصر كلها، قبل تعديله وتبسيطه فى مرحلة لاحقة.

السنج والموازين :

تأخذ سنجة الميزان عدة أشكال فمنها: الأسطوانى، والمكعب، والمكعب ناقص الزوايا، ومتعدد الأوجه. وبصفة عامة، فسنجة نصف الرطل والرطل والرطلين تأخذ شكل حلقة تشبه الهلال غير مكتمل الإغلاق لكى يمكن إدخالها فى حبل وذلك بجذب طرفى الهلال أو بربط طرف الحبل على حافتى السنجة. وتصنع السنج من خليط من النحاس والبيزموت[٥٧].

وصغار الباعة يستخدمون قطعة حديدية أو من الزلط. ولوضع حد لهذا الاستغلال للمشترين، تم تعيين "أغا" يجوب الأسواق لمعاقبة جميع أشكال الغش. ولتجنب المشاكل يستخدم التجار سنجاً أثقل.

والميزان صغير الحجم ويمسكه البائع بيده أو يجعله معلقاً بحبل قصير، وهو قليل الحساسية ومن الصعب جعله يميل. وللأوزان الكبيرة، فإنهم يستخدمون الميزان الرومانى[٥٨] الذى يقسم حسب الأوزان المستخدمة.

هـ – النقود :

منذ زمن بعيد، توجد فى مصر جماعة من اليهود تقوم بدور المورد الرئيسى – من الذهب والفضة – لدار "ضرب النقود" وهى التى تديرها . وهذه الجماعة لها: "صرافون" يقيمون فى المدن الرئيسية، ومهمتهم الأساسية هى شراء الذهب والفضة لحسابها.

---

(٥٧) بيزموت (Bismuth) عنصر فلزى يستعمل بخاصة ممزوجاً بمعادن أخرى [المترجم] .

(٥٨) هو الميزان القبانى [المترجم] .

ويعرض الذهب على شكل تبر أو مشغولات بسيطة للغاية، ويوضع كله فى صُرة لها قيمة ثابتة بعيار ٢١ – ٢٢ قيراطا وتساوى الصرة ٣٦٦٠ مدينيا أى ١٢٨٨,٧٣ فرنك.

١- العملات الذهبية :

توجد فى مصر ثلاث عملات ذهبية مختلفة هى:

أ – "الزر محبوب" (سكين، زكينو)[٥٩]: وهو عملة ذهبية مسكوكة من الذهب المخلوط بالفضة، عياره ١٦ و ٣/٤ قيراط وعليه طغراء السلطان ومكتوب عليه بالعربية = ١٨٠ مدينيا (لكن قيمته الإسمية تساوى ١٢٠ مدينيا) = ٦,٣٣٨٠ فرنك فرنسى.

ب- النصفية: (١/٢ سكين): عملة ذهبية مسكوكة من الخليط نفسه وبالعيار نفسه، وهى تساوى نصف وزن وقيمة "الزر محبوب" وقيمته ؛ أى أنها تساوى ٦٠ مديناً.

ج- "الربعية" (١/٤ سكين): وهى مسكوكة من الخليط نفسه وبالعيار نفسه كذلك الخليط وبنفس العيار ولكنها نصف وزن وقيمة النصفية ، وقيمتها الاسمية تساوى ٣٠ مدينياً.

٢- العملات الفضية :

توجد "البارة" أو "الميدى" (المدينى) وتساوى ٠,٠٣٥٢١ من الفرنك الفرنسى، وهى على شكل قطع من فئة: ٤٠ و٢٠ و١٠ و٥ بارة (أو مدينى) والألف قطعة منها تزن ٧٣ درهمًا (= ٢٢٤,٧٦ جرام) وعيارها ٣٥٠ وتساوى ٣٥,٢١ فرنك فرنسى، والخليط فيها يصل إلى حوالى ١/٣ وزن القطعة. وتوجد طغراء السلطان على أحد وجهيها؛ وعلى الوجه الثانى، توجد عبارة "ضرب فى مصر" مع سنة جلوس السلطان. وأثناء وجود الحملة الفرنسية، ضعفت قيمة "البارة": فبعدما كانت تساوى ٠,٧٥ من قيمة الفرنك الفرنسى، أصبحت تساوى ٠,٣٠ فقط.

---

(٥٩) السكين" (Zecchino = Sequin) نقد ذهبى إيطالى قديم [المترجم] .

٣- العملات البرونزية:

"الجديد" هو العملة البرونزية فى مصر، وقيمته ضئيلة للغاية: فعشرة قطع من "الجديد" تساوى بارة واحدة.

٤- العملات الأجنبية:

يستخدم المصريون العملات الأجنبية بكثرة تثير الدهشة مثل:

- "الكيسة": التى تساوى ٥٠٠ قرش تركى والقرش التركى = ٤ بارات مصرية. فالكيسة إذن تساوى من ٧٠٠ إلى ١٤٠٠ فرنك فرنسى،

- "القرش التركى": يساوى ٤٠ مدينيًا مصريًا،

- "القرش الأسبانى": يساوى ١٥٠ مدينيًا مصريًا،

- "التاهلر" (التالارى) (Thaler أو Thalari) وهو عملة نمساوية تساوى ١٥٠ مدينيًا مصريًا،

- "السكين الإستامبوللى" (Sequin) : الذى يساوى ٢٠٠ مدينى مصرى،

- "السكين البندقى": يساوى ٣٤٠ مدينيًا مصريًا،

- أما "الريال أبو طاقة" (Pataque) فهو مجرد عملة حسابية. وهذا الاسم أطلقه أهل بروفانس - فى فرنسا - على داهلر (تاهلر) الإمبراطورية النمساوية، وأطلق العرب على هذه العملة اسم "ريال أبو طاقة" لوجود شكل يشبه الطاقة فيه، ويلاحظ القارئ أن التحريف قد أدى إلى ظهور كلمة "Pataque" فى اللغة الفرنسية (أبو طاقة > باتاك). وهذه العملة ذهبية وتبلغ قيمتها ٩٠ بارة مصرية، لكنها فى القاهرة، تساوى ٨٥ بارة فقط وكذلك الأمر فى الإسكندرية ورشيد ودمياط.

وعندما وصل بونابرت إلى مصر، كانت "دار الضرب" تستخدم ٣٩ عاملاً. فعين بونابرت - فوراً - مسئولاً جديداً عنها، هو ج. ل. تاليان (J.L. Tallien) . وطوال فترة وجود الحملة الفرنسية فى مصر، تم ضرب ٢٦١٧٢٧ سكيناً ذهبياً بلغت قيمتها ١٦٥٨٠٣٣,١٠ فرنك فرنسي. ولضرب قطع ذهبية جديدة، تم الحصول على الذهب المطلوب بجمع قطع السكين الذهبى البندقى - المتوافر فى مصر - والقطع الذهبية القديمة.

وبالنسبة للمدينى، فقد تم ضرب ١٦٠٨٢٩٩١٢ قطعة قيمتها الإجمالية تبلغ ٥٦٦٣٠٢٥,٧٠ فرنك فرنسي. وكان السكين الذهبى الذى يزن ٢,٥٩٢ جرام يساوى ١٨٠ مدينياً. وحملت قطع المدينى تاريخى ١٢١٣ و ١٢١٤ (الموافقتين لسنتى ١٧٩٨ و١٧٩٩م). وكانت هذه القطع تشبه أول سكين ضربه السلطان سليم. ووجدت أيضاً قطع فئة نصف سكين تزن ١,٢٩٧ جرام.

وكانت بعض القطع تحمل الحرف الأول من اسم بونابرت "ب" بدلاً من التاريخ الذى يحدد تاريخ إصدارها، واستمر إصدار تلك القطع بهذا الشكل فى عهدى كليبر ومينو.

وسننهى هذا الفصل بملحوظة لطيفة خاصة بقطع النقد المدينى: لقد كانت هذه القطع الفضية صغيرة للغاية وخفيفة الوزن لدرجة أن المصريين كانوا يتجنبون عدها فى الهواء، وكان التجار المصريون يحفظونها فى أفواههم فكان الشخص منهم يضع فى فمه من ١٥٠ إلى ٢٠٠ مدينى بدون أن يلاحظ أحد ذلك، ولم يبد أن هذه الطريقة كانت تسبب لهم أى ضيق فى الأكل أو الشرب، وكان الفرنسيون يضحكون لرؤيتهم وهم "يبصقون" النقود لدفع ثمن المشتريات.

الفصل الرابع

الوسط العائلى

أولاً: المنزل:

أ- فى المدن المصرية، كانت المنازل تتكون، عادة ، من طابقين أو ثلاثة وبها أسطح مبلطة بمربعات عريضة من الحجر الجيرى. وأغلب تلك المنازل كان مبنيًا من الطوب اللبن والآجر غير المحروق جيداً ، كما كان البعض الآخر مبنيًا بالحجر ولكن بدون ذوق. وكانت المنازل تشبه السجون بحوائطها العالية الخالية من النوافذ، إلا إذا كان بها مشربيات تضيف لمسة من الجمال على واجهات بعضها . كما كانت أبواب المنازل منخفضة وضخمة ومزودة بمطارق برونزية.

أما بالداخل، فلم يكن بها نظام ولا تناسب فى المقاييس: فبجوار غرفة فسيحة وعالية الجدران نجد، غالبًا ، حجرات صغيرة ومنخفضة تكاد تشبه الزنازين (يسكنها خدم المنزل). وبالإضافة إلى ذلك، لم تكن الحجرات على مستوى واحد من الارتفاع.

وحجرات السادة كانت كبيرة وعالية الجدران، ونوافذها تشغل، غالبًا، طول الحائط بأكمله وعرضه. وهذه النوافذ كانت تبرز قليلاً لتكوين "مشربية". والمشربية عبارة عن : شرفة يقفلها ساتر من الخشب الخرط به فتحات صغيرة تفتح بالانزلاق أو بواسطة مصراع. وخلف المشربية، قد يوجد لوح زجاج منزلق.

ويجهل النجارون المصريون استعمال المعجون فى تثبيت الألواح الزجاجية التى كانت غالبًا مركبة بشكل سيء فى مزالق خشبية، كما يجهلون أيضًا استخدام قطعة الألماس لتقطيع الزجاج: فهم يستخدمون نوعًا من أحجار الصحراء لأداء هذا العمل بشكل سيء. والنتيجة تكون دائمًا غير مرضية: فإذا نقصت قطعة من الزجاج، يقوم الحرفيون بإضافة قطعة صغيرة فوقها؛ وإذا سقطت، يضع غيرها مكانها.

وفى الطابق الأخير، يوجد باب يفتح من أعلى ويحميه سقف منحدر من أشعة الشمس. وهذا الباب موجه ناحية الشمال، ويسمح بدخول الهواء المنعش لترطيب الحجرات أثناء الصيف[1].

وبما أن الشرفة محجوبة عن أنظار الفضوليين، فهى تسمح للسيدات بالاسترخاء فى المساء. ومع ذلك، فإن السيدات يتجنبن البقاء فى المشربية لمدة طويلة خوفًا من "الطل" أو "الندى" الذى يشاع عنه أنه يؤذى العين.

والمرحاض لا توجد به أية نوافذ، وجانبا فتحة المرحاض مرتفعان قليلاً. ويقضى الإنسان حاجته وهو مقرفص كما يحدث فى الحقول. وهذه الطريقة فى صالح نظافة المكان الذى يوجد به - أيضًا - إناء كبير به ماء مخصص للاستنجاء. ولكل شقة مرحاضها الخاص بها، وللخدم أماكنهم الخاصة بهم فى الفناء.

وتشتمل المنازل، عادة، على بئر وحمام وطاحونة، وحصان أو ثور لإدارة عجلة البئر أو حجر الرحى. وفى منازل الأثرياء، تكون أرضية الفناء مبلطة بالفسيفساء متعددة الألوان ونافورة للزينة موضوعة فى المنتصف.

ويمتلك بعض الأثرياء - وكذلك بعض التجار الفرنسيين - منازل ريفية فى الجيزة تطل على جزيرة الروضة زاهية الخضرة.

ب- الأثاث:

الأثاث المنزلى - فى الشرق - محدود للغاية: فتوجد أرائك بطول الحوائط، والأرض مغطاة ببعض الحصائر، ويجلس الناس عليها متربعين.

ولا توجد غرفة مخصصة للنوم، ولا توجد أسرة بل توجد أربع وسائد كبيرة موضوعة على سجادة أو مرتبة قطنية، اثنتان على يمين الغرفة واثنتان على يسارها

---

(١) يقصد المؤلف وصف "ملقف الهواء" الذى تكون فتحته دائمًا متجهة ناحية الشمال/ الغربى لإدخال الهواء "البحرى" المنعش لترطيب حجرات المنازل صيفًا [المترجم] .

لتحديد مكان النوم. وينام الناس، عادة، على جنوبهم وتستخدم الوسائد كمساند للساق أو الذراع.

وتوضع ناموسية من الحرير أو الموسلين على أُكرة النافذة وتسدل على النائم. ومفارش السرير غير معروفة لديهم لكن يوضع على غطاء السرير ملاءة من الكتان أو القطن تحل محل المفرش؛ وعندما تتسخ الملاءة، يغسلونها. والأكثر فقراً ينامون بملابسهم على الأرض أو فوق حصيرة رديئة الصنع ويضعون حجراً تحت رءوسهم عوضاً عن المخدة.

وتعانى كل المنازل، تقريباً، من الإهمال والقذارة، والكثير منها فى حالة تبعث على الرثاء. والمنزل ذو المظهر الخارجى الحسن يعتبر دليلاً ظاهرياً على ثراء المالك وقد يثير حسد وغيرة المماليك وأتباعهم: فلا يترددون فى مصادرته لحسابهم الخاص أو، على الأقل، يفرضون على المالك غرامات جديدة بحجة أنه تهرب من دفع الضرائب. ولتجنب المضايقات والغرامات، يفضل الناس الظهور بمظهر الفقر أو حتى مظهر البؤس.

ثانياً: الأُسرة والخدم:

أ - الأُسرة:

ما زالت الأسرة المصرية تحتفظ بنمطها البطريركى [الأبوى] المحافظ ، على الرغم من حدوث الانقلابات الاقتصادية التى ألمت بالبلاد. والأسرة المصرية كيان حقيقى يتجاوز النواة الأساسية، أى الأب والأم والأولاد: فالأسرة، بمفهومها الواسع، تساهم فى رفعة أو سقوط أى فرد من أفرادها. والفرد - الذى أصاب النجاح - لا يحق له رفض مساعدة من لم يحالفهم الحظ بعد من أفراد أسرته لأنه يدرك أن هؤلاء الأشخاص، فى المقابل، سيساعدونه إذا قلب له الزمان ظهر المجن. ومن هنا، ظهر مبدأ محاباة الأقارب - فى الوظائف وغيرها - الذى يعتبر شيئاً طبيعياً فى مصر.

وبالإضافة إلى ما سبق، فإن الدين ليس بغريب عن تكريس بعض مظاهر مبدأ المحسوبية: فأعضاء الطائفة الدينية يتضامنون - فيما بينهم - تحت شعار "التضامن

الإسلامى" للمسلمين و"المحبة المسيحية" للمسيحيين، والهدف النهائى لذلك كله هو منع المنافسين من الحصول على المناصب وقطع الطريق عليهم.

وكبير العائلة يحظى بالطاعة والاحترام التامين: فسنه وخبرته يفرضان التبجيل والامتثال لأوامره على أفراد العائلة. وعندما يتخذ قراراً ما، لا يستطيع أى فرد مناقشته فيه، وله اليد العليا فى كل ما يتعلق باقتصاد العائلة ومستقبلها فهو الذى يعقد الاتفاقات ويقرر الزيجات.

١- النساء والحريم:

نظرياً، من حق المسلم أن يتخذ أربع زوجات: فالإسلام يسمح له بذلك شريطة أن يعدل بينهن. ومن حقه - أيضاً - أن يتخذ أى عدد يشاء من المحظيات والإماء اللاتى يستطيع إعاشتهن. والأولاد الذين يأتون نتيجة لهذه العلاقات الشرعية أو العابرة يكونون كلهم شرعيين، ويرثون أباهم على قدم المساواة، لكن البنات يرثن نصف نصيب الأولاد حسبما تنص الشريعة الإسلامية.

وفى الواقع العملى، فإن السيدات يتركن إدارة أعمالهن لأزواجهن أو لأحد أقاربهن من الذكور نظراً لأنهن لا يشاركن فى الحياة خارج المنزل ، كما أن وضعهن يتطلب منهن ألا يخرجن من منازلهن. أما نساء الطبقات الأكثر فقراً، فلا ينطبق عليهن ما ذكرناه آنفاً.

ويظل المنزل بمثابة سجن الجوارى الجميلات . وعلى عكس الاعتقاد السائد، فإن النساء لا يعانين من حبسهن لأنهن، ببساطة، لا يعرفن غير هذه الحياة، ولا يستطعن مقارنة نمط حياتهن هذا مع أى نمط آخر من أنماط الحياة الاجتماعية: فمنذ نعومة أظفارهن، يعرفن أن الزواج والإنجاب هو مصيرهن الوحيد، وأن واجب الزوجة الوحيد هو إمتاع زوجها وإنجاب الأطفال له. والخوف من الطلاق أو قتل الزوج لزوجته هو الذى يكبح جماح أى محاولة للفجور.

وفيما يتعلق بالمظهر، فإن المصريين والأتراك يفضلون – قبل أى شيء – المرأة البدينة. وعلق أ. جاللان على ذلك بقوله: "إنهم لا يريدون منها سوى أن يكون لها: عيون الغزلان ووجه مستدير مثل القمر ومؤخرة مثل الوسائد". ولكن هذا الوصف مجرد صورة هزلية: ففى الواقع، نجد أن المصريات – بصفة عامة – ذوات أجساد رشيقة، لكن ملامحهن ليست دقيقة، وأثداؤهن رخوة ومتهدلة، وبطونهن بارزة، وأسنانهن بيضاء، والعيون سود ومعبرة ومكحولة بكميات كبيرة من الكحل. وسيدات الطبقة الميسورة يتصفن ببياض بشرتهن، ولكن نساء الطبقة الشعبية يكون لون بشرتهن برونزياً لأنهن يتعرضن للشمس والهواء أكثر من سيدات الطبقة الراقية. إن الترف والرخاوة يميزان السيدات الثريات، بينما النساء الشعبيات يتصفن بتعودهن على العمل.

وأبواب "الحرملك" لا تفتح إلا للزوج والأطفال والأب والطبيب أو الكاتب (وهو السكرتير الذى تستخدمه، عادة، سيدات الطبقة الراقية). ولا يُستدعى الطبيب إلا فى الحالات الحرجة، ولا يستطيع رؤية المريضة إلا بحضور الجوارى والخصيان. وحتى فى هذه الحالة، فإن السيدة تظل محتفظة بحجابها. أما الكاتب، فإنه يبقى فى غرفة قريبة ويكتب ما تنقله إليه الوصيفة الأولى للسيدة عنها. ولابد من ذكر السقاء الذى كان له دوره فى المغامرات العاطفية.

وأثناء الحديث، فإن الرجل لا يأتى أبداً على ذكر زوجته أو (زوجاته) بل يشير فقط إلى "العائلة" أو "الناس اللى فوق". وبصفة عامة، يسود قدر كبير من الاحتشام فى البيوت ، لدرجة أن "العوالم" لا يدعين إليه إلا نادراً.

وغالبًا ما تحمل الزوجة قبل أن تبلغ الحادية عشرة إلا أنه من النادر أن تستمر فى الحمل والإنجاب بعد سن الأربعين لأن كثرة مرات الحمل والإنجاب المتكرر تكون قد أنهكتها. وتتمتع المرأة المصرية بخصوبة فائقة، ونسبة إنجاب التوائم فى مصر متساوية مع باقى بلاد العالم.

إن الجهل والإهمال والأمراض تجعل نسبة وفيات الأطفال مرتفعة جداً حسبما ذكر ديجينيت – كبير أطباء الجيش – فى تقاريره الخاصة بالصحة العامة. ويظهر على

النساء كبر السن بسرعة ، فيذبلن فى سن الثلاثين بسبب كثرة الحمل والإنجاب وعندئذ يتزوج الرجل بزوجة جديدة.

وتخضع المرأة للرقابة المستمرة من كل ناحية، والوشايات الشائعة فى هذه الأوساط المغلقة تجعل أى انحراف شبه مستحيل. وأى خطأ - مهما صغُر- تُعاقب عليه المرأة كما لو كان جريمة، والجريمة لها عقابها القاسى: فالزوجة الزانية، مثلاً، توضع فى جوال ومعها قطة وديك وثعبان ويخيط الجوال ويلقى فى النيل. ومع ذلك، فالمرأة المتزوجة التى تلفت نظر أمير مملوكى يجب أن تُقدم إليه وإلا قُتل زوجها. إن الشريعة الإسلامية غير قادرة على حماية النساء من بطش المماليك، هذه العصابة من قطاع الطرق الدمويين. أما العاهرات فيتم إغراقهن أو... التسامح معهن.

وكان تواجد قوات الجمهورية الفرنسية فى مصر مجرد لحظة استثنائية لبعض النسوة : لقد بلغ عدد جنود الحملة ٣٦ ألف جندى ، واستطاعت ٣٠٠ زوجة فرنسية، فقط، اللحاق بأزواجهن. وإزاء هذا النقص الكبير فى النساء الفرنسيات، اضطر العسكريون إلى أن يولوا وجوههم شطر النساء الشرقيات.

ويذكر نيقولا الترك أن الفرنسيين كان لديهم عدد كبير من البنات المسلمات، خصوصًا من الجوارى السود والبيض اللاتى انتزعن من قصور المماليك الهاربين. وطلب الفرنسيون من تلك الجوارى أن يرتدين الملابس الأوروبية وجعلوهن يخرجن - سافرات الوجوه - إلى الأماكن العامة ، كما كان لهن مطلق الحرية فى الخروج من منازلهن للنزهة كما يشأن.

أما من تزوجن من فرنسيين، فكن يخرجن متأبطات أذرع أزواجهن ويشتركن فى المناقشات. وكان الحراس يمشون أمامهن وهم مسلحون بالهراوات لحمايتهن من الشتائم التى كان يوجهها إليهن الناس المستاءون من هذه الفضائح.

ولا ننسى ذكر حالة ابنة الشيخ البكرى "التى تفحشت مع الفرنسيين". و ذكر ج. ديفريه (J. d' Ivray) أن الزنجيات استفدن من هذا الوضع إلى أقصى حد، وكسرن أغلالهن، ولجأن إلى كل وسيلة للوصول إلى الفرنسيين لدرجة أنهن كن يدبرن لقاءات سيداتهن بالفرنسيين ، أو يكشفن عن الكنوز التى خبأها الأمراء المماليك.

ولكن بعد رحيل الحملة الفرنسية عن مصر، كان عقاب تلك النسوة المنطلقات رهيبًا: فقد ذكر الجبرتى أن ٢٠٠ امرأة قد قتلت أو بيعت كجارية فى القاهرة وحدها.

وبما أننا نتحدث عن النساء، علينا أن نذكر بضع كلمات عن الفرنسيات اللاتى صحبن أزواجهن إلى الشرق، فمنهن شخصيات فذة مثل: السيدات فوريس (Mme Fourès)، وڤيردييه (Verdier) ، وتامبيه (Tempier) التى كانت زوجة ملازم فى البحرية وكان عدم معرفتها للغة الفرنسية موضع تندر الجيش كله.

وأدرك بونابرت أهمية العنصر النسائى لجيشه، فأرسل "لحكومة الإدارة" – فى فرنسا – يطلب منها إرسال فرقة مسرحية ومائة امرأة. ووصل الممثلون متأخرين جداً أما النسوة، فلم يصلن قط.

ولنعد الآن إلى الحرملك : حيث تسير الأمور حسب قواعد صارمة: فكان الزوج يعلن دائمًا عن وصوله لمخدع زوجته، أو زوجاته، عن طريق أحد الخصيان أو إحدى الجوارى. ولم يكن الزوج يدخل أبداً إلى الحرملك إذا كانت به زائرة غريبة عنه. وكانت الزوجة تخفى الجوارى اللاتى قد يشتهيهن زوجها ، لكنها قد تلاحظ أن الزوج يشتهى إحدى الجوارى فيكون لديها قدر من الحصافة والكياسة فتنسحب وتتركه معها، بل إن بعض الزوجات كن، أحيانًا، يقدمن للزوج جارية جميلة بصفة محظية لكى تحتفظ هى بمكانتها كزوجة. وفى المقابل، كانت تلك المحظية تشعر بالعرفان بالجميل لسيدتها التى أتاحت لها هذه الفرصة.

وعلى الجانب الآخر، كانت أرامل البكوات المماليك يتزوجن، أحيانًا، من أتباع الزوج الراحل. وفى هذه الحالة، كانت الزوجة تسيطر سيطرة تامة على هذا الرجل الذى انتزعته من المجهول ورفعته فوق ما كان يطمح.

٢- الأطفال:

فى مصر، ترضع الأم طفلها مدة طويلة وعندما لا تستطيع إرضاعه، فإنها تستدعى مرضعة. وفى هذه الحالة، كانت المرضعة تعامل وكأنها إحدى أفراد الأسرة

وليست كخادمة. وتهتم الأم، غالبًا، برضيعها بشكل مبالغ فيه: فتكسوه بملابس كثيرة وتعطيه أكثر مما يحتاج من طعام لدرجة أن الرضيع قد يهلك من جراء ذلك. والأمهات البدويات يعهدن، أيضًا، بالرضيع إلى مرضعة. لكن الفلاحات، على العكس، يرضعن أطفالهن بأنفسهن لأنهن أقرب إلى الطبيعة.

وعلى الرغم من ذلك، فإن الأطفال لا يتمتعون بصحة جيدة: فيقول ديتروا (Detroye) فى مذكراته أنه رأى فى القاهرة "أطفالاً لونهم أصفر، وبنيتهم هزيلة، وتغطى أجسامهم القروح والذباب". وهذا ما جعله يفترض سوء الحالة الصحية للأطفال وضعفها.

ب- خدم المنازل:

فى هذا القسم من الكتاب، يجب علينا أن نميز بين الخدم الأجراء والعبيد.

١- الخدم الأجراء:

بلغ عدد الخدم الأجراء، فى القاهرة، حوالى ٣٠ ألف أجير ينقسمون حسب المهن التى يقومون بها إلى فئات: السياس، والفراشين، والقواسين (أو القواسة).

السائس: هو الذى يعتنى بالخيل وينام بالقرب منها، ويتقاضى نصف رطل من الخبز وبارتين يوميًا بصفة أجر. لكنه يعوض هذا الأجر الضئيل ببعض المكاسب الصغيرة غير القانونية لكنها تسمح له بأن يعيش فى وضع أفضل نسبيًا. وفى مثل هذا الظرف، لا يستطيع السائس التفكير فى الزواج فيظل خاضعًا لسيده.

الفراش: هو الذى يعتنى بنظافة وإضاءة المنزل وأثاثه ، ويقيم فى منزل سيده ولا يتركه إلا عند الزواج عندما يصبح رئيسًا للفراشين. وهذا الخادم يعكس صورة سيده ووضعه ، ولذلك فإنه يرتدى دائمًا ملابس أنيقة. وهذه الفئة من الخدم هى التى تشارك

السادة فى ملذاتهم المنحرفة. وأجر الفراش مرتبط بالطبع برغبة سيده فيه وبمظهر الصبى وبنيته الجسمانية. وبإمكان الفراشين امتلاك منزل صغير أو اثنين وزوجة أو اثنتين وأثاث جيد، وبعض المجوهرات لزوجاتهم.

القواس: يسير القواس أمام الأثرياء الشرقيين ويفسح لهم الطريق، وهو الذى يحمل أوامر وتعليمات سيده إلى المدن والقرى المجاورة. وعادة ما يكون القواس فلاحًا ضخم الجثة وقويًا. وأجره عبارة عن جراية يومية من الخبز، لكنه يعوضه بالحصول على مبالغ صغيرة من الذين يحمل الأوامر إليهم... عندما يكون سيده ذا مكانة. والقواس الذى يعمل لدى الكبراء هو الذى ينفذ العقوبات وعمليات النهب التى يأمر بها سيده. ولبسه المميز عبارة عن: ملابس مصنوعة من نسيج خشن أسود اللون، وشال من الصوف، وطاقية من اللباد فوقها طربوش ويضع بينهما أوراقًا أو قماشًا لوقاية رأسه من الضربات. ورئيس القواسين هو "المقدم" الذى يرتكب العديد من عمليات الابتزاز دون عقاب، ويغتنى بسرعة، ومن النادر أن يغير السيد الذى يخدمه.

وبصفة عامة، فإن الشرقيين يعاملون خدمهم معاملة جيدة، بالطبع مع استثناء العقوبات القاسية - نوعًا ما - التى ينزلها بالخادم أحد السادة المتسرعين أو ذوى المزاج السيئ . وعندما يغتنى هؤلاء الخدم، فإنهم يصبحون وقحين ونمامين ومخادعين وقساة، بل ويصبحون أسوأ من أسيادهم المماليك.

٢- العبيد:

تمتلك الأسرة عددًا من العبيد - يزيد أو يقل - حسب وضعها الاجتماعى وإمكانياتها المادية ، وتقتنى الأسرة العبيد لكى يعملوا لديها وأيضًا لكى ترفع من هيبتها حسب العدد الذى تملكه منهم.

والعبيد والإماء السود يجلبون من بلاد السودان والأجزاء الداخلية من أفريقيا حيث ينتزعهم النخاسون العرب من أوطانهم. وفى القاهرة، يتم تسكينهم ويباعون فى "وكالة الجَلابَة". أما فى الإسكندرية، فيتم ذلك فى "ميدان القناصل".

وفى العادة، لا يرتدى هؤلاء العبيد سوى بعض الأسمال لستر عوراتهم. وفى ساعات مُحَدَّدَة ، يخلط النخاسون بعض الدقيق بالماء فى مزود فيأكل العبيد هذه العصيدة. ويتعمد النخاسون الإبقاء عليهم ضعفاء لمنعهم من الفرار. وهؤلاء العبيد – من الجنسين – يكونون عادةً صغار السن وذوى بنية قوية وبشرتهم شديدة السواد.

ويُباع الرأس الواحد منهم بمبلغ يتراوح ما بين ٣٠ و٣٥ زرًا محبوبًا (٢٠٠ – ٣٠٠ فرنك فرنسى). ومن حق المشترى رد البضاعة المشتراة إذا لم تعجبه ، أو إذا اكتشف بها عيبًا خفيًا خلال أربعة أو خمسة أيام من تاريخ الشراء ، ومن حق العبد أن يجبر سيده على إرجاعه للنخاس إذا اختلف معه.

وعلينا أن نتذكر أن الأديان السماوية الثلاثة لا تمنع العبودية بشكل حاسم إلا أنها وضعت قواعد صارمة بخصوص معاملة هذه الكائنات المستعبدة. وأيضًا، علينا أن نعرف أن المالك المسلم يعتبر، دائمًا، عبده بمثابة أخيه فى الدين ويصبح العبد كأنه ابنه بالتبنى. ويبدو أن المسيحيين لم يكونوا يعاملون عبيدهم بنفس هذه المعاملة الحسنة.

وفى العادة، يبيع النخاسون "أسراهم" البيض مباشرة إلى المنازل التى سبق لها وأن "أوصت بالطلبية". وهؤلاء الأرقاء البيض يكونون، عادة، صغيرى السن جداً ويجلبون من الأقاليم التركية المجاورة للبحر الأسود. والعبد الشركسى يساوى من ٦٠٠ إلى ٨٠٠ سكين (٣ آلاف فرنك فرنسى) ومما هو جدير بالذكر أن "الألفى بك" اكتسب اسمه هذا لأن سيده دفع ألف سكين ثمنًا له.

والعبد جزء لا يتجزأ من ثروة المالك الذى يستطيع بيعه أو استبداله أو عتقه حسب رغبته. ومن النادر أن يسىء المالك معاملة عبده . لكن إذا حدث ذلك، فمن حق العبد أن يشكو سيده إلى القاضى. وواجبات العبد تقتصر على أداء الخدمات المنزلية فقط ولا يمارس الأعمال الزراعية أبداً. وتكاد تكون العناية بالخيل هى أشق الأعمال التى يفرضها عليه وضعه الاجتماعى.

أما الأرقاء البيض فيندمجون فى أسرة سيدهم. ويلعب الجمال الجسدى لهؤلاء الأرقاء البيض دوراً مهماً فى تحديد مصيرهم. ويحدث أن يُعتق أحدهم بعد عدة سنوات أو مع وفاة مالكه ، ودائماً ما يبدى المعتوق احتراماً وإخلاصاً شديدين لسيده السابق طوال فترة حياته بعد عتقه . ومن الصعب على رجل حر أن يفهم هذا الاحترام والإخلاص اللذين لا يفسرهما سوى العرفان بالجميل.

ومع ذلك، يجب علينا ألا نكوِّن صورة مثالية عن المماليك، فمنهم مَن لم يتورعوا عن خيانة من يحسن إليهم(٢). ففى بعض الحالات – مثل عدم وجود وريث للسيد – كان المملوك يستولى على إرث سيده المتوفى.

وهناك حالات كثيرة للعديد من المماليك العتقاء وصلوا إلى أعلى ذرى المجد لأن الناس، فى مصر، لا يحتقرون رجلاً ما لمجرد أنه كان عبداً ثم أُعتق. وكان البكوات المماليك يعتبرون الأرقاء البيض حاشيتهم العسكرية وحرسهم الخاص.

وعندما يرغب المالك فى عتق أحد عبيده، يكفيه أن يعلن أمام شهود "صيغة العتق"، وهى صيغة بسيطة، ويكتب حجتها لإثبات الحالة. ومع ذلك، فإن هذه الحُجة غير ضرورية لعتق العبد.

وشكَّل الخصيان فئة شديدة الخصوصية: فهم الذين كانوا يحرسون الحريم. وكان ثمن الخصى الواحد يبلغ ضعف – وأحياناً ثلاثة أضعاف – ثمن العبد العادى. ويمنع الدين الإسلامى خصى العبيد لأن هذه العملية تدمر مصدر الحياة ويعتبرها المسلمون جريمة. إن عادة استخدام هذه الكائنات العاجزة لهى عادة موغلة فى القدم فى بلاد الشرق، وعملية خصى صغار العبيد السود كانت لا تزال مستمرة فى أماكن نائية فى الصعيد. ومن الممكن عتق أحد الخصيان، ولا تسبب له حالته أى شعور بالخزى ، ولدينا أمثلة على أن بعضهم قد شاركوا أسيادهم فى سلطتهم.

والجوارى البيض كن، عادة، من الشركسيات أو الجورجيات أو الروميات اللاتى انتزعن من أهاليهن، أو أن أهاليهن – شديدى الفقر – هم الذين باعوهن ليعيشوا

---

(٢) المثل الشعبى "آخر خدمة الغز علقة" يؤكد تماماً هذا الرأى [المترجم] .

بثمنهن. وتباع الإماء البيض فى المدن الكبرى والمهمة بالإمبراطورية العثمانية، ويرسلن إلى الحرملك وبذلك يستطعن الإفلات من حياة البؤس. ومن النادر أن نجد أطفالاً - صبياناً أو بنات - قد سُرقوا من أهاليهم، ومعروضون للبيع فى أسواق القاهرة أو الإسكندرية.

وتمتلك سيدات الطبقة الراقية جواريهن الخصوصيات اللاتى يعتنين بشئونهن الخاصة. وأول هذه الشئون المهمة هو القيام بدور "الخازندارة" (أو أمينة الخزانة) فتكون مسئولة عن نقود ومجوهرات وملابس سيدتها. وعادةً ما تكون هذه الجارية هى أول من تُعتق من العبيد أو الجوارى. وتأتى "مدبرة المنزل" فى المرتبة الثانية من الأهمية: فهى المسئولة عن المشروبات (من قهوة وشربات وخلافه). وتتبع هذه الجارية جارية أخرى تشرف على المطابخ.

وفى الحرملك، نجد أيضًا سيدات حرائر يقمن، مثلاً، بمهمة الإشراف المالى ، لكن المهمة الأولى والأساسية للخادمات هى: مصاحبة سيدتهن، وعدم تركها أبداً بمفردها، وتلبية رغباتها.

وهناك علامات خارجية للتمييز بين السيدات والجوارى: فالجوارى يرفعن شعورهن فوق رءوسهن، ورداؤهن يكون مقفولاً؛ وبدلاً من الطرحة، يرتدين غلالة من الكتان، أو القطن، يغطين بها وجوههن إذا مر رجل أمامهن.

والآن، ما هو الموقف الذى اتخذه بونابرت تجاه العبودية؟؟ عندما استولى الجنرال على مصر، وجد تجارة الرقيق رائجة بها. لقد أبدى بونابرت احتقاره لمبدأ الاتجار بالبشر، ولكنه تجنب إلغاء هذه التجارة ، بل على العكس: فقد عمل على تنميتها لمصلحة الغزو الفرنسى على مصر، وقام بتجنيد زنوج من العبيد فى جيش الحملة. وماذا كان بوسعه أن يفعل غير ذلك مع هذه الأعداد الكبيرة من الشبان العبيد (بيضاً وسوداً) الذين تركهم سادتهم - الأمراء المماليك - وفروا هاربين ؟!

ثالثاً : الأديان والمعتقدات :

أ- الأديان:

سبق لنا وأن ذكرنا أن أغلب المصريين ينتمون إلى المذهب السني، وتوجد أيضًا أقلية من المسيحيين واليهود غير مسموح لها بممارسة شعائرها علنًا. ويطلق أتباع الديانات الثلاث على بعضهم البعض لقب "الكفار" و"الملاحدة"، وهذه الكراهية المتبادلة تسبب توترات مستمرة. ولا تتدخل الدولة لتهدئة النفوس بل تترك الاضطرابات تتصاعد نتيجة لتحيزها الذى لا تحاول حتى مجرد إخفائه.

١- المسلمون :

ينقسم المسلمون السنة إلى أربعة مذاهب ، حسب تفسيرات الأئمة الأربعة لأمور الشريعة: فهناك أتباع المذهب "الحنفى" الذى يتبعه السلطان العثمانى فى اسطنبول؛ وبالتالى، فإن مصر تتبع هذا المذهب. وبها المذهب "الشافعى" وهو المذهب الأكثر انتشاراً فى القاهرة بين المشايخ وأفراد الشعب. وقبر الإمام الشافعى موجود بالقاهرة وهو مزار ومكان للعبادة، وهذا مما يعزز من قوة هذا المذهب. والمذهبان الآخران هما "المالكى" و"الحنبلى"، وأتباعهما قليلون للغاية فى مصر. وفى هذه الحالة تحديداً، فإن الأمر يتعلق بعلم القضايا الضميرية - التى تدرس أحوال الضمير - أكثر من كونه يتعلق بالعقيدة نفسها.

وجامعة الأزهر الدينية، أنشئت فى سنة ٩٧٢م، وهى أهم مركز دينى فى مصر ، وفيها يدرس: الفقه والشريعة والمنطق والنحو ... إلخ فى إطار "المدرسية"[٣] الجامدة المعتمدة على الحفظ وسيطرة آراء الفلاسفة الأقدمين. وفى هذه الحالة، كان المدرسون لا يبحثون بتاتًا عن تجديد الفكر وتعميقه، بل كانوا يهتمون فقط بنقل مجموعة من المعارف الجامدة إلى تلاميذهم بدون أى إضافة ، وبالطبع فإن هذه الروح التقليدية

---

(٣) "المدرسية" أو "الإسكولائية" (La Scolastique) مشتقة من كلمة " Scola" اللاتينية (المدرسة): وهى مدرسة فلسفية تعليمية سادت فى القرون الوسطى واتسمت بالجمود والتقليد[المترجم] .

قد شجعت على ظهور "المذهب الشكلى"(٤).

وبالتالى، فقد تمسك الناس بالناحية الشكلية المرتبطة بالمظهر الخارجى للدين أكثر من تمسكهم بروحه ، فخلطوا بين مفاهيم: "الدين" و"الدولة" و"القومية". وهذا المفهوم الأخير - "القومية" - مفهوم جديد للغاية لم يستطع الناس استيعابه لأنه مصطلح جديد نشأ مع الثورة الفرنسية فى سنة ١٧٨٩م. لقد عرف المسلمون مصطلح "الأمة" - أى "الأمة الإسلامية" - التى تشمل كل البلاد التى يغلب عليها الدين الإسلامي، أى من المحيط الأطلسى غربًا حتى أرخبيل إندونيسيا شرقًا. وبالنسبة للمصريين - بوجه خاص - يضاف إلى هذا المفهوم مبدأ سيادة سلطان تركيا الذى يتمتع بالسلطتين: الدينية والزمنية معًا.

وفى البداية، استطاع بونابرت خداع المصريين ، وأقنعهم بأنه أتى باسم السلطان لإبادة المماليك. وبعد فترة تردد، ثار عليه المصريون ليس لأنهم يفضلون طغاتهم السابقين لكن لأن بونابرت وجنوده كانوا "كفارًا". ولهذا السبب أيضًا، أعلن الباب العالى "الجهاد" على الفرنسيين. وعلى سبيل المفارقة، قد نستطيع القول بأن بونابرت - لو كان مسلمًا - لكان قد أحرز انتصارًا كاملاً حيث أحرزت الحملة العسكرية نصف نجاح.

فماذا إذن كان موقف بونابرت تجاه الإسلام؟؟ يقول البعض أنه كان مجرد انتهازى ، بينما يرى البعض الآخر أنه كان شبه مقتنع به. ومن المعروف أن القراءات المسبقة قد تقود المؤمن بـ "التأليهية"(٥) للانضمام إلى عقيدة أساسها واضح بلا غموض. لقد حمل بونابرت معه - فى مكتبته العسكرية - من بين ما حمل: "العهد القديم" و"العهد الجديد" و"القرآن" و"الفيدا"(٦) والميثولوجيا و"روح القوانين" لمونتيسكيو(٧).

---

(٤)"المذهب الشكلى" أو "الصورى" (Le Formalisme) مذهب فلسفى لا يعتد إلا بالناحية الشكلية (أو الصورية) فى المعرفة والأخلاق والجمال [المترجم] .

(٥) "التأليهية" (Le Déisme) أو "اللادينية" مذهب فلسفى يؤمن بوجود الله ولكنه لا يؤمن بالأديان المنزلة ولا بجدوى بممارسة الشعائر الدينية [المترجم] .

(٦) "الفيدا" (Le Véda) أربعة كتب مقدسة لدى الهندوس الذين يعتقدون بأن الآلهة أنزلتها على الحكماء وأنها تحتوى على كل الحكمة الإلهية. ويكفى الإيمان بأصلها الإلهى لكى يُصبح الإنسان هندوسيًا [المترجم] .

(٧) "روح القوانين" (De l' esprit des lois) أهم ما كتبه مونتيسكيو (Montesquieu) فى سنة ١٧٤٨م. أثبت فيه أن القوانين (أو الشرائع) ليست ثابتة وأنها قابلة للتغيير، وليست تعسفية. وشرح مونتيسكيو أنظمة الحكم، ونادى بفصل السلطات الثلاث عن بعضها. وهذا الكتاب خُلاصة لعشرين عامًا قضاها المؤلف فى القراءة والتأمل [المترجم] .

وحالما وطئت قدما بونابرت أرض مصر، أصدر بيانًا - بتاريخ ٢ يوليو سنة ١٧٩٧م - أعلن فيه بوضوح: "يا شعب مصر، سيقولون لكم إننى جئت لتدمير دينكم، فلا تصدقوهم ! بل قولوا لهم إننى قد جئت لإعادة حقوقكم إليكم ومعاقبة الغاصبين ، وقولوا لهم أيضًا إننى أحترم الرسول والقرآن أكثر من المماليك... " وكان يتناقش دائمًا مع المشايخ والسلطات الدينية للبلاد. وبتاريخ ٢٨ أغسطس سنة ١٧٩٨م، كتب للجنرال مارمون (Marmon) : "تستطيع أن تقول بأننى أعقد اجتماعات مع المشايخ وأشراف القاهرة الأساسيين بمعدل ثلاث أو أربع مرات كل عشرة أيام..."

واختار بونابرت محاوريه ليس فقط لتأثيرهم على الناس أو لوظائفهم، بل أيضًا لذكائهم. وبفضل قراءاته للقرآن أصبح - بشكل ما - "طالبًا للعلم"، كما حضر الاحتفال بالمولد النبوى الذى تم الاحتفال به بأبهة ضخمة. وشارك أيضًا - فى الاحتفالات التى لم يكن يستطيع أن يفهم شيئًا كثيرا منها لأنها كانت تتم باللغة العربية، وكان حضوره يقابل برضاء المشايخ عنه.

ولم يرفض بونابرت مبدأ اعتناق الإسلام رفضًا مسبقًا، ولكن ثمة شرطين من شروط اعتناق الإسلام وقفا عقبة فى سبيل ذلك: الختان والامتناع عن شرب الخمر. وأصدر المفتى فتوى فحواها أنه: يمكن التغاضى عن الختان نظراً لكبر سن المسلم الجديد، ولكن عليه أن يهب خُمس ما يملك - وليس العُشر - إذا أراد الاستمرار فى شرب الخمور. لقد تابع الجيش الفرنسى وجنرالاته كل هذه المساومات الفلسفية/ الدينية باستهجان. وفيما بعد، عندما اعتنق الجنرال مينو الإسلام، لم يقتنع به أحد.

لقد كان بونابرت يسوق دائمًا العبارات والحكم مثل: "إننا لا نستطيع أن نقترب من السكان إلا عن طريق زعمائهم الدينيين"، "إن المشايخ هم القناة التى استخدمتها لحكم البلاد"، لكنه رفع القناع عن نواياه عندما ذكر: "يجب علينا أن نجعل التعصب ينام حتى نستطيع اقتلاعه ". فهل تصرف الجنرال - قائد الحملة - كسياسى أمين أم كدبلوماسى داهية ؟؟؟ إننا نستطيع القول، فقط، بأنه أظهر اهتمامًا وتعاطفًا - لا شك فيهما - تجاه الإسلام .

٢- **أما فيما يتعلق بمسيحي مصر- والأقباط** بشكل خاص - فإن وضعهم بصفتهم أقلية لم يكن وضعًا مريحًا ولم يكن فيه جديد: فغداة استيلاء السلطان محمد الثانى (الفاتح) على القسطنطينية فى عام ١٤٥٣، قسم مسيحى إمبراطوريته إلى فئتين خضعتا للسلطة الروحية للبطريرك الجريجورى (الأرمنى) ولبطريرك الروم الأرثوذكس. فأصبح الأقباط خاضعين للسلطة الروحية لبطريرك الروم الأرثوذكس. وهكذا وجدت كنيسة روما (الكاثوليكية) نفسها مستبعدة، عمليا، بسبب هذا التقسيم.

وكان تنظيم البطريركات المستقر تحت السلطة العثمانية يشتمل على سلطتين قضائيتين: دينية (خاصة بالعبادة والنظام الكنسى) ومدنية (خاصة بالأحوال الشخصية). ولذلك فإن حالات التعميد والزواج والوفيات للكاثوليك الشرقيين كانت تُسجل فى سجلات الكهنة الذين ينتمون لبطريركات "منشقة". وكان رجال الدين هؤلاء يقومون بدور مزدوج: دور راعى الكنيسة، ودور موظفى السجل المدنى بالنسبة للمنشقين والكاثوليك.

وهذا النظام كان يراقب، أيضًا، الأشخاص المذبذبين الذين يريدون الخروج عن طوع الإمبراطورية التركية، أو بعبارة أخرى: من يريدون الانضواء تحت السلطة الروحية للفاتيكان. وعلى الرغم من نجاح بعض المحاولات، فإننا نستطيع القول بأن محاولات طاعة روما - فى مجملها - لم تجد آذانًا صاغية لدى جموع المسيحيين الذين عاشوا منغلقين على أنفسهم تحت سيطرة السلطة العثمانية.

وبالنسبة للسلطة الرسمية، فسنجد أنها اعتبرت أن المسيحيين يشكلون "أمة مسيحية" واحدة يوجد بها كاثوليك وغير كاثوليك يعيشون متآخين ويتزوجون - غالبًا - من بعضهم البعض ويقيمون الشعائر الدينية نفسها .

وفى نهاية القرن الثامن عشر كانت الديانة المسيحية - فى مصر - تبدو كما لو كانت لوحة من الفسيفساء المكونة من أتباع عدة مذاهب أكثرها عددًا هم الأقباط الذين

خضعوا لسلطة بطريرك يحافظ على تعاليم "أوتيخاز"[٨] "نسطوريوس"[٩] التى تنكر "الطبيعة المزدوجة" للمسيح. ومع ذلك، توجد مجموعة صغيرة من الأقباط انضمت إلى كنيسة روما، هم "الأقباط الكاثوليك". ومن الطوائف الأخرى التى لها أهمية نسبية، نجد:

- "طائفة الروم الكاثوليك" التابعة لبطريرك لبنان،
- و"طائفة الأرمن الكاثوليك" التى تتبع بابا الفاتيكان،
- أما "المنشقون" فيتبعون البطريرك الخاص بطائفتهم.

وفى نهاية هذه الفقرة الخاصة بالجماعات المسيحية فى مصر، يجدر بنا أن نشير إلى وجود حوالى ٤٠٠ كاثوليكى وبروتستانتى من الأجانب مقيمين بها.

ولنرجع مرة ثانية للحديث عن الأقباط: فعلى الرغم من تعاقب الغزوات على مصر، فلا يزال للأقباط حوالى مائة دير (منهم خمسة للراهبات) لن نذكر هنا أسماءها كلها بل سنذكر فقط وجود ديرين فى القاهرة، واثنين فى حى مصر القديمة، والعديد فى وادى النطرون، ولكن أكثر الأديرة يوجد فى الصعيد. وتعيش هذه الأديرة على مواردها الضئيلة المتحصلة عن الأوقاف (أو الرِزَقْ) الخاصة بها، والأديرة الأكثر فقرًا تعيش على التبرعات التى تتلقاها من الأديرة الأغنى.

---

(٨) "أوتيخاز" (Eutychèse) : مبتدع بيزنطى (٣٧٨ – ٤٥٤م) حارب هرطقة نستوريوس ونادى بهرطقة معاكسة له: مذهب "الطبيعة الواحدة" للمسيح أى أن المسيح له طبيعة إلهية فقط. أدان مجمع خلقيدونيا (٤٥١م) هرطقته بشكل نهائى. إن تعبيرى "هرطقة" أو "منشق" تستخدمهما الكنيسة الكاثوليكية ("الكونية" أو "المسكونية") لوصف "الأرثوذكس" (أصحاب "العقيدة المستقيمة" أو "الراشدة" أو "القويمة") وغيرهم [المترجم] .

(٩) "نسطوريوس" (Nestorius) : "مبتدع" ولد فى سوريا وتوفى فى الواحات الخارجة فى مصر (٣٨٠ – ٤٥١م). بطريرك القسطنطينية من ٤٢٨ حتى ٤٣١, نادى "بهرطقته" التى تقول بانفصال طبيعتى المسيح عن بعضهما (اللاهوتية والناسوتية). وبالتالى، فإن العذراء مريم تصبح "أم المسيح" وليست "أم الله". أدانه مجمع "إيفيز" وطرده (٤٣١م) ولكن المذهب "النسطورى" انتشر فى جميع بلاد الشرق ووصل إلى الهند والصين. ويوجد حاليًا حوالى ٩٠ ألف نسطورى فى إيران والعراق والهند والولايات المتحدة الأمريكية. وفى "الواحات الخارجة" – فى مصر – حيث نفى نسطوريوس وأتباعه، توجد مقبرة "البجوات" وبها عدة مئات من قبور النسطوريين وأحدثها يرجع إلى القرن السادس الميلادى [المترجم] .

ويقضى الرهبان أغلب وقتهم صائمين ويمارسون عيشة الزهد والحرمان فى أديرتهم: فهم لا يتناولون سوى وجبة واحدة فى اليوم مكونة من الخبز والخضراوات والأسماك، ويتناولون اللحم مرة واحدة فى الأسبوع ، ولا يرتدون أية ملابس خاصة تميزهم عن غيرهم، ولا يملكون سوى جلباب واحد من الصوف مثل عامة الفلاحين. وتعيش الراهبات نفس عيشة الرهبان ولا يتمتعن بأية امتيازات خاصة بهن. ويقدم الرهبان والراهبات لزوار الأديرة أرغفة خبز صغيرة ومستديرة عليها علامة الصليب، ورموز دينية أخرى، تذكاراً لهذه الزيارة(١٠).

وبطريرك الأقباط الأرثوذكس هو الرئيس الدينى للطائفة، وله سلطة مطلقة على أفرادها، وهو الذى يتدخل لحل جميع المشاكل التى تنشأ بين أفراد طائفته عدا جرائم القتل. وجرى العرف على انتخابه من بين رهبان دير القديس أنطونيوس، ويتم انتخابه بواسطة مجلس انتخابى مكون من: الأساقفة والرهبان وكبار الأعيان. ويتم تعيين المرشح الحاصل على أعلى الأصوات فى منصب البابوية. ولا يحصل الحَبر على دخل كنسى؛ وفى المقابل، فإنه يتسلم إيرادات المنشآت الدينية.

ويعاون البابا ١٢ أسقفًا لا يحصلون على أى دخل سوى صدقات أُسقفياتهم. وعلى الرغم من أن بطريرك الأقباط الأرثوذكس يحمل لقب "بطريرك الإسكندرية" – ذكرى مقر إقامته القديم – فإنه يقيم فى القاهرة ليكون قريباً من السلطات الإسلامية.

ويتصف الرهبان بالفقر والجهل لكنهم يحظون بالاحترام. وهم يتزوجون ثم يتم ترسيمهم. والقليل منهم يستطيع قراءة اللغة القبطية مع أنها لغة الطقوس الدينية. وتحتفظ النساء القبطيات بنقابهن أمام الرهبان إلا إذا سمح لهن أزواجهن بكشف وجوههن أمامهم.

والكنائس القبطية لا توجد بها مقاعد: فيظل الرجال واقفين طوال فترة أداء الطقوس الدينية ويسندون ذقونهم، أحيانًا، على عكاز على شكل حرف (T) يسمونه "تأو" ، وتبقى النساء خلف حاجز خشبى لكى لا يراهن أحد من الرجال.

---

(١٠) يقصد "الفطائر"[المترجم] .

وبعد ما سبق، يحق لنا الآن أن نتساءل عن موقف بونابرت تجاه الأقباط؟؟ نظراً لأننا نعرف حقيقة المشاعر الدينية للجنرال قائد الحملة، فإننا نستنتج أنه لم يبد أى تعاطف خاص تجاه هذه الأقلية الدينية، خصوصاً وأنها تسبب له مضايقات: فالأقباط كانوا هم الذين يسيطرون على الضرائب في مصر. كما أن الأحقاد المتراكمة - منذ قرون - بين المسلمين والأقباط قد تجعل الأقباط يضايقون المسلمين. وفى الواقع، ففى بداية الاحتلال الفرنسى لمصر، اعتقد الأقباط أن من حقهم ارتداء العمائم ذات الألوان التى كانت حكراً على المسلمين فقط ، فتدخل بونابرت فى هذا الأمر تجنبًا لحدوث صدام بينه وبين الأغلبية المسلمة. ومنذ ذلك الوقت، أصبح الأقباط أكثر حذراً تجاه الفرنسيين: فقد كان عليهم أن يحسبوا حساب الغد.

٣- **أما اليهود** - التلموديون منهم والقراءون - فقد كانوا يعيشون فى القاهرة، تحديداً، فى حى خاص بهم وحدهم ومغلق عليهم ("حارة اليهود"). وهذا الحى كان يتصف بالقذارة والبؤس ، وتتداخل فيه الحوارى الضيقة للدرجة التى قد لا تسمح بمرور شخصين فى وقت واحد.

وبصفة عامة، فإن بشرة اليهود بيضاء وشعرهم أحمر وعيونهم فاتحة اللون. وهم ضعيفو البنية ويعانون من أمراض العيون التى ترجع، ربما، لاقتصارهم على استخدام زيت السمسم فى طعامهم. وهم يرتدون ملابس قذرة وبلا عناية. ويضع اليهود على رؤوسهم العمائم ذات اللون الأسود أو البنى مثل المسيحيين. ونساء اليهود منقبات وملابسهن هى نفس ملابس كل المصريات.

ولليهود عدة معابد فى حيهم ويدفعون "الجزية" للسلطان مثل المسيحيين إلا أنهم مكروهون أكثر من المسيحيين: ألم يحذر القرآن المسلمين من اليهود؟؟ وهم يتعرضون للسخرية وحتى للضرب فى الشوارع. ولا يُعْدَم اليهودى بقطع عنقه خوفاً من أن يتناثر دمه فيجعل المكان نجساً، ولذلك يعدم شنقاً.

ويعيش اليهود معيشة هادئة، وليست لهم، تقريباً، علاقات مع باقى الطوائف الأخرى. وإذا كان اليهود أغنياء، فإن منازلهم تكون فخمة من الداخل ويرتدون ملابس فى غاية الأناقة "داخل منازلهم فقط"؛ ولكن عند خروجهم منها، فإنهم يرتدون دائماً

أسمالاً قديمة. وتستقبل نساؤهم الزوار وهن سافرات الوجوه مثل المسيحيات الشاميات ، ويمارس اليهود طقوس دينهم بطريقة صارمة، ويتكفل أغنياؤهم بدعم فقرائهم ، وتنتشر الخرافات بينهم كما تنتشر بين جميع أتباع الديانات الأخرى.

ويمارس كثير من اليهود مهنة البنوك أو الصرافة أو الصياغة، ويمتلك بعضهم محال لبيع العطارة أو الفواكه. وقد سبق لنا وأن ذكرنا أنهم يحتكرون إدارة الجمارك المصرية. واليهود ناجحون جداً في الأعمال التجارية ويتصفون بالأمانة في تنفيذ العقود التي يتفقون عليها. أما بخلهم المشهور، فهو ليس بعيب بقدر ما هو وسيلة لإخفاء ثرواتهم عن عيون الآخرين، خصوصاً المماليك. ولم يحاب بونابرت اليهود بأية معاملة خاصة لكنه احتفظ بهم في الإدارات التي كانوا يعملون بها منذ زمن طويل، قبل وصول الحملة الفرنسية إلى مصر، واستعان بأموالهم.

ب- المعتقدات والخرافات:

يشغل الإيمان بالمعجزات، جزءاً كبيراً من ذهن الشعب، خصوصاً لو كان هذا الشعب محروماً من العلم وغالباً ما ترتكز الخرافات على الدين نفسه. والإيمان بالملائكة والشياطين والأرواح مذكور في الكتب المقدسة، لكن كثرة استخدام هذا المفهوم واتساع مجالاته جعله يدخل في نطاق الخرافات. وسنذكر هنا أمثلة خاصة بمصر وحدها: فالمصريون يؤمنون بوجود "جان" طيبين وآخرين أشرار كما يتصف بعضهم بالمكر الشديد. و"الجان" غالباً ما يوجدون على الأبواب والنوافذ ويقذفون بالأحجار في الشوارع وأفنية البيوت. أما "العفريت" : فهو روح شخص مات ميتة عنيفة. وهذه الروح غير مستقرة فتأتي لمضايقة الأحياء. ولذلك، يجب على الممسوس تهدئة هذه الروح القلقة بعمل "زار". ومما هو جدير بالذكر - في هذا المقام - هو أن السيدات أكثر عرضة للمس من الرجال لأنهن أكثر حساسية منهم. ومن هذه الكائنات غير المرئية، يوجد "الغول" الذي يعيش على مص دم ضحاياه. ومن هذه الكلمة، اشتق الفرنسيون كلمة (La Goule) التي تطلق على نوع من الإناث تمص دماء البشر[11].

---

(١١) يقصد "أمنا الغولة" [المترجم] .

وتمتد الخرافات لكى تشمل البشر أيضًا: فالناس يعتقدون بأن الله قد اصطفى البعض منهم لتبليغ تعاليمه. ومن هؤلاء المصطفين نجد الأولياء وهناك أيضًا ... "البلهاء"(١٢) الذين يحظون بتكريم خاص فى مصر: فيجلس هؤلاء المتخلفون عقليًا بجوار حائط مرددين كلمة: "الله ! الله !" طول اليوم، فيتصدق الناس عليهم. والمتخلف عقليًا لا يشكر المتصدق عليه لأنه لم يطلب منه إعطاءه أى شىء. ومنهم من يضرب رأسه بحجر، ومنهم من يغطون أجسادهم بالسبح ويرددون الأدعية الدينية ... إلخ وكتب د. دى بييترو (D. De Pietro) قائلاً: "كان من عادة هؤلاء البلهاء أن يسيروا عرايا تمامًا فى الشوارع؛ وإذا قابلتهم امرأة وأعجبتهم (...)، كانوا يظهرون رغبتهم فيها بصراحة ويضاجعونها فورًا فى الشارع علنًا أمام المارة الذين يتجمعون ليشهدوا على هذا العمل الصالح(١٣). ولم يكن جنودنا معتادين على رؤية ممارسة هذه الدعارة العلنية، فاستاءوا من هذه الأفعال التى يعتبرها المؤمنون بالخرافات نوعًا من العبادة. وفى عهد مينو، أجبر المجاذيب والعوالم على مراعاة حدود الاحتشام وإلا تعرضوا للعقاب".

ويضاف السحر والتنجيم إلى مجموعة الخرافات المنتشرة: فالسحَّار يمارس دجله لتقريب المحبين أو لإبعادهم عن بعضهم، وحتى لتخليص زبائنه من أعدائهم. ويستطيع السحار أيضًا كشف الغيب وإيجاد الأشياء الضائعة بواسطة نوع من التنويم المغناطيسى يسمونه "فتح المندل" أو "ضرب المندل"، أو بواسطة "العرافة" و"التنجيم" باستخدام مجموعة من الحروف مصفوفة فى جدول. وأكثر العرافين فى مصر انتشارًا هم "ضاربو الرمل" و"المنجمون". وكتب أحد ضباط الحملة معلقًا على هذه الظاهرة بقوله: "إن القاهرة مليئة بالعرافين المسيحيين واليهود والمسلمين" لأن الناس هنا يهتمون اهتماما زائدًا بمعرفة مستقبلهم.

وينسب المصريون الكثير من الأمراض - التى لا يعرفون سببها - إلى "الحسد". ولكى يتقوه، فإنهم يلجأون للساحر الذى يعطيهم "تعويذة"(١٤) يحتفظون بها دائمًا

(١٢) يقصد "المجاذيب" [المترجم] .

(١٣) مرة أخرى ، يقدم الغازى الفرنسى صورة مشوهة ومبتذلة للشعب المصرى لتبرير الاحتلال [المترجم] .

(١٤) يقصد "الحجاب" [المترجم] .

معهم. وهذا "الحجاب" عبارة عن بعض آيات من القرآن مكتوبة على قطعة من الجلد تخيط فى كيس جلدى. ومن عادة السيدات المصريات وضع الأحجبة على أجساد أطفالهن.

ويجب علينا ألا نهمل ذكر المشعوذين المهرة فى اكتشاف أوكار الثعابين(١٥) وتخليص المنازل منها. واهتم أكثر من عضو - من أعضاء المجاس العلمى - بدراسة حالة هذه الفئة من المشعوذين ولكنهم لم يتوصلوا إلى تفسير عقلانى لهذه المهارة.

وهناك أيضًا بعض الأحجار والأشجار التى تصبح موضوعًا للتقديس ولا يمكن لأحد أن يقطع أى جزء منها وإلا أصبح مدنسًا أو منتهكًا المقدسات(١٦) ويسر الناس إليها بأسرارهم لأن المعتقدات الشعبية تقول إن أرواحًا خيرة أو أرواحًا شريرة تسكنها. ويضع الناس أسنانهم المخلوعة وخصلات من شعرهم وأحيانًا خرقًا من القماش للوفاء بنذر ما على أشجار معينة.

كما يُعلق المصريون نبات الصبار فوق أبواب المنازل. ويدفنون سرًا قلامة الأظفار والشعر المحلوق؛ لأن هذه البقايا قد يستخدمها شخص ما "لعمل" سحرى مؤذٍ ضد صاحبها(١٧) وبذلك تصبح مؤذية لصاحبها إذا وقعت تحت يد عدوه.

وينفرد الأقباط بسحر خاص بهم يمارسه القساوسة الذين يستخدمون "مزامير داود" لغرضين، الأول: بصفته وصفات للعلاج والشفاء من الأمراض، والثانى: كوصفات سحرية.

ويعتقد المصريون بوجود أيام سَعْد وأيام نحس: فالمسلمون يعتقدون بأن يومى الثلاثاء والأحد يوما نحس ولكن أسوأهم على الإطلاق هو يوم السبت؛ أما يوم الجمعة،

---

(١٥) يقصد المؤلف طائفة "الرفاعية" الذين ينتمون إلى طريقة سيدى أحمد الرفاعى الصوفية وراياتهم سوداء اللون [المترجم] .

(١٦) يقصد المؤلف شجرة "المندورة" (أو "الست المندورة" أو "شجرة فاطمة") التى كان سكان القاهرة يتباركون بها حتى عقد الثلاثينيات أو الاربعينيات من القرن العشرين الميلادى. وأشهرها كانت بجهتى المنيل والعجوزة . وهذه الأشجار كانت غالبًا من أشجار النبق (السدر). وهى من بقايا عبادة ترجع إلى عصور ما قبل التاريخ . وكان المرضى يؤمونها للشفاء. ولا تزال لهذه الشجرة مكانتها المرموقة إذ تزرع غالبًا بجوار أضرحة الأولياء بالقرى المصرية [المترجم] .

(١٧) يقصد "العَمَل" [المترجم] .

فهو أفضل أيام السعد. لكن المسيحيين لا يشاطرونهم هذا الرأى لأنهم يعتقدون أن يوم الأحد هو يوم سعد: ففيه بعث السيد المسيح؛ أما يوم النحس لديهم فهو يوم الجمعة لأنه يوم وفاته.

ومن هذه الأمثلة، يتضح لنا مرة أخرى أن الخرافة لها أساس دينى ، ولن نستطيع تقديم قائمة بالخرافات التى يؤمن بها الأشخاص لأنها كثيرة جداً ولا يعادلها سوى عدم منطقيتها.

رابعاً: التربية:

يأخذ الطفل حماماً يومياً وينام على حصيرة ويتم نموه بلا مشاكل. وفى الحرملك، تدلله النساء، لكنه لا يتلقى سوى القليل من المعرفة. وبالتالى، فإن تربيته تقتصر على معرفة القراءة والكتابة، ويتلقى أيضاً بعض قواعد الأخلاق الفاضلة مثل: مخافة الله، واحترام الأكبر سناً، والبر بالوالدين، وممارسة كرم الضيافة.

أما الفتيات الصغيرات، فيمكثن عاريات أو مرتديات قميصاً بسيطاً حتى يبلغن سن السادسة ، وحتى الملابس اللاتى يرتدينها – بعد ذلك السن – تجعل أجسامهن حرة الحركة.

ويوجد مائة كُتَّاب فى القاهرة يذهب الصبيان إليها بصحبة خادم أو عريف. وجرت العادة على أن يتناول الطلاب الموسرون وجبة الغداء مع زملائهم الأفقر منهم. لكن الأثرياء لا يرسلون أبناءهم إلى هذه الكتاتيب العامة ، بل يأتى المدرسون الخصوصيون إليهم فى منازلهم ، وأغلب البنات لا يتلقين التعليم فى الكتاتيب.

ويقوم الأطفال الصغار بترديد الحروف ومقاطع الكلمات والكلمات فى الوقت نفسه الذى يتمرنون فيه على نطقها ، وهم يقرأون آيات القرآن ويحفظونها غيباً ويرتلونها وهم مقرفصين[١٨] ويحركون نصفهم الأعلى.

---

(١٨) يقصد المؤلف أنهم يجلسون "متربعين" وبذلك يستطيع الطالب تحريك جذعه يميناً ويساراً أو للأمام والخلف وهو جالس [المترجم] .

والنماذج التى يدرسونها لتعليم الكتابة والإملاء مأخوذة من القرآن. وفى الكتاتيب، يدرس الطلاب أيضًا بعض مبادئ الحساب، ولا يدرسون شيئًا آخر غير ما ذكرنا. وعقاب الطلاب - ضعيفى المستوى - يكون بتلقى ضربات العصا على كفوف أقدامهم(١٩).

والإنفاق على الكتاتيب والعناية بها يتم بفضل ريع الأوقاف الإسلامية المخصصة لذلك الغرض. ويدفع أهالى الطلاب مبلغًا يتراوح مابين ٣ و٢٠ مدينيًا أسبوعيًا لشيخ الكتاب حسب قدراتهم المادية. وتنتشر الكتاتيب العامة بكثرة فى القاهرة والمدن الكبرى. وفى الريف، فإن المزارع الذى يرغب فى تعليم ابنه، يعهد به إلى شيخ مسجد القرية.

وللأقباط - أيضًا - كتاتيبهم التى تعمل بالنظام السابق نفسه : فالإنفاق عليها والعناية بها يكون من الأوقاف القبطية، ومكافأة المعلم يقوم بها أهالى التلاميذ. وعندما يستطيع التلميذ قراءة الحروف، يعطيه المعلم "مزامير داوود" ليتمرن فيها على القراءة.

وبصفة عامة، فإن إدارة أحد الكتاتيب الإسلامية يُعهد بها إلى أحد المنحدرين من صلب صاحب الوقف. ويجب على مدير الكتاب والمُعلم به أن يكونا جديرين بتحمل مهام وظيفتيهما. ومع ذلك، فإن معلم الصبيان لا يحظى باحترام كبير على الرغم من تفانيه فى أداء مهمته. ويقوم القاضى بالتفتيش الدورى على الكتاتيب ويراقب ميزانيتها ليطمئن على أن أموالها لا تُختلس أو تُصرف فى غير الغرض الذى أراده صاحب الوقف فى وقفيته.

أما الشباب الذين يريدون استكمال دراستهم، فيذهبون إلى جامعة الأزهر الدينية فى القاهرة ، والأزهر هو المؤسسة الوحيدة المخصصة للدراسات العليا فى مصر. وهو مقسم إلى سبعة "أروقة" يسكن فيها الطلاب حسب البلاد التى جاءوا منها فيوجد به: "رواق الشوام"، و"رواق المغاربة"، و"رواق الأتراك"، و "رواق الصعايدة"، ويوجد أيضًا "رواق العميان" ... إلخ .

إن التعليم الدينى المفروض فى الأزهر (الفقه والنحو والشريعة ... إلخ) يهمل تدريس العلوم الحقيقية: ففيه يدرس القليل من الرياضيات؛ وعلم الفلك يدرس

(١٩) يقصد المؤلف استخدام "الفلكة" [المترجم] .

باستخدام أدوات وآلات عتيقة، ويقتصر الأمر على مجرد إعداد التقاويم (تقسيم الأزمنة ، وحساب الأوقات وما يتعلق بها). ولا يهدف هذا التعليم إلى إحراز أى تقدم أو تطور فى المعرفة، بل إن هدفه هو التسليم بأن المعطيات التراثية حقيقة ثابتة ويجب القبول بها.

وإذا فحصنا الطرق التربوية – التى تطبق فى مصر – فسنجد أن التدريس فيها يتم بشكل "جماعى" فى حين تفضل فرنسا التدريس بالطريقة الفردية. إن تقديم النظام التربوى المصرى بهذه الطريقة يمكن أن يكون خادعاً: ففى واقع الأمر، سنجد فقط أن ثلث- أو ربع – سكان القاهرة يعرفون القراءة والكتابة، والنسبة المئوية للنساء المتعلمات تكاد تكون صفراً. وكما يحدث فى أماكن وبلاد أخرى، فإن من يعرفون القراءة لا يقرأون سوى سور من القران، ومعلوماتهم محدودة نظراً لانعدام الكتب المطبوعة فى مصر أو لندرة المجلوب منها من الخارج، وسندرس هذه الجزئية فيما بعد.

لقد شعر بونابرت بوجود هذه العلة واهتم بدراسة مشكلة التعليم فى مصر، فأنشأ "مدرسة الوطن"(*) كعلاج سريع لتعليم أبناء الفرنسيين المقيمين فى القاهرة ومعهم البحارة – صغار السن – الذين نجوا من كارثة تدمير الأسطول فى أبو قير. وشكل هؤلاء البحارة أغلبية طلاب هذه المدرسة وفى وقت لاحق، كانت ستقبل بالتأكيد المصريين بين صفوفها [!!] وبعد رحيل الحملة الفرنسية عن مصر، أُغلقت هذه المدرسة.

وفى المحاضرات الأولى "للمجمع العلمى"، اقترح ديجينيت إنشاء "مدرسة للطب فى القاهرة على أن يسبقها تدريس اللغة الفرنسية للطلاب المصريين قبل دراستهم للطب. ولم ينفذ هذا القرار إلا بعد مرور ٢٥ عاماً على يد "أ. كلوت بك"(A. Clot bey) فى عهد محمد على. وبعد ذلك، قدم الرسام "دوتيرتر" (Dutertre) لزملائه فى المجمع خطة لإنشاء "مدرسة عامة للرسم". ثم عدَّد نيتو" (Netoux) المزايا التى يمكن الحصول عليها إذا أنشئت "مدارس للزراعة" لتطوير زراعة القصب و السكر والقطن والنيلة وغيرها ... إلخ وزيادة عدد أصناف المحاصيل المزروعة؛ والأهم من ذلك كله، إعداد طلاب قادرين على العناية بهذه الكنوز ورعايتها. وكان لابد لكل هذه المنشآت أن تنشط العقل المصرى وتنبهه بعدما رضى – منذ أجيال – بترديد معطيات عقيمة.

(*) "Le Iycée de la Patrie"

الفصل الخامس

الحياة الفكرية والفنية

أولاً: الحياة الفكرية:

في نهاية القرن الثامن عشر الميلادي، كانت الحياة الفكرية - في مصر - ترتكز على دعامتين متناقضتين:

أ - الأزهر.

ب - المعهد العلمي المصري.

أ - الأزهر:

لقد كان للأزهر تاريخه اللامع والباهر في جميع أنحاء العالم الإسلامي، واعتُبِرَ واحداً من منارات الفكر الإسلامي حتى بداية القرن السادس عشر الميلادي. ولكن منذ ذلك التاريخ، بدأ الأزهر يغوص ببطء في الجمود والتقليد والتكرار: فلم يعد يدرس به سوى علوم اللغة العربية والفقة، وأهمل تقريباً تدريس الرياضيات والعلوم، واختفى المدرسون ذوو المكانة العلمية البارزة من هذه الجامعة العريقة، وأصبح الموجودون بها مجرد مرددين لما سبق قوله، أو من علماء البلاغة، واختفى الشعراء من الأزهر، وظهر ناظمو الشعر الذين برعوا في التلاعب بالألفاظ والإشارة؛ لأحداث تاريخية غامضة "وحساب الجُمَّل"[1]. وفي تلك الفترة، بلغت الحذلقة والتكلف حداً جعل الناظمين يخلطون اللغة الفصحى باللهجة العامية ... إلخ

(١) طريقة "حساب الجُمَّل" تعطي لكل حرف من الأبجدية السامية (أ، ب، ج، د، هـ، و، ز،...) رقماً لا يتغير: فحرف الألف = ١ وحرف الباء = ٢، ... إلخ وصعوبة "حساب الجُمَّل" تأتي من أن مجموع الحروف يجب =

وبالتأكيد، فإن آلافًا عديدة من الطلاب استمرت فى التدفق إلى الأزهر؛ لأن شهرته العلمية ظلت براقة كما كانت فى الماضى ، وقد ارتفعت – أحيانًا – أصوات نادرة تحذر المثقفين من تبديد الطاقات لكنها لم تجد أى استجابة لتحذيراتها. وبالإضافة إلى ما سبق، لم يفكر أى شخص فى النظر صوب "الغرب": فقد كان "الغرب" هو موطن الكفار والملاحدة؛ وبالتأكيد، فلن يأتينا منه أى خير[٢]. ومع ذلك، فقد كان المصريون يعرفون الحديث النبوى الذى يوصى المؤمنين بطلب العلم "ولو فى الصين".

واعتمد المدرسون الأزهريون على عقيدة لا يمكن المساس بها، وعلى سلطة لا يمكن دحضها، ألا وهى سلطة الشيوخ القدامى، فحظروا أى نقاش قد ينتج عنه تنوير العقول. إذن، فقد كان مفروضًا على طلاب الأزهر ترديد نفس أدلة وبراهين شيخهم للحصول على رضاه. واستمر هذا الوضع لمدة ثلاثة قرون !!! فما الذى يمكن أن يحدث لإيقاظ الأزهر من غفوته ؟؟

من المؤكد أن الذهن العربى قد أصيب بالتبلد الناتج – إلى حد كبير – عن خضوعه للإمبراطورية العثمانية – ذات الأصل الهمجى – التى لم تهتم أبدًا بتشجيع المراكز الثقافية... عندما احتلتها . وتكفل الإهمال والاستسلام بالباقى.

وفى تلك الفترة، أصبحت توجد فى مصر ثلاث لغات تستخدم فى وقت واحد: فاللغة العربية كانت هى لغة الشعب المصرى، واستخدم العثمانيون والمماليك اللغة التركية فيما بينهم، وها هى اللغة الفرنسية تأتى لكى "ترأس"[٣] اللغتين السابقتين وتزيد من صعوبة التواصل!!...

= أن يُعْطى الرقم المطلوب مع وجود كلمة أو جملة ذات معنى، والأصعب هو أن تكون هذه الجملة شطرة فى بيت شعرى موزون. فمثلاً لوجمعنا أرقام حروف هذه الجملة: "هذا هو كتاب من تعريبك يا ناجى" = سنة ٢٠٠٧م، وهى سنة إتمام هذه الترجمة. وندين بالشكر للأستاذ فيصل عبد اللطيف أبو مدين لصياغة هذه الجملة، فهو واحد من النادرين العارفين بأسرار فن "حساب الجمل" الصعب [المترجم] .

(٢) المثل الشعبى المصرى: "مافيش حاجة تيجى م الغرب تسر القلب" يؤكد هذا الرأى [المترجم] .

(٣) لعله يقصد أنها صارت لغة الحكام أو الرؤساء الجدد.

لقد سبق لمصر وأن عرفت – فى عهدى المماليك البحرية والشراكسة – أدبًا مزدهرًا ومؤلفين عظماء. لكن فى عهد الولاة الأتراك والبكوات المماليك، حدث العكس: فتدهورت العلوم والآداب. ومن الأدباء النادرين – بمعنى الكلمة – المعاصرين لبونابرت، لن نستطيع ذكر سوى: شهاب الدين الخفاجي، والزبيدى – ذى الأصول اليمنية – مؤلف القاموس الشهير "تاج العروس"، وعبد الوهاب الشعرانى مؤلف "طبقات الصوفية"، والبكرى مؤلف "روضة المأنوسات" وهو عبارة عن منتخبات أدبية، ونصل – أخيرًا – إلى عبد الرحمن الجبرتي مؤلف "عجائب الآثار فى التراجم والأخبار" الذى تُرجم عدة مرات إلى اللغة الفرنسية.

وفى الفترة نفسها التى كانت مصر تعانى فيها من الركود، كانت أوروبا – فى القرنين السابع والثامن عشر الميلاديين – قد سبقت الشرق بمراحل هائلة فى مجالات العلوم الفيزيائية والميكانيكية والكيميائية: فنيوتن (Newton) كان قد اكتشف قوانين الجاذبية، وأسس لافوازييه (Lavoisier) علم الكيمياء الحديثة، واخترع د. بابن(D. Papin) و ج. وات (J. Watt) أول آلة بخارية، واستشف ب. فرانكلين (B. Franklin) البدايات الأساسية للكهرباء، وصنع ريومور (Reaumur) أول ترمومتر، ووضع ميشان (Méchain) أسس النظام المترى، وطير الأخوان مونتجولفييه (Montgolfier) أول مناطيدهم... وغير ذلك العديد من الاكتشافات والاختراعات والصناعات. وفى مثل هذه الحالة ، هل يوجد وجه للمقارنة بين الأزهر – فى القاهرة – و"مدرسة الهندسة"(*) أو مدرسة "الفنون والصنائع"(**) الموجودتين فى باريس؟؟.

ب– **"المعهد العلمى المصرى"**: كان "المعهد العلمى المصرى" هو الدعامة الثانية للفكر فى مصر. وشغلت هذه المؤسسة مجموعة من القصور بالقرب من حى السيدة زينب: فكانت "قاعة الاجتماعات الكبرى" توجد فى "قصر حسن كاشف" الذى ضم كذلك مقار: علماء الآثار والأطباء والكيميائيين وقاعات علم النباتات. وفى حديقته، تم

(*) L' Ecole Polytechnique

(**) Ecole des Arts et des Métiers

تجهيز أماكن لعرض الحيوانات المتوحشة وخُططت أحواض لعمل التجارب الزراعية. أما منزل ذو الفقار كتخدا، فقد وضع فيه الكيميائى روجيه (Roger) أفرانه وأدواته ، ومنزل إلى إبراهيم السنارى شغله الرسامون والفنانون. ونصل أخيراً لقصر قاسم باشا حيث نجد منشآت أعضاء "لجنة العلوم والفنون".

لقد تأسس "المجمع العلمى المصرى" بُناءً على القرار الصادر فى ٢١ أغسطس سنة ١٧٩٨م، وعقدت الجلسة الافتتاحية يوم ٢٤ أغسطس حسبما ذكر ج.ج. مارسيل. وعين مونج فى منصب الرئيس، وفورييه (Fourier) فى منصب السكرتير الدائم؛ أما بونابرت، فقد كان هو نائب رئيس "المجمع". وبلغ عدد الأعضاء ٣٧ عضواً أُختيروا من بين أبرز ممثلى "لجنة العلوم والفنون" فى "جيش الشرق". وتكون "المجمع" من أربع لجان (الرياضيات، والطبيعة، والاقتصاد السياسى، والآداب والفنون الجميلة).

واعتمد بونابرت على "المجمع" لحل المشاكل التى تهم الحكومة والإدارة ، وكانت اللجان مكلفة بتقديم حلول عملية للمشاكل المحالة إليها. وعقدت جلساته مرة كل خمسة أيام؛ لمناقشة مواضيع متنوعة للغاية: ألوان الصباغة، والزراعة فى الوجه البحرى، والنباتات الطبيعية، والحيوانات البرية، وعلم الخرائط، والطب ... إلخ ، وظهرت نصوص بعض هذه الجلسات فى جريدة العشرية المصرية (La Décade Egyptienne) ثم ظهر أغلبها فى كتاب "وصف مصر".

وبالإضافة إلى الجلسات الرسمية، كانت تعقد اجتماعات غير رسمية فى كل ليلة تقريباً فى حديقة قصر قاسم باشا حيث كان يتواجد ٤٠ أو ٥٠ شخصاً لمناقشة المشاريع أو الرحلات أو الاكتشافات. وكل ما ذكرناه يثبت كيف كان هذا المركز يُثرى معلومات من يترددون عليه – وهم كثير – وأيضاً، فإن بعض المصريين ترددوا عليه أحياناً.

وكانت فلسفة "المجمع" تتركز فى أنها تمثل الفكر الفرنسى فى القرن الثامن عشر الميلادى وفكر الثورة الفرنسية بشكل خاص. وهذه الفلسفة كانت لها صفات خاصة بها سنعرض أهمها باختصار: **وأول** هذه الصفات كانت الانتقادات الموجهة ضد النظام القائم، وهى كثيرة وجريئة، ولم تسلم الكنيسة من سهام النقد السامة التى شنها

المراقبون عليها. **والصفة الثانية** كانت تصاعد تيار "الفكر الحر"(٤) (الرافض للاستسلام لأوامر الكنيسة) فى مواجهة الثقافة المتشبعة تماماً بالمشاعر الدينية. لقد بقى الكثير من المسيحيين المحترمين متمسكين بآرائهم، ولكن - فى الوقت نفسه - ظهر العديد من المفكرين الذين كانوا - ببساطة - "لا دينيين"(٥) مثل: فولتيير **(Voltaire)** وروسو.**(J.J. Rousseau)** أما الفلاسفة "الموسوعيون"(٦) - تحديداً - فقد أظهروا اللامبالاة بالدين ، بل وكان بعضهم يعادونه بشكل واضح مثل: داليمبير **(D' Alembert)** وديدرو**(Diderot)** وهولباك **(Holbach)** وهلفيتوييوس **(Helvetius)** ... ولم يعد "الفكر الحر" يخشى الإفصاح عن نفسه علانية.

ولم يفلت النظام الملكى من التحليل وإصدار الأحكام ضده ، واقترح المفكرون عمل إصلاحات سياسية واجتماعية.

لقد هبت ريح الثورة وحلت فى النفوس، وبرز إله جديد: فتقدم العلم على الدين(٧) وساد "المبدأ النقدى"(٨) النابع من فلسفة ديكارت **(Descartes)**(٩) . إن مذهب "روح

---

(٤) الفكر الحر" (La libre pensée" ترجمة فرنسية للتعبير الإنجليزى "Free Think"وهو الفكر الذى لا يثق إلا بالعقل فى مجال المسائل الدينية ويرفض أن تفرض عليه أى عقيدة مسبقة قد تؤثر فى تفكيره [المترجم] .

(٥) راجع مادة "التأليهية" أو "اللادينية"، الفصل الرابع، ملحوظة رقم (٥) [المترجم] .

(٦) "الموسوعة" : L'Encyclopédie هى اختصار لـ (L'Encyclopédie ou Dictionnaire raisonné des sciences, des arts et des métiers) أو "القاموس العقلانى للعلوم والفنون والصنائع". أعظم عمل لنشر العلوم والفلسفة ظهر فى القرن الثامن عشر الميلادى، ما بين سنتى ١٧٥١ و١٧٧٢م. شارك فى تحريرها عدد كبير من الفلاسفة والعلماء المتخصصين فى كل مجالات المعرفة - تحت إشراف ديدرو وداليمبير - ويطلق عليهم اسم "الموسوعيون". (Les Encyclopédistes) وكان الهدف الأساسى "للموسوعة" هو تأكيد أن الإنسان قادر على تغيير الكون لو: تحرر من الأفكار المسبقة، وإذا سيطر بعقله على الدين والسياسة والاخلاق. واهتمت "الموسوعة" اهتماماً كبيراً بالفنون الميكانيكية والحرف لرفع شأن الصانع وإظهار فائدته الاجتماعية [المترجم] .

(٧) لعله من المفيد فى هذا السياق قراءة رائعة نجيب محفوظ "أولاد حارتنا" - وهو دارس للفلسفة - خصوصاً الجزء الأخير "عرفة" [المترجم] .

(٨) "المبدأ النقدى" أو "روح النقد" (L'esprit de libre examen) مبدأ فلسفى ينادى بعدم قبول أى شىء على أنه حقيقة إلا إذا قبله العقل أو أثبتته التجربة [المترجم] .

(٩) تتصف فلسفة ديكارت بالتفكير المنهجى/ العقلانى [المترجم] .

النقد" هو الذى زعزع المبدأ القديم للسلطة؛ وفى المجال الثقافى، سيفرض مبدأ فحص الوقائع وتدقيق الأفكار؛ وفى المجال الاجتماعى، سيعيد دراسة المشاكل التى تعمد ديكارت - ذلك الحريص - عدم مناقشتها.

لقد بدأ المفكرون يفضلون القيام بتحليل صبور للمسألة المطروحة للبحث بدلاً من الاكتفاء بتقديم عرض شامل لمختلف عناصرها، كما كان يحدث فى القرن السابع عشر الميلادى فى فرنسا.

إن المبادئ العامة لرسالة "الموسوعيين" يمكن تلخيص خطوطها العامة فيما يلى:

١- وضع العلوم الطبيعية فى المقام الأول من الأهمية بدلاً من الرياضيات .

٢- نشر العلوم وجعلها فى متناول الجميع، وتوظيفها لخدمة سعادة الإنسان فى المجتمع .

٣- الاستفادة من تداخل وتشابك السياسة الداخلية مع العلاقات الخارجية بالشعوب الأخرى، وجعلها قاعدة لأخلاق التعامل اليومى (المقصود بالأخلاق هنا "الأخلاق العلمانية") .

٤- ربط كل ما سبق بالفهم الواضح والذكى للطبيعة البشرية.

ويجب ألا يغيب عن ذهننا أن التركيز - فى تلك الفترة - كان ينصب على العلوم الاقتصادية ، وهى أساس معرفة "النظام الطبيعى" ، أى النظام الاجتماعى/ الاقتصادى كما كان يفهمه "الفيزيوقراط"[(١٠)]. واعتمد الفيزيوقراط على مبدأ أن المجتمع لا يستطيع العيش إلا على استهلاك الثروات التى يجب عليه - أولاً - أن ينتجها قبل استهلاكها. ولكن كيف نتصرف فى هذه الموارد وكيف نقتسمها؟؟

هنا يتدخل تطور العلوم الاجتماعية، وهنا - أيضًا - لابد من ضرورة تطبيق

---

(١٠) "الفيزيوقراط" (Les Physiocrates) : مذهب بعض الإقتصاديين فى القرن الثامن عشر الميلادى - من أتباع كيزنى - (Quesnay) - الذين كانوا يعتبرون الزراعة هى مصدر الثروة الوحيد. وهم فى ذلك يعارضون مذهب "المركنتيلية" "(Le Mercantilisme)" "مذهب التجاريين" [المترجم] .

الرياضيات على العلوم الاجتماعية، خصوصاً "حساب الاحتمالات" الذى يفرض نفسه علىٰ هذا المجال.

وخلاصة الأمر هو: أن "البحث عن السعادة" هو غاية الإنسان التى يجب عليه أن يسعى إليها، وسيصل إليها بواسطة الثقافة والتقدم العلمى[١١]. إن لب وروح رسالة "الموسوعيين" موجودان فى "إعلان حقوق الإنسان والمواطن"[١٢] لقد أراد بونابرت وضباطه وعلماؤه تطبيق هذه الأفكار الإنسانية فى مصر ، وبصفتهم الورثة البررة لتعاليم ثورة ١٧٨٩م، فقد جعلوا هدفهم هو تحرير الشعب المصرى من البؤس والاستبداد وإعطاؤه أسس الديمقراطية والرخاء[١٣].

ويقف هذا المحتوى الفلسفى على طرف النقيض من الفكر الجامد للأزهر. وبالإضافة إلى ما سبق ذكره، فقد حاول الفرنسيون "فرض" هذا المحتوى الفلسفى بقوة السلاح على شعب لم يطلب أى شىء لا من جيرانه ولا من البعيدين عنه، فكان رد فعل الشعب المصرى متوقعًا: لقد رفض كل ما عرضه عليه الفرنسيون حتى دون أن يكلف نفسه عناء اكتشاف ما قد ينفعه منه على المدى القصير.

وكان المصريون - على الأقل الأكثر استنارة فيهم - قد ألقوا بنظرة فضولية، يشوبها بعض القلق "على المجمع": فتصفح الجبرتى الكتب المصورة التى وضعها الفرنسيون تحت تصرفه فى مكتبة "المجمع" التى كانت مفتوحة يوميًا للجمهور، ورأى

---

(١١) هذا بالضبط ما كان ينادى به "عرفة" فى رائعة نجيب محفوظ "أولاد حارتنا" [المترجم] .

(١٢) إعلان حقوق الإنسان والمواطن" ("Declaration des droits de l' Homme et du Citoyen) توجد خمسة إعلانات خاصة بحقوق الإنسان صدرت فى سنوات : ١٦٨٩م (إنجلترا) و١٧٨٩م (فرنسا) و١٧٩٣م (فرنسا) و١٧٩٥ (فرنسا) و١٩٤٨ (الجمعية العامة للأمم المتحدة)، وما يهمنا هنا هو "الإعلان" الصادر فى فرنسا فى ١٧٩٣م (دستور١٧٩٣) الذى ينص على أن "السعادة المشتركة هى هدف المجتمع". وهذا الإعلان أفضل بكثير من "إعلان سنة ١٧٨٩م" لأنه ينص على: حق الإنسان فى المساواة، والعمل، والمساعدة، والتعليم، والثورة على الظلم باعتبارها كلها حقوقًا أساسية وطبيعية للإنسان، أى إنسان [المترجم] .

(١٣) لقد تصرف جيش الاحتلال الفرنسى بقسوة ووحشية - تليق تمامًا بجيش غاز فى بلد محتل - أثناء قمعه لثورتى القاهرة: فقصف القاهرة بالقنابل، واقتحم الأزهر بخيوله، وأعدم من أعدم (وتم ذلك كله بإنسانية وديموقراطية وإخاء ومساواة!!).

=

العديد من الكواكب بواسطة التليسكوب الذى قدمه له علماء الفلك، وعرض الرسام ريجو (Rigo) عليه صوراً شخصية لبعض المشايخ الذين يعرفهم، وعرض علماء الأحياء عليه الحيوانات المحفوظة فى الكحول والرسوم التى رسموها لها وهى حية، وأجرى علماء الكيمياء - أمامه - تجارب على عمليات الترسيب والبلورة، وأخافوه عندما خلطوا أمامه بعض المواد الكيميائية فسببت انفجاراً، وشرح له علماء الطبيعة الكهرباء الاستاتيكية وجعلوه يرى شرارات كهربائية، وأجروا أمامه تجربة على التفريغ الكهربائى.

ولكن كل ما رآه الجبرتى عند الفرنسيين لم يثر لديه أى حماس ، بل جعله يشعر بالشك تجاه نواياهم غير المعلنة. ونفس هذا الموقف العام المتشكك تجاههم نجده لدى غيره من المشايخ ولدى بقية المصريين. والمصرى الوحيد الذى أظهر بعض الثقة تجاه الفرنسيين كان الشيخ المهدى الذى صادق المستشرق ج. ج. مارسيل. وبالتأكيد ، فإن سهولة التواصل بين المهدى ومارسيل ترجع إلى وجود نقطة تماس بين الاثنين ، ألا وهى

= "وبصفتهم الورثة البررة... الرخاء"، لم يترك الفرنسيون - عند إجلائهم عن مصر - أى ورقة لنشر مبادئهم وحتى المطبعة أخذوها معهم، بل أنهم قد خرجوا محملين بالآثار المصرية التى سمح لهم الإنجليز بشحنها معهم.

إن هذه الفقرة الدعائية الامبريالية الفجة - بل والمخجلة أيضاً - قد كتبها المؤلف خصيصاً بمناسبة مرور ٢٠٠ عام على إرسال فرنسا لحملتها "الإنسانية/ التنويرية/ التحريرية/ الخيرية" ... إلخ على مصر. وهذه الفقرة الدعائية نموذج نمطى يتطابق تماماً مع الخطاب الإمبريالى الغربى (تحديداً من فرنسا وإنجلترا وأمريكا) الذى يقدم تبريرات بلهاء لإرسال الجيوش الإمبريالية لغزو دول العالم الثالث ولفرض "الديموقراطية والنظام والرخاء ثم السعادة" بالقوة على مواطنى البلاد التى يحتلونها.

وهذه الفقرات الدعائية الإمبريالية المخجلة تتناقض تماماً مع ما ذكره المؤلف نفسه فى هذا الكتاب عن الأسباب الحقيقية للحملة الإستعمارية الفرنسية على مصر. وهذا التناقض الواضح يجعلنا نتساءل أولاً: عن الجمهور الذى يستهدفه المؤلف بهذه التبريرات الواهية: فهل هو القارئ الأوروبى المثقف (الذى صدرت هذه السلسلة من أجله تحت عنوان "فهم الشرق الأوسط") ؟؟ أو هو القارئ المنتمى للعالم الثالث (وهو أيضاً مثقف) ؟؟!! وثانياً: عن إمكانية نجاح محاولة "تزييف وَعْى القارئ (عمداً وفى العالم الثالث تحديدا) استخفافا من المؤلف بعقل هذا القارىء.

ونؤكد أن المترجم يوافق المؤلف تماماً على ما ذكره عن عظمة "الموسوعة والموسوعيين" و"إعلانات حقوق الإنسان والمواطن"، فالاعتراض إذن ينصب على استخدام هذه الأفكار الإنسانية العظيمة لتبرير حملة إمبريالية [المترجم] .

دراسة الأدب. وهذا الوضع يختلف عن وضع باقى العلماء الفرنسيين ذوى التكوين العلمي، وبالتالى فلم توجد نقطة تلاق بينهم وبين الشيوخ. ونتج عن صداقة المهدى لمارسيل أن ترجم مارسيل حكايات صديقه ونشرها فى فرنسا سنة ١٨٣٦م.

إن التفعيل السريع لاندماج الشعبين - المصرى والفرنسى - لم يكن معقولاً أبداً. لكن فى المقابل، عندما وزع بونابرت برنامج عمل "المجمع"، فإنه قد أعطى دفعة جادة للأذهان لكى تتقدم، وكان على موعد مع المستقبل لأن مصر حتماً ستطرح هذه المسائل وستناقشها - مع نفسها - لكى تصبح دولة عصرية.

ثانياً: المطبعة والصحافة:

أ- **المطبعة:** لم تعرف مصر المطبعة قبل وصول الحملة الفرنسية إليها. وبالقطع، فإن المصريين كانوا يعرفون الكتب المطبوعة المستوردة - بكميات قليلة - من اسطنبول ولكن المطابع نفسها كانت مجهولة تماماً.

وأول مطبعة عرفتها مصر كانت مطبعة مارك - أوريل (Marc-Aurel) (١٧٧٥ - ١٨٣٤م) - التى أتت بها الحملة وكانت من الزنك. وبدأ مارك - أوريل عمله وهو فى عرض البحر قبل أن تطأ قدماه أرض مصر. وبالإضافة إلى طباعة المنشورات، قام مارك - أوريل بطباعة الأعداد الأولى من نشرتين دوريتين لم يظهر مثلهما أبداً على ضفاف النيل من قبل. واستمر فى عمله هذا حتى تم إنشاء المطبعة الرسمية وتشغيلها . ولم يكن مستوى مطبوعاته يبعث دائماً على الرضى إلا أنه ظل فى مصر حتى ١٨٠٠م، ورحل بعدما باع معداته للحكومة.

وبالإضافة إلى هذه المطبعة الخاصة، وجدت مطبعة أخرى رسمية وأكثر أهمية جلبها بونابرت من إيطاليا. وكانت هذه المطبعة مزودة بكل لوازمها وبحروف فرنسية وعربية، ومعها طاقم الطباعين اللازمين لتشغيلها والمديرين والمصححين. ووضع بونابرت كل ذلك تحت إدارة ج.ج. مارسيل (١٧٧٦ - ١٨٥٤م).

وبدأت هذه المطبعة عملها - جزئياً - فى الإسكندرية لكنها لم تشتغل بكامل

طاقتها إلا فى شهر يناير سنة ١٧٧٩م فى القاهرة. وفى البداية، وضعت هذه المطبعة فى أحد القصور ثم استقرت فى القلعة ، وتغير الاسم: فبعد ما كان اسمها "المطبعة الشرقية والفرنسية" أصبح "المطبعة القومية".

وإلى جانب النشرتين الدوريتين - المذكورتين سلفًا - أصدرت المطبعتان عشرة مطبوعات: قانون العقوبات العسكرى، وكتاب تمارين قواعد اللغة العربية الفصحى، وحكايات لقمان الحكيم، وكتيب عن أمراض العيون فى مصر، وآخر عن مرض الجديرى، وكتاب عن قواعد اللهجة العامية، ... إلخ مع العديد من البيانات.

وإلى جانب هاتين المطبعتين، كانت توجد ورشة ميكانيكية أنشأها كونتيه (Conté) فى القاهرة، نادرًا ما تحدث عنها المؤرخون. وذكر جيس (Geiss) - فى دراسته عن المطابع فى مصر - أن هذه المطبعة كان يوجد بها قسم يطبع بطريقة الحفر على النحاس، تحت رئاسة المواطن هوشو (Hochu) .

لكن "المطبعة القومية" كانت أكثر المنشآت الفرنسية التى جذبت أنظار المصريين وأثارت فضولهم وإعجابهم ، لدرجة أن بعض مشايخ "الديوان" - مثل: المهدى والفيومى والصاوى - زاروها عدة مرات. أما الشيخ الفاسى، فكان قد سبق له أن عاين مطبعة فى لبنان وأخرى فى اسطنبول فصرح بأن مطبعة القاهرة أفضل منهما.

وفى سنة ١٨٠١م، ذكر الشيخ البكرى لمارسيل أنه توجد كتب عربية ممتازة يجب طباعتها، ولم يعارضه أحد.

ومع نهاية الحملة الفرنسية، رجعت المطبعة - بكل معداتها - إلى فرنسا، وكان على مصر أن تنتظر لمدة ٢٥ سنة لكى تحصل على مطبعة جديدة.

ب - الصحافة: أصدرت الحملة الفرنسية أثناء تواجدها فى مصر مجلتين دوريتين هما:

١- "بريد مصر" ("Le Courrier d' Egypte")،

٢- "العشرية المصرية " ("La Décade Egyptienne") .

وربما تكون قد أصدرت مطبوعة ثالثة باللغة العربية – "التنبيه" – لكن لا توجد منها أية نسخة.

١– لقد بلغ عدد مجلدات مجلة "Le Courrier d' Egypte" ١١٦ مجلداً من قطع الثُّمْن (١/٨) وظلت تصدر بلا انقطاع من يوم ١٢ فروكتيدور من العام السادس للجمهورية (٢٩ أغسطس سنة ١٧٩٨م) حتى يوم ٢٠ بريريال من العام التاسع للجمهورية (٢٧ يوليو سنة ١٨٠١م). وكان ثمن العدد الواحد ٦ مدينيات و١٥٠ مدينياً للثلاثين عدداً، وتصدر كل أربعة أيام.

وعين بونابرت اثنين من "اللجنة" للإشراف على التحرير هما: فورييه (Fourrier) وكوستاز (Costaz).

ويما أن فورييه كان متواجداً فى رشيد حيث تتمركز فرقته، فقد تولى كوستاز بمفرده إصدار أول أربعة أعداد. وعندما عاد فورييه إلى القاهرة، اضطلع بمهمة نشر هذه الدورية. وأثناء الحملة على بلاد الشام، تولى كوستاز – للمرة الثانية – مهمة إصدار المجلة. واشتكى العديد من سوء مظهرها، فتم تغيير الناشر وعين ديجينيت مكانه بُناءً على طلب كليبر.

وكانت مجلة "Le Courrier d' Egypte" تنشر: القرارات الرسمية، وأنباء الجيش الفرنسى، والاحتفالات والمناسبات المختلفة. ونقرأ فيها أيضاً أصداء العروض المسرحية والحفلات الراقصة فى "التيفولى" (Tivoli) ونشرت أيضاً إعلانات عن المنشآت الفرنسية الجديدة فى القاهرة. أما أخبار فرنسا، فقد كان يمكن تصنيفها على أنها مقالات كتبت بدافع الشعور الوطنى أكثر من كونها أنباء : لأن العلاقات بين القاهرة وباريس كانت شبه منعدمة. كما نشر بعض الكتاب قصائد خاصة لمناسبات بعينها: مثل قصيدة بينابن (Benaben) بمناسبة عيد الثورة الفرنسية[١٤].

---

(١٤) ذكر المؤلف هنا جزءا من هذه القصيدة [المترجم].

وكانت لهذه المطبوعة مهمة أخرى أكثر سرية، فقد كانت: توجه الرأى العام الفرنسى، وتهدىء مخاوفه، وتشجع التواصل مع المصريين. واستمرت بصفتها مطبوعة إخبارية محايدة ولم تحاول - أبداً - أن تتخطى الأهداف التى أنشئت من أجلها.

٢- ومنذ أن عقد "المجمع" جلسته الأولى، قرر أعضاؤه إصدار مجلة أسموها "La Décade Egyptienne" ، وكتب تحت الاسم عبارة "جريدة أدبية وللاقتصاد السياسى". وكانت تصدر كل عشرة أيام، ومن هنا جاء اختيار الاسم، ثم أصبحت شهرية بدءاً من المجلد الثانى. وكانت تبعث النسخ للمشتركين على شكل مجموعة أعداد تكون مجلداً. وأصدرت هذه المطبوعة ثلاثة مجلدات: أهدت الأول إلى بونابرت، والثانى لكليبر، والثالث لمينو.

وذكر شامبوليون - فيجاك[١٥]، فى سنة ١٨٤٨م، وجود عدة صفحات من مجلد رابع ومقالات أخرى فقدت أثناء ثورة القاهرة الثانية.

وكان أول رئيس تحرير لها هو ديجينيت، ثم حل فورييه محله عندما اشترك الطبيب فى الحملة على بلاد الشام. وصدر العدد الأول فى يوم ١٠ فينديمير من السنة السادسة للجمهورية الفرنسية (الأول من أكتوبر سنة ١٧٩٨م) وكان العدد الأخير فى سنة ١٨٠٠م. وثمن النسخة الواحدة كان يساوى ٢٠ فلساً و١٠ جنيهات للإثنى عشر عدداً. وقام الطباع مارك - أوريل بطباعة الأعداد الثلاثة الأولى؛ وبدءاً من العدد الرابع، تولت "المطبعة القومية" هذه المهمة.

ووجد البعض أن اسم هذه المطبوعة الدورية (La Décade) غير مناسب لأنه توجد مجلة شبه رسمية - يصدرها "مجمع العلوم الأخلاقية والسياسية" - تحمل الاسم نفسه .

وفتحت هذه المجلة صفحاتها للجميع فطبعت: المحاضر الرسمية للمجمع، والمذكرات والدراسات التى قدمت له. وتظهر الروح العلمية فيها بشكل واضح؛ أما المساهمات الأدبية، فقد كانت أسوأ ما نشرته على صفحاتها. وفى هذا تناقض واضح

---

(١٥) "Champollion - Figeac" هو الشقيق الأكبر لفرنسوا شامبوليون الذى توصل إلى اكتشاف نظام تدوين الكتابة المصرية القديمة [المترجم] .

مع وصفها بأنها "جريدة أدبية..." وفى الواقع فإن هذه المجلة لم تحتوِ إلا على بعض الترجمات لقصائد عربية ترجمها مارسيل، ومقاطع من كتاب تاس (Tasse) المعنون "أورشليم المحررة" والتى نظمها شعراً بالفرنسية بارسيفال دى جراند ميزون. وهذا الشاعر جاء إلى مصر مع لجنة العلوم والفنون (...)(١٦) ، كما قام المستشرق ج.ج. مارسيل بترجمة "سورة الفاتحة" ثم اقتبسها ونظم منها قصيدة (...)(١٧). وعلى القارئ المهتم، بهذه الترجمة والاقتباس، أن يقارنهما بالترجمة الحديثة التى قام بها المستشرق جاك بيرك (Jacques Berques) للقرآن، وهى من أفضل الترجمات المعتمدة(...)(١٨)

٣- وحسبما ذكر أ. جاللان، فقد تم طبع جريدة باللغة العربية - هى "التنبيه" - وكانت مخصصة للتوزيع فى جميع أرجاء القطر المصرى لنشر قرارات الحكومة وغير ذلك مما تقتضيه الأحوال. وكان يحررها مسئول الأرشيف فى "الديوان" تحت إشراف فورييه. وبما أنه لا توجد أية نسخة من هذه الجريدة ، فلابد أنها ظلت مجرد مشروع لم ير النور أبداً.

لقد كانت حياة الصحافة الفرنسية فى مصر مرتبطة بوجود الحملة: حياة قصيرة ولكنها مجيدة. وكان توزيعها رائجًا فى أوروبا حيث كان الأوروبيون يقرأونها باهتمام على الرغم من فرض الحصار البحرى على مصر، وكانت مقالاتها - خصوصًا مقالات "La Décade" - فى الاقتصاد مكتوبة بعناية بأقلام رجال أكفاء، فأعطت رؤى جديدة فى الاقتصاد والسياسة والعلوم الطبيعية، وحتى فى مجال علم الآثار. لقد كانت هاتان الجريدتان هما الأساس الذى قام عليه الصرح العلمى الشامخ: كتاب "وصف مصر" (La Description de L' Egypte) .

---

(١٦) أورد المؤلف النشيد رقم ١٧ من هذه القصيدة [المترجم] .

(١٧) أورد المؤلف هذه القصيدة المقتبسة عن سورة الفاتحة [المترجم] .

(١٨) أورد المؤلف نص ترجمة جاك بيرك لفاتحة الكتاب، وأشار إلى ترجمته لمعانى القرآن الكريم والتى نشرتها دار نشر "Sindbad" فى سنة ١٩٩١م، ثم دار نشر Albin Michel فى سنة ١٩٩٥[المترجم] .

ثالثًا : المسرح والموسيقى :

أ- المسرح:

كان المصريون يجهلون كل شيء تقريبًا عن المسرح الغربى لكنهم عرفوا "خيال الظل"، ونوعًا من "مسرح العرائس"(١٩)، "والتعزية".

وكانت "التعزية" تحيى ذكرى وفاة الإمام (على بن أبى طالب وابن عم الرسول) وزوج ابنته ورابع الخلفاء الراشدين ، وذكرى استشهاد ولديه : الحسن والحسين، فى موقعة كربلاء سنة ٦٨٠م. وهذه الاحتفالية التمثيلية ذات طابع دينى مبالغ فيه يهتم به الشيعة اهتمامًا خاصًا، وشيعة القاهرة أغلبهم من الفُرس.

ومسرح العرائس يقدمه فنانون جوالون يعرضون – أساسًا – شخصية "القره جوز"، وهو شخصية قريبة من شخصيتى Polichinelle(٢٠) و Arlequin(٢١) فى فرنسا. ويظهر "القره جوز" كشخص قليل الأدب وفظ وداعر يسخر من معاصريه الموجودين. وفكاهاته تتجاوز حدود الأدب لكنها تسعد المشاهدين.

أما "خيال الظل"، فيسلى زبائن القهاوى – التى يديرها الأروام – لتسلية أتراك استانبول ، وشخصيات هذا المسرح باهتة وفاحشة. ومع ذلك، يحضر الأطفال هذا المسرح مع ذويهم...

ويقدم البهلوانات عروضهم لتسلية الناس باستعراض قوتهم وفكاهاتهم. ومع البهلوانات، يوجد المشعوذون والقرداتية.

---

(١٩) يقصد "القره جوز" (الأراجوز) [المترجم] .

(٢٠) Polichinelle (پوليشينيل) : شخصية نمطية من المسرح الكوميدى مثل : رجلاً له فتبيّن وأنف أحمر معقوف وصوت رفع حاد اشتهرت هذه الشخصية على المستوى الشعبى فى مسرح العرائس منذ القرن الثامن عَشَر ، وأصبحت أهم شخصياته ، وكانت تتصف بالوقاحة والمباهاة . [المترجم] .

(٢١) Arlequin (آرليكان) : شخصية مسرحية نمطية من مسرح "الكوميديا ديللارتى" الإيطالى . وكانت تمثل رجلاً يرتدى رداءً متعدد الألوان ويغطى وجهه بقناع أسود ، ويتصف بالسخرية اللاذعة الفظة ، تطورت هذه الشخصية فأصبحت شخصية الخادم الساذج . [المترجم] .

ومن المؤكد أن مصر كان بها – أثناء الحملة – ممثلون يقدمون عروضًا درامية حسب المعايير الغربية. والدليل على ذلك هو شهادة م. دى شابرول - (M. De Chabrol) عضو الحملة الفرنسية – الذى كتب مقالاً فى "وصف مصر" ذكر فيه ما يلى: "كانت توجد فرقة تمثيلية مكونة من مسلمين ومسيحيين ويهود يذهبون للتمثيل فى منازل من يدفع لهم، وكانوا يستخدمون فناء المنزل كقاعة عرض مسرحى، ويبدلون ملابسهم خلف ساتر فى إحدى الزوايا. وكان فى القاهرة أوروبيون استقروا فيها منذ سنوات طويلة، ولم يسبق لهم مشاهدة هذا العرض، فاستدعوا هذه الفرقة فى منزل تاجر إيطالى. وأعد التاجر مكانًا للعرض الذى لم يعجب المتفرجين لأن الممثلين كانوا يتحدثون بالعربية وبلا موهبة وبتكلف.

وكان العرض عبارة عن مؤامرة تحكيها امرأة بدوية تدعو المسافرين لخيمتها لكى تسرقهم. وتضايق التاجر الإيطالى فأوقف العرض".

فمن كان هؤلاء الممثلون ؟؟ ومن الذى دربهم على فن التمثيل ؟؟ وماذا كان تأثير ما يقدمونه على الجمهور ؟؟ إن هذه الأسئلة وغيرها لا تزال بلا جواب حتى الآن.

وأراد بونابرت تسلية الجيش فكلف دارجافيل (Dargeavel) – زميله السابق – بتنظيم مكان لتسلية الجيش فى القاهرة، فاختار مكانًا متوسطًا بالقرب من الأزبكية – فى "غيط النوبى" – وبنى فيه مسرح التيفولى(Tivoli) . وتم تجهيز المكان على هيئة حديقة إنجليزية بها أشجار الليمون والبرتقال وأراجيح وألعاب مسلية. وكان الضباط والجنود البسطاء يدخلونه مقابل دفع مبلغ بسيط (أو ٨٦٠ مدينيًا بصفة اشتراك شهرى).

وفى الداخل، كانت توجد قاعة للعب البليارد، وطاولات للعب الورق، ومقاصير للقراءة، ونزهات متنوعة، وأيضًا قهوة ومطعم، وقاعة بها فرق موسيقية تعزف مقطوعات راقصة فى ساعات محددة لكن النساء كن نادرات الوجود. وخصصت قاعة للعروض المسرحية، وطلب بونابرت من "حكومة الإدارة" إرسال فرقة للتمثيل. وفى انتظار وصول الفرقة من فرنسا، كان لابد من الاكتفاء بتمثيل فرقة من الهواة وتَحَمُّل ما يقدمونه.

وكان "التيفولى" يضاء ليلاً. وبعد قليل أنشئت به حمامات، ثم أصبح من حق الهواة تعلم ركوب الخيل... وفى عهد مينو، أصبح "التيفولى" أكثر ديموقراطية وأكثر شعبية: فظهر الأتراك والمسيحيون الشرقيون فى ممراته، وكذلك الجنرالات الفرنسيون وهم يتأبطون أذرع عشيقاتهم الجورجيات والشركسيات ، وفى التيفولى استطاعت مدام فوريس (Mme Fourés) إغراء بونابرت ...

وبفضل مجهود الموسيقيين، تم تقديم عرضين مبتكرين للأوبيريت فى القاهرة هما: "المحامى باتولان (L'avocat Patelin) و"الطحانان" (Les deux Meuniers) ، وكانت أغانيهما من تأليف بلزاك (Balzac) – عضو "لجنة العلوم والفنون" – والموسيقى من وضع ريجيل (Rigel) ، عضو "المجمع". ومن غير المعلوم ما إذا كانت الأدوار النسائية قامت بها سيدات فعلاً أم لا، ولكننا نعرف أن السيدات قد صعدن – فى العروض التالية – للتمثيل على خشبة المسرح.

ب- **الموسيقى:** فى الفقرات التالية، سنتحدث عن الآلات الموسيقية والغناء والرقص فى مصر فى أواخر القرن الثامن عشر الميلادى.

١- ذكر فيللوتو (Villoteau) (١٧٥٩ – ١٨٣٩م) أن أنواع الآلات الموسيقية العربية كثيرة لكنها سيئة الصنع. وأهم آلات الإيقاع: "الطبل البلدى"، و"الرق"، و "النقرزان". ومن آلات النفخ، يستخدم الموسيقيون: "الناى" و"الناى المجوز" و"المزمار"، و"البوق".

أما الآلات الوترية، فمنها: "الكمنجة" – وبها أربعة أوتار أو خمسة ولا يمكن تركيبها ولا ضبطها – ويعزف عليها باستخدام قوس به شعر سميك من ذيل الحصان لونه أسود أو أبيض. وتصدر الكمنجة صوتًا حادًا أو رخيمًا فى الوقت نفسه . وأيضًا يوجد "العود" الذى يعزفون عليه بالريشة، و"القانون"، وتوجد أيضًا آلة تسمى "الزكارة" (وهى نادرة الاستخدام وتشبه "قربة الموسيقى"، بدون وجود عصا كبيرة بها)، ويستخدم الأروام "الجيتار" ويعزفون عليه بمهارة.

وفى أغلب الأحيان، يعزف الموسيقيون فى مجموعات صغيرة بها أربعة أو خمسة عازفين وتضبط "الطبلة البلدى" الإيقاع الأساسى. ومن النادر أن تدون الموسيقى

بالنوتة الموسيقية: فهى تعزف سَماعى وتترك للعازفين حرية تصرف كبيرة فى تنفيذ التنويعات الموسيقية.

٢- وبصفة عامة، يصاحب أحد المغنيين الفرقة الموسيقية، لكن من الأدق أن نقول بأن الفرقة الموسيقية هى التى تصاحب المغنى أو المغنية.

ومن الصعب تحليل أشكال الغناء العربى؛ لأنه مختلف تمامًا عن المقاييس التى اعتدنا عليها فى الغرب. وهكذا نجد أن المؤدى يغير نبرات صوته، ويجزئ الكلمة الواحدة - أو بيت الشعر - إلى ألف قطعة بإضافة تنويعات لحنية عليها. والمؤدى لايعرف النوتة ولذلك يعتمد على ذاكرته وعلى التقليد. ومجموع الألحان التى يعرفها المغنى قد تصل إلى عشرة ألحان فقط، ولكن التنويعات اللحنية تجعلها لا نهائية وهنا يكْمُن نجاح المؤدى. أما الأغنية الشعبية (الموال) فهى مكونة من أربعة أبيات. وترجم ى. عجوب (١٧٩٥ - ١٨٣٢م)(٢٢) موالين. وعجوب مصرى لجأ إلى فرنسا سنة ١٨٠١(٢٣) ، وأحرز شهرة فى نظم الشعر العاطفى [...]

والشعب المصرى حساس جداً للصوت الإنسانى، والمؤدون الجيدون يحظون بإعجاب الجميع. وذكر فيللوتو أيضًا أن كل من يشتغل - فى مصر - يغنى أثناء عمله: الملاحون والنساجون والفلاحون ... إلخ وهم دائمًا ما يرددون أغانى بسيطة لكنها جميلة.

٣- والمصريون لا يرقصون لكنهم يستمتعون بمتابعة الحركات الجنسية التى تؤديها الراقصات المحترفات والراقصون المحترفون. وهؤلاء "الفنانون" - "الراقصون"- كانوا يمارسون الدعارة أيضًا حسبما ذكر الكونت دانتريج **(Comte d' Entraigues)** فى كتابه "الغزل فى مصر" (١٧٧٩) (٢٤).

---

(٢٢) عن يوسف عجوب راجع دراستنا:

"Introduction à la littérature d'expression française en Egypte", PP 71, 103, 105, 106, 167, 174, 175, 235 et la bibliographie P. 268.

وراجع أيضا: "La Revue du Caire, Janvier 1961" [المؤلف] .

(٢٣) أى أنه "لجأ" (!!) إلى فرنسا وسنه ست سنوات فقط، وأورد المؤلف هنا موالين مترجمين للغة الفرنسية [المترجم] .

(٢٤) كان هؤلاء الراقصون المحترفون من الشواذ جنسياً وكانوا ينتمون لفئة من هذا النوع كانت تمارس هذه المهنة [المترجم] .

وفيما يتعلق بالراقصين الشباب، فقد ذكر هذا الرحالة ما يلى:

"وبعد حوالى سبع دقائق، أمر (الكيخيا) كل عبيده بالخروج ولم يبق سوى عشرين صبيًا – فى غاية الجمال – يتراوح سنهم من ١٥ إلى ١٨ سنة. وسواء أكان جمالهم طبيعيًا أم يرجع لأنهم قاموا بتزيين وجوههم، فقد كانت ملامحهم ذات جمال خارق. ورقصوا أمامنا عدة رقصات خليعة (...) وبدت لى رقصاتهم لطيفة: فكانوا يحتضنون بعضهم برقة، ويتبادلون القبل بشهوة ، وكانت نيران عيونهم تعبر عن اضطرام الشوق ولوعة الرغبة. وسألنى الكيخيا عمن يعجبنى منهم... وفى الواقع، فإنه سألنى عدة مراتٍ لكى أختار أحدهم لدرجة أنه طلب منى – أخيرًا – أن أبدى رأيى فيمن هو أجملهم، فأشرت له على أحدهم. وعلى الفور، أمره بأن يقبل يدى ويحتضننى ويرقص أمامى فنفذ الراقص أمره بلطف".

وكتب الرحالة نفسه عن الراقصات ما يلى: "كان عدد الراقصات تسع تم اختيارهن من بين أشهر الراقصات. وفى البداية، أبدين بعض التمنع ورفضن خلع الحجاب، ولكن الكيخيا أمرهن بتنفيذ الأمر لأننى ضيف الباشا، وهددهن بإلقائهن فى النيل إذا أبدين أية ممانعة !! وأمام هذا التهديد، خلعن الحجاب وأعترف بأننى لم أجد بينهن واحدة جميلة. وكانت كلهن متزينات لكن الخضاب الأسود يثبط رغبة أى شخص مهما كان شهوانيًا، خصوصًا إذا كان شهوانيًا من فرنسا. ثم بدأن فى الرقص: فكانت إحداهن تعزف على مزمار بينما أخذت الثمانى الأخريات فى القفز. وأمام هذا المشهد، يختفى الحياء، والشخص الأكثر برودة يشتعل بنيران الشهوة عند رؤية تلك النسوة يتخذن أوضاعًا خليعة غير معقولة. وبالنسبة لما رأيته هنا، فإن راقصات استانبول يعتبرن تلميذات مبتدآت. إننا نستطيع – هنا – معرفة روائع فن اللذة الحسية: فلا شىء يعادل الرغبة الحسية التى تثيرها الراقصات فى المشاهدين إلا ما يشعرن به ويحركهن. ثم توقفت ست منهن بينما بدأت راقصتان فى تمثيل حركات تعبر عن مطاردة غرامية: من تَهرب واستثارة. وأخيرا، قلبت إحداهن نفسها كما لو كانت ستسقط أرضًا ورجعت برأسها إلى الوراء وأسندت جسمها على يديها ورفعت نفسها

– وهى فى هذا الوضع – لدرجة أن قدميها لم تلمسا الأرض. إن لاعبات الأكروبات الفرنسيات يقمن بهذه الحركة نفسها فى حين أن الراقصة الشرقية تنثنى على نفسها وتثف خصرها حوالى ٢٠ مرة مثل اللبلاب. وبدت الاستثارة على باقى الراقصات عند رؤية هذا المشهد. وبعد ألف لفة، وألف وضع خليع، بدأت كل راقصة من الثمانى تؤدى حركة ما: فواحدة تسقط بعد مقاومة عنيفة، والثانية تنادى عشيقها الخجول، والثالثة تثير بمداعبتها عشيقًا مجهداً، والرابعة بلغت ذروة اللذة الحسية..."

ويرقص الأروام – فى مصر – على الجيتار رقصة "الروميكا" المنتشرة فى جميع جزر الأرخبيل اليونانى. وأضاف لاكور (Lacorre) – الذى اشترك فى الحملة الفرنسية – أنه رأى فى جزيرة الروضة شابات روميات يمارسن هذه التسلية تحت رعاية الأهل كل يوم أحد.

وكان للجيش فرقته الموسيقية الخاصة التى كانت تساهم بالعزف فى كل الإحتفالات: فأثناء فصل الشتاء – مثلاً – كانت تعزف كل يوم فى منتصف النهار تحت نوافذ المستشفيات العسكرية لتسلية المرضى ، ولم يكن لملهى التيفولى فرقة موسيقية غيرها للعزف فى الحفلات التى كان يحييها.

ولم يكن الأتراك يجهلون الموسيقى العسكرية: فقد كانوا يبهجون الشعب المصرى بعزفها عند وصول الوالى الجديد لمصر حسبما ذكر الكونت دانتريج: "كان (الوالى الجديد) يتنقل ببطء شديد ويسير دومًا فى موكب حتى يصل إلى القاهرة ويدخلها بصفته " الباشا وزير مملكة مصر". وكانت تسبقه ستة جمال يقودها العبيد وهى مغطاة بقماش قرمزى اللون لتفسح له الطريق. وكل جمل كان يحمل على جانبيه طبلتين من النحاس المذهب ويسير العبيد بجوارها . وبجوار كل طبلة، كان يجلس عبد فى يده عصا يدق بها على طبلته. وبعد ذلك، تسير جمال مزينة بالحنة الحمراء على ذيولها ورقبتها، وفوقها من١٢ إلى٢٠ من عازفى الأبواق. وكل آلة من هذه الآلات

المختلفة تعزف اللحن الذى يتراءى لها دون أى تنسيق مع الآخرين. وكانت هذه الضوضاء الرهيبة هى موسيقى موكب الباشا".

إن الموسيقى التى تكلمنا عنها – هنا – تشتمل على الغناء والرقص، ونلاحظ أنها منقسمة حسب كل جالية، وكل جالية تهتم بموسيقاها الخاصة بها فقط. إذن فلا مجال لحدوث أى تأثير متبادل؛ وبصفة خاصة، لا مجال لأن تستعير إحداها من الأخرى. بل على العكس، فإن هذه الموسيقى تبرز هوية المؤدى أمام الآخرين بالضبط كما لو كانت لغة يعتز بها المرء ويدافع عنها.

الفصل السادس

الحياة اليومية

أولاً: الأعمال اليومية :

أ - الملابس:

سنبدأ هذا القسم بإبداء بعض الملاحظات العامة عن الملابس فى مصر.

الملاحظة الأولى: إن الشرق لا يعرف "الموضة" وذلك على عكس ما يحدث فى أوروبا. ونقصد بالموضة -- هنا – تلك العادة المؤقتة والجماعية التى تقضى بتغيير الأزياء حسب مؤثرات خارجية أو استجابة لنزوات علية القوم. ففى الشرق، نلاحظ أن شكل الملابس ثابت؛ وحتى إذا طرأ عليها تغيير، فإنها تتغير ببطء شديد وبطريقة غير محسوسة. والتعديلات التى تتم على الملابس تخضع للضرورة أو حسب المكان.

الملاحظة الثانية: يفضل الناس الألوان الصارخة: فبقدر ما يكون اللون صارخًا، بقدر ما يزيد الإعجاب به، خصوصًا لدى النساء ، علمًا بأنهن لا يرتدين تلك الألوان إلاً بداخل المنزل فقط لأن التواضع والعرف يفرضان عليهن ارتداء الملابس السوداء أو داكنة اللون عند الخروج.

الملاحظة الثالثة: إن السمة المميزة للملابس فى الشرق هى أنها "فضفاضة". وعندما يرى الشرقى أحد الأوروبيين مرتديًا بنطلونه، فإنه يسأله بدهشة: "هل لديكم نقص فى القماش حتى تقتصدون فيه لهذه الدرجة ؟؟" إن حرارة الجو تبرر ارتداء ملابس فضفاضة.

ويرتدى الرجال والنساء ملابس مشتركة بين الجنسين وهى:

"اللباس"، والجلابية، والمعطف. وبالطبع فإن هذه الملابس المشتركة تختلف عن بعضها من حيث نوعية القماش وطريقة التفصيل.

١- ملابس الرجال:

فى الصيف، يرتدى الرجال عادة "اللباس" المنسوج من الكتان؛ وفى الشتاء، يرتدون "الشرشير" من الجوخ وفوقه "قميص" طويل ينزل حتى الكعب (وهو غير مشقوق من أسفل مثل قمصاننا)، و"صديرى" صغير، وقفطانًا (مفتوحًا بأكمله من الأمام)، وجلبابًا أقصر منه وهو مفتوح ويغطى القفطان وأكمامه أقصر قليلاً من أكمام القفطان. ويتم تبطينه بالفرو فى فصل الشتاء. وهذا الزى يربطونه بواسطة حزام من الصوف أو الحرير أو الموسلين. و"البنش" عبارة عن معطف فضفاض جداً وأكمامه عريضة للغاية ومشقوقة من الأطراف وتكاد تغطى أصابع اليد، وهو زى للاحتفالات يرتديه الشخص المراد تكريمه وتشريفه. و"الدفية" نوع آخر من المعاطف المنسوجة من الصوف الأسود ويرتديها أعيان الريف.

والزى الخاص بالمماليك متميز جداً لأنه يتكون من: قميص قطنى لونه أبيض ناصع أو يميل إلى الاصفرار، ويرتدى المملوك فوقه نوعًا من الجلاليب المفتوحة المتقاطعة منسوجة من كتان الهند أو حلب أو دمشق - يسمونه "عنترى" - ويغطى الجسم من الرقبة حتى الكعبين ويقفل بواسطة رباطين. ويرتدى المملوك - فوق ذلك - "القفطان" الذى يكون عادة من الحرير ، ويلبس فوقه "الجبة" ذات الأكمام القصيرة التى تصل حتى الكوع فقط وتكون عادة مزينة بالفرو. ونجد أخيراً "البنش" وهو زى الاحتفالات المزين بالفرو ويلف الجسم كله ويغطى أطراف الأصابع لأنه لا يليق إظهارها أمام العظماء.

والبنطلون قد يصل إلى الصدر وهو فضفاض لدرجة أن الرجل الواحدة منه تستطيع احتواء الجسم بأكمله، ويخيط من الجوخ اللين الوارد من فينسيا ويثبته

المملوك بحزام عريض . وإذا سئل المملوك لماذا يرتدى هذا الزى غير المريح، فسيرد بأنها العادة. وفى الواقع، فإن هذا الرد ليس خطأً تماماً لأن تراكم عدة طبقات من النسيج على جسده يحميه بشكل جيد من صدمة الأسلحة القاطعة، لكن ثقل هذه الملابس يجعل الفارس المترجل يجد صعوبة فى المشى على قدميه.

وأغلب الناس لا يملكون هذا العدد الكبير من الملابس: ففى أفضل الأحوال، يمتلك الشخص ثلاثة أردية – أو أربعة – لا يغيرها إلا إذا أصبحت أسمالاً.

والفرد من عامة الشعب لا يمتلك سوى "قميص" واحد من الكتان السميك الخشن أزرق اللون، وإذا امتلك "لباساً" فإنه سيكون لباساً من قماش يميل إلى اللون الأبيض... وقيمة كل هذه الملابس لا تتعدى ثلاثة فرنكات – أو أربعة – ويجب أن تدوم لعدة أعوام. وإذا أراد الشخص أن يغسل ملابسه، فإنه يغطس فى النهر أو الترعة، ويغسل ملابسه بالصابون وينشرها على الشاطئ، ويخرج من الماء عندما تجف.



صورة رقم (١٥): الملابس الشعبية لامرأة من العامة.



صورة رقم (١٦): الملابس الشعبية لرجل من العامة.

وتختلف الملابس قليلاً حسب مهنة الشخص والمكان الذى يوجد فيه: فجلباب المكارى ينسدل حتى ركبتيه فقط، لأنه لو طال عن ذلك فإنه سيعيقه عن الجرى بجوار حماره. والفلاح يرتدى قميصًا من الكتان الخشن أزرق اللون. أما إذا كان على قدر من الثراء، فإنه يرتدى "دفية" من نسيج خشن، ويسير حافى القدمين وذراعاه عاريتان. وأثناء عمله فى الحقل، فإنه لا يرتدى سوى "لباسه". أما الجناينى فإنه يرفع كمى الجلباب الطويلين ويثبتهما برباط يعقده بشكل متصالب خلف ظهره مكونًا عقد مزدوجة يمررها للأمام على كل كتف.

أما السكندريون، فيرتدون سترة قصيرة وسروالاً على الطريقة اليونانية، وذلك نتيجة لاتصالهم بالبلاد الأجنبية[1]. ويرتدى سكان رشيد جلبابًا واسعًا ينسدل حتى

(١) يقصد "البنش" ولا يزال صيادو الإسكندرية يرتدونه [المترجم] .

الكعب ، وهو مصنوع من الكتان الأزرق – بالنسبة للطبقات الشعبية – ومن الصوف الأسود للأثرياء. وفوق ذلك، يرتدى الأغنياء عباءة من الجوخ المبطن بالساتان، ويرتدى الفقراء مجرد قميص أزرق اللون يصل حتى الركبتين ويُربط وسطه بحزام جلدى أو من الصوف. كما يوجد رباط على شكل حرف (X) يمر من تحت الإبطين ويربط الأكمام الطويلة للغاية من تحت الكوع.

وبصفة عامة، يرتدى البدوى جلبابًا طويلاً وعريضًا جداً، ويكون مشقوقًا من الأمام ولا توجد به أكمام ولكن به فتحتين تمر منهما ذراعاه. وهذا الرداء مصنوع من الصوف وبه خطوط أفقية متعاقبة ذات لونين: الأسود والأبيض، ويرتدون تحته نوعًا من القمصان الصوفية مربوطة من الوسط بحزام جلدى.

وكلما اتجهنا جنوبيًا، وجدنا أن الملابس تصبح أخف نتيجة لزيادة حرارة الجو حتى تصل – فى منطقة "القصير" – إلى ما يشبه مجرد الإزار للرجال، وترتدى النساء جلبابًا من القطن، بينما يرتدى الرؤساء جلبابًا وأحيانًا عمامة.

وبالنسبة لبونابرت نفسه، فإنه لم يستنكف من أن يرتدى الزى الشرقى: فحسبما ذكر ج.ج مارسيل، فإن الجنرال ظهر – فى يوم ٢٠ أغسطس سنة ١٧٩٨م – مرتديًا زيًا شرقيًا رائعًا وعلى رأسه عمامة ومنتعلاً بابوج (بلغة). وذهب بونابرت – فى هذا الزى – إلى الأزهر مع حاشيته للاشتراك مع المشايخ فى الاحتفال بذكرى مولد النبى. وتلقى قائد الحملة الفرنسية كل أشكال الاعتراضات من المحيطين به على مسلكه هذا لكى لا يكرر هذه الحفلة التنكرية مرة أخرى.

وانتهز رسامو الكاريكاتير الإنجليز هذه الفرصة للسخرية منه. لكن بونابرت لم يكن يفكر إلا فى نفسه: فبعد حملة بلاد الشام، وفى مواجهة عدم ملاءمة الملابس العسكرية الفرنسية لمناخ البلاد، فكر فى تزويد كل لواء عسكرى بزى ذى ألوان مختلفة مصنوع فى مصر: أزرق وأخضر وبرتقالى، مع علامات الرتبة وزينة الأزرار والأنواط.

وكان مستوى جودة الصباغة موضع جدل إلا أن الزى نفسه لاقى استحسانًا لأنه

ملائم - بشكله وخامته - للظروف المناخية فى مصر.

٢- غطاء رأس الرجال:

يرتدى الرجال "الطربوش" على رءوسهم ، وهو مصنوع من اللباد الأحمر ويغطى الرأس حتى الأذنين. ولحماية الجبهة من الصبغة الحمراء، يرتدى الرجال عادة نوعاً من الطواقى الكتانية تحت طرابيشهم ثم يلفون عليها شالاً من الموسلين أو الكتان. ويضع الأغنياء شالاً من الكشمير، وكل هذا يسمونه "العمامة".

وتسمح "العمامة" للرائى بأن يتعرف من أول نظرة على صاحب العمامة لأن لونها وطريقة لفها يحددان: الدين والمرتبة الاجتماعية والعمل (المدنى أو العسكرى أو الدينى) لمن يرتديها: "فالعمامة" التى يرتديها المسلمون تكون إما بيضاء أو حمراء، ويكون لونها أخضر للأشراف فقط ، ولون عمامة اليهود يكون بنياً أو مائل للصفرة ، أما المسيحيون، فلون عمامتهم أزرق وشكلها مسطح.

وسكان دمياط تكون عمامتهم مبرومة وملفوفة حول رءوسهم ، لكن الفلاحين يرتدون طاقية بيضاء أو بنية اللون ويلفون عليها منديلاً أحمر. وهناك أيضاً طريقة لف العمامة على طريقة: العسكرى، والتجار، والبحرية، والتركية، والألبانية. وتوجد أيضاً طريقتا: القاضى والمفتى. وحتى سنة ١٨٣٠م، كان العلماء يتميزون بكبر حجم عمامتهم.

أما الأتراك والبكوات المماليك، فقد كانوا يرتدون "القاووق" وهو نوع من غطاء الرأس المصنوع من اللباد. و"القاووق" مرتفع وأعلاه أعرض من أسفله بكثير، ويلفون بمهارة على الجزء الأسفل منه شالاً مطوياً أو قطعة طويلة من قماش الموسلين.

ويوجد غطاء آخر للرأس يضعه أحد كبار المماليك على رأسه فى مناسبة استثنائية: فعندما يريد المماليك عزل الباشا التركى عن ولاية مصر، يضع أحد كبارهم على رأسه ما يشبه القبعة الأوروبية ذات الحواف العريضة المسطحة. ورأى المصريون أنها تشبه الصحن المقلوب ولذلك أطلقوا على هذا المملوك لقب "أبو طبق".

وهناك أيضًا "الطرحة" وهى قطعة من الموسلين - أو جزء من الشال - تنسدل خلف الرأس حتى الكتفين بعد لفها عدة مرات حول الرأس. وحواف الطرحة تكون أحيانًا مشغولة بالذهب ، وهذا الجزء المنسدل يقى القفا من الشمس(٢).

وغالبًا ما يكتفى الفقراء والفلاحون بارتداء طاقية من اللباد(٣) أو الكتان.

٣- أحذية الرجال:

نظرًا لعدم وجود جوارب من القماش أو الصوف فى مصر، فإن الرجال ينتعلون "المز" المصنوع من السختيان، ثم ينتعلون "الصرمة" فوقه (وهى "البابوچ" أو "البلغة"). وعندما يدخلون المنزل، يخلعونها.

وعند ركوب الخيل، فإنهم ينتعلون "الخف"، وهو نوع من الأحذية الطويلة المصنوعة من السختيان الأحمر أو الأصفر. ويوجد أيضًا "المركوب" وهو نوع من الأحذية حمراء اللون مصنوعة من السختيان. والمسلمون - وحدهم - لهم الحق فى انتعال الأحذية ذات اللون الأحمر أو الأصفر.

وفى الصحراء، يكتفى البدو بارتداء "صندل" وهو عبارة عن نعل من جلد الجاموس - سيئ الصنع - ومربوط بإبزيمين قصيرين.

ونعال جميع أنواع الأحذية تصنع من جلد الجاموس المختلف السُّمك لأنه مرن ولين ومناسب تمامًا لجو مصر وأرضها المنبسطة أو الرملية.

٤- ملابس النساء:

تكون سراويل النساء دائمًا أقصر من سراويل الرجال وليست واسعة جدًا مثلها،

---

(٢) يقصد "العَذَبة" [المترجم] .

(٣) يقصد "اللبدة" [المترجم] .

ولكن قماشها يكون أرق ومزخرف بكثرة. و"اللباس" الصيفى يصنع من الكتان أو القطن؛ وفى الشتاء، يرتدين "الشنتيان" وهو أكثر سمكًا من "اللباس"، ويربط من الوسط "بالدكة"، ويرتدين فوقه "القميص" ثم "اليَلَك" وهو رداء يلبس فوق القميص ويكون مفتوحًا من الأمام وأكمامه طويلة ومحبوكة.

لكن بعضهن لا يرتدين "الليك" ويستعضن عنه "بالفستان" وهو مقفول من الأمام، وترتديه نساء استانبول والأوروبيات المقيمات فى مصر.

ثم تضع المرأة فوق ذلك كله "الجبة" وهى نوع من المعاطف ذى الأكمام القصيرة. وفى فصل الشتاء، يبطنه بالفرو ويطلقن عليه "وش فروة". ويربطن "الجبة" بحزام حريرى أو من الموسلين فى فصل الصيف؛ أما فى الشتاء، فيربطنه بحزام من الكشمير أو الصوف. وعندما تكون هذه القطعة مربعة، تطويها المرأة على هيئة مثلث ينسدل على ظهرها. ولا تعرف النساء هنا قماش "الدانتيلا".

وعند الخروج من المنزل، تغطى المرأة جسمها بقميص فضفاض - مصنوع من قماش التافتا - اسمه "السَبْلَة" ينسدل حتى يلمس الأرض. ولا تخلع المرأة "السَبْلَة" إلا فى الحمام أو بعد استئذان السيدة الأعلى منها مرتبة والتى تقوم بزيارتها. ولابد لها وأن تغطى وجهها "بالبرقع" الطويل الذى تشبكه بغطاء رأسها من فوق الجبهة من الناحيتين. وينسدل "البرقع" حتى يصل إلى الركبتين وربما يتخطاهما وارتداء "البرقع" إجبارى عند الخروج.

وفوق "السبلة"، ترتدى النساء - أيضًا - "الحَبَرَة" وهى قطعة من قماش التافتا سوداء اللون تضعها فوق رأسها. وهكذا تغطى "الحبرة" شعر النساء وملابسهن وأيديهن، ولا تخلعها المرأة إلا فى منزلها أو فى حرملك آخر. وعملية ارتداء "السبلة" و"البرقع" و"الحبرة" معًا يطلق عليها اسم "التزييرة"(٤).

---

(٤) لا يزال هذا الاسم موجودًا حتى الآن فى خُرافة "الست المُتَزَيْرَة" [المترجم].

ولكن الجوارى السوداوات أو النسوة الشعبيات يفضلن ارتداء "الجلابية"، وهى رداء طويل ذو ألوان جذابة. وعند الخروج من المنزل، يغطين أجسادهن "بالملاية"، وهى قطعة عريضة من قماش قطنى به مربعات زرقاء وبيضاء . وتغطى النساء المسيحيات وجوههن بالحجاب الأبيض الذى تضعه الزنجيات. ودائمًا ما ترتدى النسوة الفقيرات جلابية طويلة زرقاء اللون. أما السكندريات ، فيرتدين جلابية من الكتان الأبيض مما يجعلهن مثل الأشباح حسبما يقول الرحالة.

وكانت نساء القناصل الأجانب، فقط، هن اللاتى يستطعن الخروج سافرات الوجوه، ولذلك كان يجب أن يرافقهن حراس مزودين بالشوم لحمايتهن من إهانات العوام. وتتحجب القبطيات واليهوديات مثل المسلمات تمامًا لكيلا يتعرضن للسب أو لسوء المعاملة. وفى ذلك الوقت، كانت الإيطاليات والروميات نادرات الوجود جداً فى القاهرة، لكنهن كن يخضعن للقواعد نفسها مثل غيرهن.

وأثناء الاحتلال الفرنسى لمصر، عادت الأوروبيات إلى عادتهن فى الخروج سافرات الوجوه – كما يفعلن فى بلادهن – وقلدتهن النساء المصريات المرتبطات بفرنسيين مما أثار سخط مواطنيهن المصريين.

ولكن فى الريف، كانت النسوة الريفيات لا يرتدين سوى "لباس" فوقه قميص فضفاض أزرق اللون ، وكن يضعن الحجاب مثل أخواتهن فى المدينة لكن بشكل أقل صرامة.

وكان استخدام الجوارب النسائية غير منتشر فى مصر حينذاك. ولكن منذ أن بدأت زوجات القناصل يزرن مصريات الطبقة الراقية، لاحظت المصريات هذه الجوارب اللينة وبدأن يطلبن شراءها . وكانت هذه الجوارب النسائية الحريرية تستورد من ليون، واشترتها نساء الأمراء بأسعار غالية جداً .

٥- غطاء رأس السيدات:

تضع السيدات "طاقية" مزينة على رءوسهن - ويغيرنها باستمرار - وفوقها "الطربوش" الذى يلففن عليه "قمطة" من قماش الموسلين ملفوفة عدة مرات. وهذه "القمطة" مكونة من جزئين: الجزء الأسفل المغطى يكون أبيض اللون، والجزء الأعلى أو الظاهر يكون عادة أحمر اللون أو أى لون فاقع آخر.

وهكذا يصبح غطاء رأس السيدة عبارة عن كعكة بارزة فوق رأسها فتزينها بوضع اللآلئ أو الأحجار الكريمة فيها. ومجموع ما تضعه السيدة كغطاء لرأسها يسمى "رَبْطَة".

وفى أغلب الأحيان، تضيف السيدة "ضفائر" من الحرير لإطالة ضفائر شعرها الطبيعى. أما السيدات الأكثر تأنقًا فيضعن "البَرْق" فى الشعر ، و"البرق" عبارة عن : رقائق من الذهب تشبك فى أطرافها عملات ذهبية (السَكين). لكن عندما تكون السيدة فى منزلها، فإنها تكتفى بوضع شال أو منديل على رأسها.

٦- أحذية النساء:

تنتعل النساء أحذية تشبه أحذية الرجال لكنهن ينفردن بلبس "القبقاب". وسيدات الطبقة الراقية لا يضعنه فى أقدامهن إلا لدخول الحمام فقط ولكن الخدم ينتعلونه باستمرار. وبداخل المنزل، تضع سيدات الطبقة الراقية فى أقدامهن بابوج (بَلْغَةً) من القطيفة المرصعة بالذهب أو اللآلئ. وعندما يخرجن، ينتعلن حذاء برقبة من جلد السختيان الأصفر.

٧- مستلزمات الأناقة:

يضع الأغنياء خنجرًا ثمينًا فى الحزام ويكون مقبضه مرصعًا بالأحجار الكريمة

وشبه الكريمة، لكن المماليك يضعون فى أحزمتهم غدارة أو سيفًا عريضًا ، ويضع رجال الطبقة الوسطى فيه غليونًا ثمينًا.

ورجال الطبقة الراقية يزينون أصابعهم بخواتم فضية مرصعة بالأحجار الثمينة الملونة ، أما خواتم السيدات، فتكون ذهبية. ومن عادة السياس أن يلبسوا فى الأصبع البنصر خواتم فضية بها تجويف يضعون فيه النقود. وعامة الشعب معجبون بهذه الطريقة ، فنجد المراكبية والحمالين يستخدمونها أكثر من السياس.

وتتزين السيدات بعقود من اللآلئ الصغيرة اسمها "العُقْدَة" و"بالشَوْطات" وهى عبارة عن عقود من اللآلئ المنظومة تُربط من طرفيها بغطاء الرأس، و"بالبَرْق" وهى رقائق ذهبية يضعنها فى شعورهن.

ومن عادة سيدات الطبقة الراقية أن يضعن خاتمًا مرصعًا بالياقوت الأحمر (اللَعْلْ) فى بنصر اليد اليسرى. و يضعن فى رقابهن سلسلة ذهبية تصل حتى أسفل الصدر وفى طرفها علبتان: تحتوى الأولى على بعض سور القرآن، والثانية بها خلاصات العطور. وفى سواعدهن وكعوبهن، يضعن سلاسل ذهبية صغيرة. وتتكدس فى أصابع أيديهن الخواتم المرصعة بالأحجار الثمينة. وللسيدات ولع خاص بالأساور والأقراط الذهبية.

وفى الريف ، تضع الفلاحات فى ضفائرهن جلاجل صغيرة وأشياء صغيرة أخرى للزينة مصنوعة من الفضة. وفى كعوبهن، يضعن "خلاخيل" كبيرة من الفضة أو المعدن. ومثل نساء المدن الفقيرات، تضع الريفيات أقراطًا ذهبية فى آذانهن وأحيانًا فى الأنف. وكلهن -ريفيات وحضريات - يفضلن الأساور اللامعة المرصعة بالزجاج الملون.

والشرقيون مولعون باقتناء الحلى نظرًا لقيمتها الاقتصادية ولسهولة بيعها بما فيها من وزن الذهب وضخامة الأحجار الكريمة - وشبه الكريمة - التى ترصعها. أما دقة الصياغة وجمالها، فلا يهتمون بهما كثيرًا عند تقديرهم لحلية ما.

ب- الوجبات والغذاء:

١- الوجبات:

إن أول شيء يثير الانتباه - في مصر - هو كثرة استخدام الأواني الفخارية نظراً لندرة الأواني الخزفية وانعدام وجود الخزف الصيني المزخرف تقريبًا. ويشرب عامة الناس غالبًا من الأواني، وبالتالي فلا توجد أكواب. ولا يعرفون من أدوات المائدة سوى الملعقة لتناول الأطعمة السائلة، وعدا ذلك فإنهم يتناولونه بأصابعهم.

ويتناول المصريون ثلاث وجبات يوميًا: الفطور والغداء - في منتصف النهار - والعشاء الذي يكون في المساء بعد آخر صلاة. والذين يعانون من ضعف الشهية، يكتفون بتناول فنجان من القهوة مع تدخين الغليون في الصباح، لكن معظم الناس يتناولون في وجبة الفطور: الخبز والجبن والعسل والبيض ويشربون القهوة.

أما العمال، فيأكلون صحنًا من الفول المدمس المتبل مع بصلة نيئة. ووجبة الغداء تكون بعد صلاة الظهر: فيغسل المدعوون أيديهم ويجلسون حول صينية كبيرة من النحاس المطروق موضوعة على شلتة صغيرة، وتوضع عادة قطعة كبيرة من الجلد، مستديرة الشكل، فوق الحصيرة. ويجلس الرجال - رفيعو القدر - متربعين بينما يجلس الأقل مرتبة مقرفصين على كعوبهم.

وأيًا كان مستوى "المائدة"، فإن جميع الأصناف توضع في وقت واحد: الحساء واللحوم والسلطات والحلويات والفواكه، فيأخذ كل شخص ما يريد. ويغمس الإدام بقطعة من الخبز يمسكها الشخص بيده اليمنى، بين السبابة والإبهام، لأنهم لا يستخدمون الشوكة ولا السكين.

وتقتضي آداب السلوك بأن ينتقي المضيف طعامًا من صحنه الخاص ويقدمه إلى ضيفه المميز. ولا يتناول المصريون الماء مع الطعام. وفي نهاية الوجبة، يشرب الجميع من نفس الإناء الذي يناوله كل مدعو لمن يليه بلطف. وفي ركن الغرفة، يقف أحد العبيد حاملاً الإبريق وأمامه طست ، فيغسل كل شخص فمه ويديه بالصابون ويجففهم بالفوطة التي يحملها العبد أو الخادم على كتفه. وبعد ذلك، يتناول المدعوون القهوة ويدخنون الشبك ويُقَيلون.

أما الأكثر فقراً، فيضعون خليط الأرز والخضراوات فى قصعة خشبية كبيرة ويتناولونه بكف يدهم اليمنى ويكبسونه ويكورونه ويقذفونه فى فمهم، ثم ينفضون ببساطة الفتات الذى يتساقط منهم، ويصبون الماء فى فمهم ليشربوا من الإبريق الذى يمررونه فيما بينهم. وإذا لم يكن لديهم صابون، فإنهم يغسلون أيديهم بالتراب؛ وبعد ذلك، يشربون القهوة ويدخنون الشبك.

وفى المساء، يتناول المصريون عشاءً خفيفًا يختلف من شخص لآخر حسب شهيته، فقد يتكون من: خبز أو حليب أو فواكه. وأثناء شهر رمضان، تتعدل مواعيد الوجبات: فلابد من انتظار غروب الشمس لتناول وجبة "الإفطار" التى تكون كميتها أكبر وأكثر تنوعًا من المعتاد ، ويدعى الأقارب والأصدقاء لتناول هذه الوليمة اللذيذة. وقبل انبلاج الفجر، يتناولون وجبة "السحور".

٢- الغذاء:

يتم إعداد وجبات الطعام حسب الوضع الطبقى للأسرة لكن الخبز يظل هو الطعام الأساسى للجميع. ولا يوجد باعة خبز بل يوجد الكثير من الأفران العامة(٥) حيث ينضج الكثير من الناس خبزهم مرتين فى اليوم قبل تناول الوجبة بقليل. ويستخدمون قطعة من العجين السابق إنضاجه لتخمير العجين الحالى. ورغيف الخبز - فى مصر - مستدير الشكل، وعريض مثل الصحن، وسمكه لا يتجاوز بوصة واحدة (٢٧ مم) وينضج فى أقل من خمس دقائق عندما يعمل الفرن بشكل جيد.

وتستخدم عيدان الذرة لإيقاد نار الفرن. وهذا الخبز غير المتخمر جيداً - وغير الناضج تمامًا(٦) - يكون أحيانًا عسير الهضم لدى غير المعتادين عليه، لكن بعض الفرنسيين يجدونه لذيذ الطعم.

---

(٥) يقصد "الأفران الطباقى" [المترجم] .

(٦) ربما يقصد المؤلف - هنا - الإشارة إلى "العيش الطرى" ولكن العيش "الطرى" يكون ناضجاً ولكنه غير يابس [المترجم] .

لقد كانت مشكلة تحسين صناعة الخبز هى أول مشكلة واجهتها الحملة الفرنسية ، ومن هنا نفهم لماذا طرحها بونابرت على "المجمع" منذ البداية وطالبه بإيجاد حل لها وذلك لإرضاء قواته.

وترك الفقراء المصريون استعمال الخبز لمن هم أكثر منهم ثراء، واستبدلوه بـ: القلقاس والباذنجان والحلبة وكيزان الذرة - المشوية على الفحم - والمش والزبادى والعسل الأسود (المولاس). وهم يستهلكون أيضًا: الحمص والبصل والخضراوات والطرشى. أما الفول المدمس فهو أساس غذائهم: فيتبلونه ويضيفون إليه زيت السمسم. وبإمكانهم أيضًا تناول وجبة مشبعة من الترمس بكميات كبيرة لا تكلف سوى جديدين أو ثلاثة. والفاكهة لديهم هى: البلح الطازج أو الأمّهات، والبطيخ والشمام متوافران. وإذا كان الفقراء يأكلون كميات كبيرة من المأكولات النيئة ، فإن ذلك يرجع إلى أن سعر الوقود مرتفع بالنسبة لميزانيتهم الهزيلة.

ويحب المصريون لحم الضأن لكن الفقراء لا يستطيعون الحصول عليه إلا فى المناسبات المهمة. ويتسم لحم: الجمال والجاموس والبقر - فى مصر - بأنه يابس وكثير الألياف والعروق. ونفس السمة نجدها بالنسبة للحوم الدجاج والفراريج والحمام. أما السمك، فهو ماسخ الطعم ولحمه رخو. ولا يعرف سكان القاهرة سوى الأسماك النيلية مثل: البياض والبورى وغيرهما.

وبالإضافة إلى اللحوم، يستهلك أثرياء مصر: الأرز والمربات والحلويات. ويتبلون وجباتهم بكثير من البهارات ويضيفون إليها عصير الليمون. و"البيلاف" من أكثر الأطباق انتشارًا فى مصر وهو يتكون من: الأرز الذى ينضج فى مرق اللحم ويضاف إليه الزعفران والبازلاء وزبيب كورينثا والسمن المقدوح والفلفل وأحيانًا القليل من السكر. ويدخل الأرز وقطع اللحم دائمًا فى إعداد الحساء.

والخضراوات (مثل: الفاصوليا والبامية والقرنبيط والرجلة والجرجير) ليست لذيذة الطعم لأنها تجنى مبكرًا جدًا قبل أن تنضج فى الأرض. بالنسبة للفواكه، فإن متوسطى الحال يجدون: العنب والليمون والبرتقال والموز. ولكن سعر الفواكه المجففة(٧) غال لأنها تجلب من الخارج ويحتفظون بها للمناسبات المهمة .

---

(٧) يقصد "الياميش" [المترجم] .

ويستـهلك الفلاحـون الأرز والخضـراوات بشكل أساسى ويعتبـرون أن شحم الحـيـوانات شىء لذيذ الطعم، ونادراً مـا يأكلون اللحم فى منازلهم؛ وحـتى فى الاحتفالات، فإنهم يكتفون بأكل الكرشة والسَقَط.

وبالإضافة إلى الوجبات اليومية، سنقدم، فيما يلى، وصفًا مختصراً للوليمة التى أقامها الشيخ الشرقاوى – وأعضاء ديوان القاهرة – لبونابرت وقادة جيشه بمناسبة مولد السيدة زينب: لقد جلس كل ١٠ أو ١٢ شخصاً على البساط ملتفين حول صينية من الصوانى النحاسية الكبيرة. وعلى كل صينية، كان يوجد حوالى ٣٠ صحنًا بها: اللحوم والفراريج والخضـراوات والحلويات والقشدة... والبيلاف. وقدمت أنواع الشَرْبات فى الآخر.

ولنتوقف عند بعض الأطباق، فقد تم تقديم: الخراف بأكملها مشوية ومزينة بالورود، والأسماك الضخمة كانت تسبح فى أنواع الصلصات ذات الألوان الغريبة، والحمام المحشى كان مليئًا بالفستق، ومحشى ورق العنب ظهر للحظات قليلة... وبعد وليمة مثل هذه، فإن تناول القهوة وتدخين التبغ الأصفر يصبحان ضرورة لا غنى عنها.

ولا يشرب المصريون العاديون سوى الماء؛ أما الأغنياء ، فيشربون أنواعاً مختلفة من الشربات. والشربات – فى مصر – عبارة عن ماء بسكر يضاف إليه شذى الورود والفواكه والفستق والموز ... إلخ وهناك من يشربون منقوع العرقسوس أو الخروب.

ويصنع أقباط الفيوم نوعاً من النبيذ الذى لا يمكن الاحتفاظ به مدة طويلة، كما يصنعون أيضًا خموراً من: الزبيب والتين والجميز والبلح والتين الشوكى. وحاول الفرنسيون صناعة النبيذ فى القاهرة لكن الاضطرابات أوقفت التجربة.

ويشرب المصريون كذلك أنواعًا من الشربات التى يضيفون إليها حبوب الأفيون. ويقوم الأغنياء بغلى الخشخاش ويشربون منقوعه. وفى البداية، يسبب لهم هذا الشراب نوعاً من السعادة المجنونة لكن عندما ينتهى مفعوله، يصيبهم بالاكتئاب. وتظل القهوة هى المشروب الأكثر شعبية فى مصر وقد يشرب بعض الناس حوالى ٢٠ فنجاناً صغيراً يومياً.

ويدخن الجميع – رجالاً ونساءً – التبغ المجلوب من سوريا ، وتدخن السيدات خفية بدون أن يعرف الأزواج. والتبغ السورى ألطف من التبغ المزروع محليًا ، وهم يضيفون إليه خشب الصبار فيصبح الدخان أكثر سلاسة.

ولا يوجد أى حَظْر قانونى يمنع استخدام الحشيش أو الأفيون لكن الدين الإسلامى يستهجن استخدامهما. وتقدم القهاوى الحشيش للزبائن حسب الطلب فى أرجيلات يعدونها لهم. ويمنح تدخين الحشيش إحساسًا بنشوة عابرة يليها شعور بالبلادة والخمول[8]. وكان الجنرال مينو هو أول من وضع تشريعًا للحد من استخدامه. وعلى سبيل التسلية، يمضغ الناس حبوب الخشخاش وغيرها من الحبوب التى يستحلب زيتها.

وفى القاهرة – وغيرها – توجد مطاعم لبيع السمك المقلى، والكفتة الملفوفة فى ورق العنب، والسقط[9]. وذكر الجبرتى فى حولياته ما يلى: "... وافتتح الأوروبيون – من المقيمين فى المدينة (القاهرة) منذ زمن – مطاعم علقوا على أبوابها قائمة بالأسعار. وكان العسكريون يدخلونها ويجلسون فيها حسب رتبتهم. وكل مقصورة كانت تحمل رقمًا وبها طاولة وكراسٍ. وعند خروجهم، كانوا يدفعون الثمن المحدد..."

وعند قراءة الفقرات السابقة، الخاصة بالأغذية، قد يتصور البعض أن المصريين لم يعانوا من الجوع، وأن الجميع – أغنياء وفقراء – كانوا يجدون دائمًا ما يأكلون. لكن – فى الواقع – كانت شريحة مهمة من سكان المدن تكتفى بالقليل من الزاد الذى يكاد يسد رمقهم بسبب: الأجور المتدنية جدًا، وثقل الأعباء العائلية، والمظالم المعتادة التى كان يمارسها الأتراك والمماليك فى ذلك الزمان.

---

(٨) يقصد "السُطْل" [المترجم] .

(٩) المؤلف يقصد "السَمَط" [المترجم] .

ج- العناية بالجسم:

١- نسبة انتشار الأمراض فى مصر:

إن الأمراض الرئيسية التى تصيب سكان مصر هى الأمراض نفسها المنتشرة فى البلاد الحارة، وسنذكر فيما يلى أكثرها انتشاراً:

– **الرمد:** أول ما يؤثر فى الزائر الأجنبى هو العدد الكبير من المصريين الذين يعانون من أمراض العيون. وذكر هـ. دى هال (H. de Halles) أنه يوجد ٢٠ أعمى و١٠ عور و٢٠ غيرهم مصابون بأمراض رمدية مختلفة بين كل مائة شخص. ويضع كثيرون عصابة على عيونهم تدل على إصابتهم ببداية الرمد أو على أنهم قد شفوا منه. ولاحظ المراقبون الأجانب أن البدو أقل تعرضاً للإصابة بالرمد من باقى سكان مصر، ولم يقدم المراقبون تفسيراً لذلك.

– **الزهرى:** والمرض الثانى المنتشر، والذى لا يقل خطورة عن الأول، هو مرض الزهرى ويعتبرونه أحد أسباب العمى عندما لا يقتل المصاب. ونظراً لارتفاع نسبة الوفيات، يبدو أن الزنوج والأطفال هم أكثر الفئات إصابة به. و"الأمراض التناسلية" – أو "المرض المبروك" كما يسمونه هنا – منتشرة جداً فى البلاد ويعزوها المصريون إلى التعرض لخوف مباغت أو لرُقية مؤذية[١٠] أو عدم النظافة. ويبدو أن البعض يشكون فى السبب الحقيقى للمرض.

– **حَمُّو النيل:** وفى فصلى الربيع والصيف، يشكو الكثيرون من "حمو النيل" الذى يختفى فى الشتاء.

لقد أصابت "الديزونتاريا" و"الحمى الصفراء" جنود الحملة الفرنسية والمصريين. وبالإضافة إلى هذه القائمة، يوجد أيضاً: "التيتانوس"، و"الجذام"، و"الإسقربوط"، و"مرض الفيل"، والدمامل.

---

(١٠) المؤلف يقصد "العَمَل" [المترجم].

– **الطاعون**: ومع ذلك، يظل "الطاعون" هو المرض الذى يسبب أكبر رعب للمصريين. وهذا الوباء يضرب البلاد كل أربع أو خمس سنين وأحيانًا أكثر. فما هو مصدره؟؟ لقد لاحظ أطباء الحملة الفرنسية أن الطاعون يبدأ دائمًا من الإسكندرية أولاً، واستطاعوا اكتشاف أصله: فالمراكب القادمة من سميرنا واستانبول تكون محملة بشحنات من النسيج والملابس التى استخدمها هناك أُناس مصابون بالطاعون.

وفى ميناء الإسكندرية، يستلمها تجار الملابس المستعملة – وكلهم أروام – الذين لم يكتشفوا أية صلة بين حدوث الوباء وبين تجارتهم. ولذلك، كان التجار الأروام – دائمًا – هم أول ضحايا الطاعون. وبعد ذلك، كان هذا الوباء ينتشر فى دمياط والقاهرة لكنه كان نادرًا ما يضرب الصعيد.

ولم يكتشف أحد أى علاج لهذا الوباء الرهيب. ومع ذلك ، ادعى ب. ج. دى بافى (P. J. De Pavie) – حسبما ذكر الدكتور ديجينيت – أنه وجد علاجًا يمنع الإصابة بالطاعون: فقد نصح بتدليك الجسم كله بالزيت عدة مرات متوالية لأنه لم يلحظ إصابة بائعو الزيت بهذا المرض. ولكن الفرنسيين الحذرين أنشأوا عدة أماكن "للحَجْر الصحى": الأول فى الإسكندرية والثانى فى القاهرة فى "جزيرة الروضة". كما اتخذوا عدة إجراءات وقائية أخرى مثل: مراقبة المسافرين فى تحركاتهم، وعيادة أحد الأطباء الفرنسيين (للمرضى) للكشف عما إذا كان المريض مصابًا بالطاعون أم لا، وتعريض فراش السرير لأشعة الشمس، ودفن الموتى فى مدافن خارج المدن وفى حفر عميقة ... إلخ

لكن الجبرتى اعتبر تلك الإجراءات الوقائية بمثابة مُضايقات إدارية غير مُحتملة مُوجهة ضد السكان. ولم يكن الجبرتى يدرك أن مجرد العزل الصارم للمريض كافٍ لعدم الإصابة بالطاعون. وعلى سبيل المثال لا الحصر، تسبب هذا الوباء – فى سنتى ١٧٨٣ و١٧٨٤– فى وفاة حوالى ١٥٠٠ شخص يوميًا حسبما ذكر فولنى؛ وطاعون سنة ١٨٠٠م، ذهب بأرواح أكثر من ٦٠٠ مريض يوميًا...

وغداة "معركة الأهرام"، أمر بونابرت بتنظيم أربعة مستشفيات عسكرية أُنشئت فى: القلعة والجيزة ومزرعة إبراهيم بك وقصر العينى، وعالج الأطباء العسكريون السكان الذين أبدوا ثقتهم فيهم.

ولم تعصف الأوبئة بحياة البشر فقط بل كانت تجتاح الحيوانات أيضًا: ويتذكر السكان الوباء الذى أهلك ثروة البلاد من الأبقار، ولم ينج منه سوى الجاموس الذى حل مَحَل الأبقار فى أعمال الزراعة. ولتعويض هذه الخسائر، كان لابد من استجلاب أبقار من أرخبيل اليونان وسوريا.

٢- الطب والأطباء:

صنف المصريون الأمراض إلى ثلاث فئات: أمراض ناتجة عن زيادة إفرازات المرارة، وأمراض ناتجة عن البرودة، وأمراض ناتجة عن الحرارة. وعلى هذا الأساس طَوروا ثلاثة أنواع من العلاج يرتبط كل منها بفئة من الفئات السابقة: فتوجد شربة ملينة (أو مسهلة)، وأدوية مسخنة، وأخرى مرطبة. وانقسم كل نوع بدوره إلى ثلاثة أجزاء حسب الأمراض وحسب استخدام الأدوية التى يجب وصفها للمريض.

واستخدم المصريون أدوية بسيطة على هيئة سفوف مخلوطة بالسكر أو العسل، وكانوا يؤمنون بفاعلية الدواء ، لكنهم آمنوا أكثر بالقضاء والقدر. وكان "دستور الأدوية" (الأقربازين) لديهم يحتوى على القليل من المواد المعدنية والنادر من المواد الحيوانية.

واستخدموا القليل من المشروبات المغلية وكانوا عادةً ما يأخذون النبات الطبى بأكمله. أما مشروب "التمر هندى" فقد كان هو الوحيد - تقريبًا - الذى يشربونه مغليًا. وفى المقابل، كانوا يعدون مرطبات منعشة مختلفة منها: العرقسوس والخروب والليمون البنزهير والورد والبنفسج والفستق...

واستخرجوا الملينات من لُب ثمرة التمر هندى وثمرة الأهليلج ويُضاف إليها كلها أوراق شجرة "السنامكى" وحبوب الخروع أو حبوب شجرة الراتنج. ومن الأدوية الغريبة، أنهم يضيفون عصير الليمون على الماء الذى ترك فترة فى مِرْوَد الكحل ويوصون به كعلاج ملين.

وفى الريف، لم يعرف الفلاحون سوى الحنظل كدواء مسهل، وقليلاً ما يستخدمون الأدوية المسببة للقىء أو الأدوية المركبة من مادة الزئبق. ويستخدمون أحيانًا الحقنة الشرجية، وهى هنا مكونة من مثانة البقرة وأنبوب.

ويعالج المصريون الأمراض التناسلية بوسائل غير صحيحة بالمرة، فهم يستخدمون: المسهلات وحمامات البخار والرمل الساخن والأدوية التى تزيد من إفراز عرق الجسم. أما الجدرى، فيعالجونه بإدخال خيط فى الجسم أو يستنشق المريض - أو يبتلع - مسحوق براعم الأزهار. وللوقاية من الرمد - أو لعلاجه - فإنهم يستخدمون قطرة للعين مستوردة من مكة.

وتُباع المخدرات ومشتقات الأفيون - التى يستخدمونها - فى دكاكين خاصة، ومن يحضر هذه المنتجات يسمونه "المعجونجى"، ويحتكر اليهود والأقباط - تقريبًا - هذه التجارة.

وبينما يلجأ فقراء المصريين إلى استخدام زهرة نبات الخربق والقنب الهندى علاج أمراضهم، فإن الأغنياء يستخدمون "الترياق" وينسبون له فضائل عظيمة. و"الترياق" عبارة عن معجون مصنوع من العسل، يُنتج فى القاهرة ويُصدر إلى جميع بلاد الشرق. وشيخ طائفة تجار وصناع "معجون" الأفيون له وحده الحق فى إعداده - باحتفال عظيم - يحضره: طبيب السلطان وشيخ طائفة العطارين والأعيان. ويتم تحضير هذا المعجون فى "البيمارستان"، وسط مجمع الحكماء وله سمعة رائجة جدًا لدرجة أن الأرباح الناتجة عن بيعه تُخصص للعناية بهذه المنشأة العلاجية.

أما مستحضرات التجميل، فهى متنوعة: فتوجد مستحضرات لزيادة السمنة الضرورية لنساء الشرق، ولتفتيح لون البشرة وتنعيمها وتطريتها أو لجعلها مشدودة، وغيرها لإزالة الشعر أو زيادته، ولصباغة شعر الرأس واللحية. وهذه المستحضرات تُصنع من "الزيت الطيب"(١١) وشحم الحيوانات وأنواع الصمغ العطرية والأملاح المعدنية والمواد القلوية.

وتعتبر صناعة العطور صناعة منفصلة عن صناعة مستحضرات التجميل. وتفضل النساء العطور الثقيلة التى تدير الرأس خصوصًا خُلاصة الورد. وتوجد - أيضًا -

---

(١١) "الزيت الطيِّب" هو "زيت الزيتون" [المترجم] .

عطور على هيئـة: بلسم، وزيوت عطرية للدهانات المستـخـرجـة من الزهور، وكـريات صغيرة ملونة ذات رائحة ذكية تُحرق – فى المساجد وعند قبور الأولياء وفى الحرملك – لإعطاء رائحة جذابة للمكان.

ولا يحتكر السكان المحليون تجـارة الأدوية: ففى "حى الإفرنج" – فى القاهرة – توجد ثلاث صيـدليات على النمط الأوروبى. والصـيدلية الأولى يديرها أحـد الأروام، والصيدليتان الأخرتان يديرهما اثنان من البنادقة المقيمين فى القاهرة. ولا يتردد على هذه الصيدليات الثلاث سوى الأوروبيين فقط؛ وإذا حدث ودخلها بعض المصريين، فإن ذلك يكون بعد الكشف عند طبيب أجنبى.

وممارسة مهنة الجراحة تتطلب من الجراح أن يكون حاصلاً على دراسة جيدة تؤهله لها، ولكن مهنة الجراحة – فى مصر – تجريبية وعشوائية وقاسية، ويجريها حلاقون جهلة ومـغرورون. لقد عرف العرب – فى الماضى – أطبـاء عظماء مثل: ابن سينا والرازى وعلى العباسى وكثيـرين غيرهم ، لكن – أثناء الحملة الفرنسيـة على مصر– كان علم الأطباء المشعوذين ينحصر فى إجراء عمليات: ختان الذكور والفصد الموضعى – التى كانوا يكثرون منها – والكى بالنار فى جميع أنحاء الجسم، خصوصًا بين إصبـعى السبابة والوسطى. وكان هؤلاء المشعوذون يدعون علاج أمراض الرمد بوضع دواء يسبب ظهور بثور على جلد القفا...

والقابلات لم يكن أقل جهلاً من الحلاقين: فقد كن يجلسن الحوامل – اللائى على وشك الوضع – فوق "كرسى الولادة". وهذه الجلسة غير مريحة للوضع لأن الجنين لا يستطيع متابعة انحناءات حوض الأم بشكل طبيعى فيتأخر فى النزول. وتقطع القابلات الحبل السرى بسكين؛ وهن يعرفن كيفية إجراء العملية القيصرية، لكن فى أغلب الأحيان تكون هذه العملية قاتلة للأم. وباستطاعتهن – أيضًا – إجهاض الحوامل وختان الإناث. ويتم ذلك كله مع الغياب التام لمبادئ الصحة و... مع وجود عدد لا يحصى من الأحجبة والتعاويذ التى توزعها العجائز والساحرات.

وفى مواجهـة هذا "العلم" المليء بالجهل، كـان علم الطب الفرنسى – فى نهاية القرن الثامن عشر الميلادى – لا يزال يؤمن بمزايا "الترياق" لكنه – بالإضافة إلى ذلك –

كانت لديه معرفة جيدة بعلم التشريح، ووظائف علم الأعضاء. وفى الجانب الآخر، كان المصريون يجهلون إجراء عمليات التشريح، كما أن إجراء هذه العمليات باستخدام مبضع الجراحة سيصدم مشاعرهم الدينية.

وفى مجال علم "الأقربازين" (علم دستور الصيدلة)، فإن ما أحرزه الفرنسيون كان أكثر منهجية وأكثر تطوراً من المعلومات المبهمة التى كانت لدى المصريين. وتطورت الجراحة الأوروبية خطوات سريعة وأصبح بمقدور الجراحين الأجانب إجراء عمليات لبعض الأعضاء الداخلية للإنسان بثقة وهذا ما لا يستطيع "المجبراتية" المحليون أن يفعلوه.

وإذا لم يكن بمقدور الأطباء الفرنسيين شفاء كل الأمراض، فقد كانوا يؤمنون بالعلم بينما كان المشعوذون المحليون لا يعرفون سوى أقل القليل من المعرفة ويفوضون أمرهم إلى الله.

٣- الحمامات:

يوجد فى القاهرة مائة حمام عمومى يزداد الإقبال عليها فى فصل الشتاء لأن الفقراء – فى فصل الصيف – يستحمون فى النيل. وبعض الناس المتيسرين يذهبون مرتين أو ثلاث مرات أسبوعيًا لهذه المنشأة. ومع أن الأثرياء لديهم حمامات خصوصية فى منازلهم إلا أنهم لا يحرمون أنفسهم من متعة الذهاب للحمامات العامة للتسرية عن أنفسهم، وبعض الأغنياء يستأجرون – أحيانًا – الحمام بأكمله طوال اليوم. وعندئذ، يدعون أصحابهم ويستمتعون معًا بسماع الموسيقى وتناول الوجبات اللذيذة. وكان المماليك – قبل عتقهم – يذهبون للحمام فى مجموعات تحت إشراف الخازندار ومعهم وجباتهم.

ويتكون الحمام من عدة حجرات: ففى البداية، توجد القاعة الباردة حيث يخلع الناس ملابسهم ويحفظها المسئول عن الحمام؛ وبعد ذلك، يتوجهون إلى ممر يوصلهم إلى قاعة الاستحمام المليئة بالبخار. ويستلقى المستحم لكى يطرطق "المدلك" مفاصله ويدلك جسمه كله. وبعد هذا التمرين، يتصبب جسم المستحم عرقًا، فيتجه إلى

حوضين: الأول للماء الساخن والثانى للماء البارد، فيغتسل ثم يصبن جسمه بالصابون المعطر، ويضع على جسمه بشكيرين ثم يرجع للقاعة الأولى حيث يدخن الشبك ويشرب القهوة. وأخيراً يُرجع إليه المسئول عن الحمام ملابسه بعد تعطيرها.

وتذهب النساء إلى الحمام مرة أو مرتين فى الأسبوع، ويستحم الجنسان فى المنشأة نفسها لكن فى توقيتات أو فى أيام مختلفة. وممنوع على الرجال دخول الحمام فى الوقت أو اليوم المخصص للنساء. والرجل الوحيد المسموح له بذلك هو عازف الموسيقى الأعمى. وتذهب النساء للحمامات لكى يستعرضن زينتهن وثروتهن: فكل واحدة تريد أن تتفوق على الأخريات بإظهار ضخامة ماساتها أو عدد العملات الذهبية (السكين) المعلقة فى ضفائرها. وتحظى النساء بنفس الخدمات التى تقدم للرجال، لكن الأكثر ثراءً منهن يستهلكن كميات أكبر من الصابون وماء الورد وخلاصات العطور. والنساء الأخريات يفعلن الشيء نفسه فى أيام الأعراس والأفراح.

ويستخدم الرجال والنساء نوعًا من المعادن يسمى "رَسْمَة" لإزالة شعر الجسم. و"الرسمة" مادة لونها بنى غامق، ويحرقها المصريون حرقًا خفيفًا ثم يعجنونها بالماء وبقليل من الجير المطفى فيصبح لون العجينة رمادياً، ويضعونها على شعر الجسم فيسقط الشعر فى بضعة دقائق بدون ألم.

ومع مجيء الحملة الفرنسية إلى مصر، ظهرت فيها حمامات فرنسية بها بانيوهات. ولم يذهب المصريون إليها لكن الفرنسيين – على العكس – جربوا الحمامات الشرقية وأعجبوا بها.

ويدفع الفرد من ٢٠ إلى ٣٠ بارة مقابل الحصول على حمام شرقى كامل. أما الأقل ثراءً فيدفع من ٨ إلى ١٥ بارة فقط. إن كرم الأغنياء يعوض نقص مكسب صاحب الحمام (الحمامجى) وبذلك تستمر المنشأة فى استقبال الناس الأقل ثراءً.

أما فى الريف، فالحمام نادر الوجود ولا يجد الفلاحون أمامهم سوى الغطس فى ماء النيل أو الترع أو البرك.

وتشغيل الحمام يتطلب توفير مصاريف ثابتة مثل: الإيجار (من ٦٠ إلى ٨٠ مديتيًا يوميًا)، والتجهيز (الأكواز والفوط والصابون ... إلخ) الذى يقدر بمبلغ يتراوح ما بين ٢٠٠ و٣٠٠ ريال أبو طاقة، بالإضافة إلى مصاريف: الصيانة والخدمة وتسخين المياه. وفى مصر، توجد أوقاف أنشئت خصيصًا للصرف - جزئيًا - على هذه المنشآت والسماح للجميع بالاستفادة من الحد الأدنى من مبادئ الصحة حسبما تقتضى مبادئ الدين.

٤- التجميل :

بعد أن تصفف السيدة شعرها وتنثر عليه خلاصات العطور الغالية، تبدأ فى تكحيل جوانب الأجفان بالكحل المعد أساسًا من القصدير المحروق أو من عفص البلوط. وتنتزع - بعد ذلك - شعر الحواجب وترسم مكانه خطًا ثقيلاً بالكحل مع جعل أطراف الجفون طويلة ، كما تضع ببراعة قطعًا صغيرة من قماش التافتا الأسود على بشرة الوجه لتفتيح لونها.

وتصبغ النساء كفى اليدين والقدمين بالحناء ذات اللون البرتقالى المائل للحُمرة والتى يدوم لونها لمدة طويلة. ويبدو أن السيدات يستخدمن الحناء لمنع الفضوليين من معرفة لون أجسادهن عند رؤيتهم لون البشرة الطبيعية للأجزاء الظاهرة منه. وعند بلوغ سن معينة، تصبغ السيدات شعورهن بالحناء لإخفاء الشعر الأبيض الذى يبدأ فى الظهور.

ولا يتوقف أمر الزينة النسائية عند هذا الحد: فهن يضعن لُبابة الخبز الساخن على أثدائهن لتكبيرها. كما يستخدمن نبات " السِركى" للاحتفاظ بنضارة البشرة حتى بلوغ سن متقدمة. وهذا النبات نادر فى بلاد الشرق لأن السلطان يستأثر به لحريمه. وياله من شرف عظيم لو استطاعت زوجات الباشوات والبرجوازيين الحصول على بضعة قشات منه !!

وتضع نساء كثيرات الوشم على شفاههن وذقونهن على شكل خطوط رأسية زرقاء أو سوداء. وفى أحيان نادرة، يضعن الوشم على صدورهن. ويوشم الأقباط

الصليب - أو أى رمز دينى مسيحى آخر - على الجزء الداخلى للرسغ.

وبالنسبة للرجال، فإنهم يحلقون شعر رءوسهم بالكامل ولا يتركون سوى خصلة فى مقدمة الرأس التى تكون دائمًا مغطاة بطاقية أو "عمامة". ويطلق الرجال لحاهم، فهى علامة الرجولة، لكنهم يحلقون الشوارب. وفى الشرق، نجد أن رجل الدين حليق اللحية لا يفرض أى احترام على الناس، ولذلك يجب عليه الاحتفاظ بلحيته كاملة.

ويرى المصريون أن طريقتهم فى العناية بأجسامهم هى الأفضل بالتأكيد حتى ولو كانت غير مناسبة فى كل الأحوال. إن الدين الإسلامى يجبر أتباعه على نظافة الجسم الخارجية - وهى متاحة للجميع - إلا أن موقف المصريين تجاه المرض كان لا يزال مليئًا بالجهل والخرافات. ولابد من مرور سنوات طوال لكى يثق المصريون بالطب العلمى المبنى على المعرفة والتجربة.

د- الاحتفالات العائلية:

١- الولادة:

يحتفل المصريون بميلاد الذكر بفرح أكبر بكثير من الاحتفال بميلاد الأنثى. وبعد مرور سبعة أيام على ميلاد الذكر، يقام احتفال خاص بهذه المناسبة هو "السبوع": فتدعو الأم أعضاء الأسرة والصديقات لحضور أول ظهور للمولود الجديد فى الحرملك. وبعبارة أخرى، فإنها تقدم للطفل وَسَطَه الجديد.

وتفتتح إحدى الخادمات المسيرة: فتحمل صينية نحاسية بها كمية من الشموع المضاءة بعدد السيدات الحاضرات، وبجوارها تتقدم مربيتان تحمل أحداهما شعلة صغيرة فى منقد برونزى، وتحمل الأخرى صحنًا به خمسة أصناف من الحبوب وملح وبخور يرمز لأيام الطفل السبعة.

وتسير الأم والزائرات والعوالم فى موكب ملىء بالموسيقى الصاخبة. وتلقى القابلة ببعض الحبوب فى كل حجرة يدخلها هذا الموكب، وسط زغاريد النساء، فى حين

تُضاعف الموسيقى من صخبها. وبعد توقف قصير فى كل حجرة من حجرات الحرملك، يرجع الموكب إلى القاعة الرئيسية.

وعندئذ تضع الخادمة صينية الشمع على منضدة منخفضة، فتتقدم كل سيدة وتضع فيها بضع بارات. وتسرع الفتيات الصغيرات الحاضرات فتأخذ كل منهن شمعة تحتفظ بها كذكرى لهذا "السبوع"، وتأخذ القابلة النقود الموجودة فى الصينية ، وينتهى الاحتفال بزيارة جديدة للمولود: فتزين رأسه بقطع النقود الذهبية التى أهديت له أو توضع فى منديل تحت رأسه. وجرت العادة على أن يسمى المولود باسم أحد جديه.

وفى "السبوع" الذى يقام فى منازل العائلات الكبيرة، تجئ كل عتيقات الأم لزيارتها: فتستقبلهن المشرفة على الخدم وتقدم لهن القهوة ومختلف أنواع الشربات. ثم تظهر الأم سيدة الدار فيهرعن كلهن لتقبيل يدها ويهنئنها. وعندئذ تجلس السيدة وتظل عتيقاتها واقفات، فتوجه السيدة بضع كلمات لكل منهن. وينتهى هنا الاحتفال بعد ربع ساعة، فتأمر السيدة ببقاء من تريد الحديث معهن على انفراد.

ويوم "السبوع" عند الأقباط هو يوم التعميد الذى يقوم به – عادةً – أحد الكهنة: وقبل البدء بالاحتفال "بالسبوع"، يتم اختيار اسم المولود. ويختار الأقباط هذا الاسم بطريقة غريبة: فتوضع سبع شمعات مضيئة حول حوض مليء بالماء، وتحت كل شمعة اسم مكتوب فى ورقة ، ويحمل المولود الاسم المكتوب تحت آخر شمعة ظلت مضيئة.

وهناك احتفال آخر بالمولود هو الاحتفال بالختان فى السنة السادسة تقريباً: ففى اليوم المخصص لختان الطفل، يتجمع الأقارب والأصدقاء فى موكب، ويعزف الموسيقيون موسيقى صاخبة، ويزفون الطفل على صهوة حصان بأبهة، ويسبقه الحلاق الذى سيجرى عملية الختان. ويحمل أحد صبيانه أمامه لوحة عريضة تزينها مرايا نحاسية يسمونها "الحِمْل"[١٢] وهى شعار هذه المهنة. وعلى عكس ختان الذكور، كان ختان الإناث لا يحظى بأى احتفال.

---

(١٢) كانت هذه الاحتفالية مصحوبة بأغنية شهيرة هى:

"دخل المزين بعدته وأمواسه .. يا أم المتطاهر جددى أعراسه" [المترجم] .

٢- الزواج:

تتفق النساء – عادةً – على الزواج في الحمام العمومي. وحسب التقاليد، تطلب أم العريس من الخاطبة البحث عن عروس لابنها. وسن البلوغ هو عادة سن الزواج، لكن من حق الأب – بشكل مطلق – أن يأمر بزواج طفله أو طفلته قبل الوصول إلى هذه السن. وفي هذه الحالة، يصبح الاتفاق – الذي عقدته السيدات – لاغيًا، لكن موافقتهن على قرار رب الأسرة يصبح ضروريًا فيما بعد. وتبلغ سلطة الأب حداً لايتصور معه أحد أبدا أن الطفل الذكر سيرفض قرار أبيه فما بالنا بالبنت؟؟ وفي هذه النقطة، يتصرف الأقباط مثل المسلمين بالضبط: وعادة ما تتم خطوبة البنت في سن السادسة أو السابعة وعندئذ تلبس الطفلة خاتمًا في إصبعها.

وعند الأقباط، يبارك أحد القساوسة الخطوبة، ويسجل وعد الزواج وقيمة المهر. وفترة الخطوبة تكون قصيرة ، قد تصل إلى شهر على الأكثر. وبعد ذلك، يتم الاحتفال بالزواج في بيت أسرة العريس وينحصر في مباركة الزواج المقبل ثم تولم وليمة كما حدث في الخطوبة.

وعند المسلمين، تتم إجراءات الزواج كما يحدث عند الأقباط. ويقدم زوج المستقبل الصداق – كما جرت العادة – إلى وكيل المخطوبة. وفي زمن الحملة الفرنسية على مصر، كان هذا الصداق يبلغ ١٠ دراخمة (أو ٨٠ بارة) وقد يزيد عن ذلك في أغلب الأحيان.

وعادة ما تستمر احتفالات العُرس – لدى وجهاء المسلمين – لعدة أيام وتتكلف الكثير من المال، حسب ثراء أسرة العروسين ووضعهما الاجتماعي. وفي كل الأحوال، يوجد احتفالان ثابتان لا تحيد أي أسرة عنهما: حمام العروسة ، وليلة وصولها إلى منزل الزوجية.

وفي الاحتفال الأول، تخرج العروس من بيتها وتتجه إلى الحمام في موكب وتظللها مظلة حريرية يرفعها أربعة رجال من أطرافها. وتكون العروس مغطاة تمامًا بشال حريري أحمر اللون، وغطاء رأسها مزين بالجواهر. وتسير العروس بخطوات بطيئة مستندةً إلى سيدتين كبيرتين في السن على يمينها ويسارها. وتتقدم فرقة

موسيقية الموكب وهى تعزف على الناى والمزمار والرق، وتليها قريبات العروس وصديقاتها . وقبل الزفة، يتم حجز الحمام بالكامل للنهار بطوله وتستحم العروس، وتقوم (البلانة أو الماشطة) بنزع الشعر من جسمها وتمشطها وتعطرها . ثم تقدم وجبة خفيفة ولا ينسون الحمالين والموسيقيين المنتظرين بباب الحمام. وترجع الزفة بالترتيب نفسه الذى بدأت به.

وفى مساء اليوم التالى، تغادر العروس منزل أهلها وتذهب إلى منزل الزوجية مصحوبة بالموكب السابق نفسه وكذلك الترتيب نفسه . وأحيانًا تنتقل الشابة على هودج يحمله جملان. وفى الحالتين يكون خلفها جهازها وأدواتها وملابسها محمولة على ظهر الدواب. وقبل دخولها إلى بيت الزوجية، يُذبح خروف أو بقرة على عتبة باب بيتها الجديد ويوزع اللحم على الفقراء، ثم تدخل العروس إلى الحرملك وسط الأغانى والزغاريد.

وتختلف مراسم الاحتفال بالزفاف – قليلاً – من مكان إلى آخر فى مصر . وسنذكر فيما يلى بعض ما يحدث فى الأقاليم احتفالاً بهذه المناسبة: يجلس العروسان فى غرفتين منفصلتين؛ وعندما يتم تزيين العروس، يأتون بالزوج المقبل لرؤية عروسه. وترتدى العروس أغلى وأجمل ملابسها: عمامة مزينة بسلاسل ذهبية وفضية، ويلونون جبهتها وخديها باللون الأحمر، ويرسمون أشكالاً بورق الذهب. ثم يضع رجل عجوز قطعة من الذهب فى فمها . وتتم تلك المراسم وسط أنغام الموسيقى وأصوات الغناء. ثم تنسحب العروس لتغيير ملابسها؛ وعند عودتها مرة أخرى للقاعة، يضع العجوز نفسه قطعة ذهبية أخرى على صدرها . ويتكرر ذلك المشهد خمس مرات أثناء السهرة. ثم يجمع الموسيقيون والسيدتان المسنتان النقوط ويدخل الزوجان إلى عش الزوجية. وفى جميع الأحوال، يجب إثبات عذرية الزوجة فى ليلة الدخلة عند المسلمين والأقباط.

ولا يعرف الكثيرون بوجود وكالة خاصة بالزواج فى القاهرة بالقرب من "باب الخلق"!! وذكر أحد محررى موسوعة "وصف مصر" أن هذا المكتب كان يديره موظفون أتراك: فكان راغبو الزواج يسجلون أسماءهم فيه، ويبدو أنهم كانوا يجدون فيه مطلوبهم. وأضاف كاتب المقالة ما يلى: "... وهذا طبيعى فى بلد لا يستطيع فيه راغبو الزواج رؤية بعضهم قبل الزواج..."

وكل الشخصيات الكبيرة – تقريبًا – متزوجون من زوجة واحدة فقط. ولكن الزواج بأربعة يظل مدعاة لزهو الزوج السعيد، كما يعني أنه قادر على فتح أكثر من بيت وأنه سيرزق بذرية كبيرة. أما الباقون فيكتفون بالزواج والطلاق عدة مرات على التوالى.

ومن حق الزوج – شرعًا – تطليق زوجته حسبما يشاء. لكن الزوجة، على العكس، لا تستطيع هجران منزل الزوجية بإرادتها. وإذا فعلت ذلك، فإنها تفقد حقها فى النفقة وحضانة الأطفال وتعتبر ناشزًا ولن تستطيع الزواج مرة أخرى. وتحظى المرأة – عادة – بالاحترام ، لكن طبقة العوام – فقط – هى التى تسىء معاملة الزوجات.

٣- الجنائز:

فى مصر، تحاط مراسم الجنائز بمظاهر حزن شديد تعبر عنها السيدات أكثر من الرجال. وبهذه المناسبة، يتم استئجار ندابات (معددات) محترفات يزدن من بكاء الحاضرات بما يقلنه.

ويتم دفن الميت بعد مرور خمس ساعات أو ست بعد حدوث الوفاة. ورغم أن هذا الاستعجال فى الدفن قد يكون بسبب وقوع جرائم غير مقصودة ، فإن جو مصر شديد الحرارة هو الذى يجبر الناس على الإسراع بدفن الجثة. وحالما يتأكد ذوو الميت من حدوث الوفاة، يبعثون فى طلب المغسل أو المغسلة حسب النوع.

وبعد تغسيل المتوفى، يُلف الجثمان فى كفن أبيض غير مخيط. وعندما يكون المتوفى من العوام، فإنهم يلبسونه أبهى ملابسه، لكن المسلمين المتشددين ينتقدون هذه العادة. وبعد ذلك، يسجى الجثمان فى نعش مفتوح، وتكون الرأس فى الأمام، وعلى النعش قماش جوخ مزخرف. وإذا كان الجثمان لذكر، فتُوضع عمامة فوق النعش؛ وإذا كان لأنثى، فتوضع عليه باقة من الزهور.

ويشترك الأهل والأصدقاء والجيران فى هذا الموكب، ويتوجهون إلى أحد المساجد للصلاة على الجثمان. وفى مقدمة الجنازة، يتلو المشايخ العميان الشهادتين، ويليهم خدم المتوفى مرتدين ملابس داكنة اللون، ثم تأتى الندابات (المعددات) مرتديات جلابيب زرقاء اللون وطُرح بيضاء وهن يصرخن ويعددن مناقب المتوفى وحسناته – أو المتوفاة – وهى جُمَل تقليدية محفوظة تتردد فى جميع الجنازات ولجميع الموتى.

ويحمل أربعة رجال النعش، ويحل محلهم أربعة غيرهم كل فترة. ومما هو جدير بالذكر أن الدين الإسلامى يعتبر المشاركة فى تشييع الجنازات من الحسنات(١٣). وبعد ذلك، يأتى أفراد الأسرة – من الذكور فقط – وشيخ المسجد. وتتم هذه الإجراءات بسرعة لكن بقدر من الوقار. وفى المسجد، يؤم الشيخ أو ابن المتوفى المصلين ثم تتجه الجنازة إلى المقابر.

وفى المقابر يوجد مقرئون يقرأون القرآن بالأجر ، ثم تدفن الجثة فى حُفْرةَ قليلة العمق ، ويلقى المشيعون فى الحفرة قبضة من الرمل ويهيل حفار القبور التراب على الحفرة ، ويبقى الأشخاص الأغراب – الذين شاركوا فى الجنازة – ويتناولون وجبة فى المقابر بينما يعود الأقارب والندابات إلى منازلهم.

وتمتلك الكثير من الأسر مدافن عائلية خاصة بها، وهى عبارة عن قبو تحت الأرض مبنى من الحجر توضع فيه الجثامين: ويوضع الرجال فى ناحية والنساء فى الناحية المقابلة. وكما يحدث فى بلاد أخرى، فإن الدفن يتم نهاراً فقط. وعلى سبيل التضامن، فإن الأغنياء يدفعون لبناء قبور الفقراء (مقابر الصدقة). وهذا التصرف مفهوم، بل إن هناك أوقافًا مخصصة لهذا الغرض.

وزيارة المقابر تكون فى أيام الجمع والمناسبات الدينية ، ويحلو للنساء زيارة المقابر وتوزيع فطائر الرحمة على الفقراء بهذه المناسبة ويطلبن من المقرئين تلاوة آيات من القرآن على قبر ذويهن.

---

(١٣) لذلك فإن حاملى النعش يتبادلون الحمل قائلين: "آجرنى" [المترجم] .

ومسيحيو العاصمة والأقباط لهم مقابرهم الخاصة فى حى مصر القديمة وغير مسموح لهم بالدفن فى غيرها، وما زالوا يحتفظون فى منازلهم بسراديب لدفن موتاهم مع أن ذلك ممنوع فى القاهرة نفسها. واختارت العائلات القبطية الكبيرة منازلاً معزولة فى حى مصر القديمة لإنشاء المدافن بها(١٤) ويزورونها فى أوقات معينة من السنة حسب عاداتهم الخاصة بهم.

وينفرد الأقباط عن المسلمين باستخدام النعش المقفول لدفن موتاهم، إلا أن الجميع يشتركون فى عادة استئجار الندابات ، وأيضًا فإنهم يذهبون للصلاة على روح الميت فى المقابر عند حلول اليوم الأربعين للوفاة، وبعد مرور ستة أشهر، ويوم الذكرى السنوية. وتوجد فى طقوس الجنازات القبطية الكثير من الطقوس الفرعونية.

ولاختيار جبانة إسلامية، يختار المسلمون مكانًا جافًا ومرتفعًا بعيداً عن الأراضى الزراعية لكى لا تصل إليه مياه الفيضان (١٥). وحين تمتلئ المقبرة بالهياكل العظمية، تخصص السلطات مكانًا جديداً للدفن. وفى المقابر الإسلامية، توجد مساجد ومشاهد وشواهد قبور تحمل اسم المتوفى وآيات قرآنية محفورة على الحجر. والمدافن الموجودة حول القاهرة مزينة بالزهور وتظللها أشجار الجميز(١٦) والسنط والنخيل.

وفى زمن بونابرت كانت توجد عدة مقابر بداخل القاهرة. وبناءً على نصيحة ديجينيت، أصدر بونابرت أوامره بأن تتم جميع عمليات الدفن خارج المدينة، ووافق الشيوخ فى "الديوان" على هذه الأوامر بالإجماع.

---

(١٤) ربما يقصد المؤلف الحديث عن "الأحواش" (مفردها: "حوش") ، وهى موجودة عند المسلمين والأقباط على السواء [المترجم] .

(١٥) هذه الشروط تنطبق على اختيار المقابر الإسلامية والمسيحية وهى نفسها شروط اختيار المقابر المصرية القديمة [المترجم] .

(١٦) شجرة الجميز دائمة الخضرة. قدسها المصريون القدماء وزرعوها فى المقابر اعتقاداً منهم بأن الإلهة "نوت" تسكن فيها وتعطى اللبن للمتوفى. وقد بقى أثر تقديس هذه الشجرة حتى وقت قريب: إذ تزرع بجوار القبور ليستظل الموتى بظلها ولكى تروى ظمأهم، كما هو الاعتقاد السائد بين عامة الشعب المصرى، ويعد قطعها من الأمور المستهجَنة [المترجم] .

٤- الزيارات:

تخضع الزيارات - في مصر - لقواعد بروتوكولية صارمة لدى الطبقات العليا. وتختلف قواعد زيارة النساء لبعضهن اختلافًا طفيفًا عن قواعد الزيارات التي يقوم بها الرجال: فعندما تدخل الزائرة إلى الحرملك، تقف لها ربة البيت وتصافحها وتضع يدها على قلبها وتقبلها ثم تجلسها بجوارها، وترجوها أن تكون على راحتها. وعندئذ ، تخلع الضيفة معطفها وحجابها وتبقى بالفستان الفضفاض الذي يبين تفاصيل جسدها والمربوط بحزام في الوسط . وعندما تكون الضيفة أكبر سنًا من ربة المنزل، فإن المُضيفة تناديها بـ "يا أمي"؛ أما إذا كانت أصغر منها سنًا، فتناديها بـ "يا أختي". ثم تقدم الجواري القهوة وأنواع الشربات والمربات والفواكه ، وتصب إحدى الفتيات الماء على يدها من إبريق وتغسل المضيفة أصابعها. وطوال فترة الزيارة، لا يستطيع رب المنزل دخول الحرملك، بل عليه أن ينتظر انتهاءها.

أما في السلاملك، فإن قواعد وآداب الزيارة تختلف قليلاً: فصاحب المنزل يستقبل ضيفه بعبارات ترحيب قليلة لكن بطريقة ودية. ويجلس الضيوف - الذين ينتمون إلى الطبقة الاجتماعية نفسها - بجوار المضيف متربعين على الأريكة، بينما يجلس الأدنى مرتبة متربعين على الأرض.

وحالما يجلس كل شخص في مكانه، يقدم العبيدُ لهم الشبك والقهوة؛ وفي الوقت نفسه ، يضعون - في منتصف القاعة - مجمرة بها عطور يفوح منها شذاها فتملأ المكان بالروائح الطيبة. وفي نهاية الزيارة، يدخل عبد حاملاً مبخرة يقربها من وجوه الحاضرين، فيبخر كل شخص لحيته. وبعد ذلك، ينثر بعض نقاط من ماء الورد على رءوس وأيدي الزوار، وعندئذ يخرج جميع الزائرين(١٧).

٥- العادات المنزلية:

من المؤكد أن ما ذكرناه آنفًا - عن آداب السلوك - لا ينطبق بالضبط على صغار

(١٧) ومن هنا جاء المثل العربي: "بعد العود ما في قعود" [المترجم] .

القوم. ومع ذلك، فمن الخطأ الظن بأن آداب اللياقة جُعلت فقط للضيوف: فرب البيت في منزله وبين خدمه وحريمه يلتزم بقواعد سلوكية معينة. وعندما يستيقظ السيد، يجد خدمه واقفين حوله وأذرعهم مشبوكة على صدورهم، منتظرين تلبية أدنى رغبة يُبديها. ويقف أطفاله أمامه حتى يأذن لهم بالجلوس أو يطلب منهم الاقتراب، ويداعبهم بوقار ويدعو لهم ثم يأذن لهم بالانصراف لمشاغلهم.

وفى الحرملك، تجرى الأمور - أيضًا - بناءً على قواعد معينة تلتزم بها النساء: فالسيدة المتزوجة من رجل مهم تتحدث بتكلف مع صديقات طفولتها، ويجب على صديقات الطفولة مراعاة المسافة التى تفصلها عن هذه "الهانم".

وعلينا أن نتذكر المفاجأة التى فجرتها زوجة الجنرال مينو المصرية. لقد روت زوجة الجنرال لصديقاتها الرعاية الرقيقة التى يعاملها بها زوجها: فعلى مائدة الطعام، كان الخدم يقدمون لها الطعام - أولاً - قبل زوجها، وكان يقدم لها أفضل الأشياء. وللانتقال من غرفة لأخرى، كان الجنرال يمد يده لها ليساعدها، ... إلخ لدرجة أن الزوجات المصريات أرسلن شكوى لبونابرت يطالبنه فيها بأن يصدر أوامره للأزواج المصريين لكى يتصرفوا معهن على الطريقة الفرنسية.

وكانت النسوة فى الطبقات الشعبية يقفن أمام سيدة المنزل ولا يجلسن أمامها على الحصيرة (أو المرتبة أو الشلتة) إلا بعد أن تأذن لهن.

وكان الطفل لا يغادر الحرملك إلا بعد سن السابعة. وعند بلوغه هذه السن، لا يسكن فى المكان نفسه مع أمه، لكنه كان يذهب إليها يوميًا - فى كل صباح - ليقبل يدها ويبقى معها لبعض الوقت وذراعاه متشابكتان على صدره، ويجيب عن أسئلتها إذا سألته. ثم ينزل بعد ذلك عند والده لكى يقدم له فروض الاحترام نفسها ، ولا يسمح له بتناول الطعام مع الكبار إلا فى أيام الأعياد . وهو - ربما - لا يتلقى الكثير من مظاهر الحنان، ولكن كل شيء يتم فى إطار من الكرامة والاحترام المتبادل.

وآداب السلوك نفسها هذه تنطبق على العلاقات الداخلية فى نواة الأسرة: فالزوجة لا تتناول الطعام مع زوجها إلا إذا دعاها لذلك. والزوجة - فى الطبقات الفقيرة - تظل واقفة أو جالسة فى ركن الغرفة بينما يتناول زوجها طعامه.

وينام الأزواج بعيداً عن زوجاتهم. ولدى الأغنياء، يكون لكل من الزوجين جناحان

منفصلان فى المنزل. والأقل ثراءً يختارون ركنين متقابلين فى حجرتهم لينام فيهما كل من الزوجين. وإذا كان الأغنياء ينامون على مرتبة، فالفقراء ينامون على الأرض. لكن على كل المستويات الاجتماعية - لدى الأغنياء والفقراء - فإنهم لا يغيرون ملابسهم الداخلية، مما يساعد على نمو الهوام.

وسنختم هذا الجزء بذكر بعض الملاحظات العامة المتعلقة بالحياة اليومية: إن نساء الطبقات الشعبية يؤدين أعمالاً خارج منازلهن ولا يشعرن بالضيق مثل سيدات الطبقة الراقية. وبالتأكيد، فإنهن محجبات مثلهن لكنهن لا يمارسن - مثل الهوانم - مهنًا مربحة إلا فى القليل النادر. ومهمتهن الأساسية هى إعداد الطعام لأزواجهن وملء المياه: فيضعن البلاص على رءوسهن أو يحملنه على كفوفهن وتكون الذراعان متوازيتان على الجسم. وأخيراً، فإن أغلب النساء لا يعرفن الحياكة ويتركن ملابسهن تبلى حتى تصبح أسمالاً. وإذا كانت أكثريتهن يجدن مهنة الغزل، إلا أن بعضهن فقط يعرفن التطريز.

ثانياً : التسلية :

أ - الأعياد الدينية والمدنية والشعبية:

تضفى الأعياد لمسة فرح على رتابة الحياة اليومية. وفى مصر، يجب التمييز بين الاحتفالات الدينية - الإسلامية والمسيحية - والمناسبات المدنية.

١- الأعياد الدينية :

التقويم الهجرى يبدأ بشهر محرم، وهو الشهر الذى يبشر بعودة الحجاج من مكة فتستقبلهم السلطات وجميع فئات الشعب استقبالاً حافلاً فى القاهرة.

وفى شهر رمضان، عندما يعلن شيخ الأزهر ميلاد الهلال الجديد، يتم تنظيم

احتفال تلقائى يسير فى مقدمته حملة المشاعل وحملة الشموم، يليهم الموسيقيون فوق ظهور الجمال أو الحمير، ويأتى بعدهم أعضاء الطرق الصوفية؛ وفى آخر الموكب، يأتى المشايخ ممتطين صهوة الجياد[18] المزينة ببذخ. ويذهب هذا الموكب الفخم ليبشر الحاكم رسميًا بحلول شهر رمضان وبدء الصوم. وهذا الشهر هو شهر التقوى والورع. وفيه ينام الأغنياء طيلة النهار ويقضون الليل فى الاستمتاع بالطعام بينما يمارس الآخرون عملهم المعتاد. وبالنسبة للجميع، فإن إيقاع الحياة يصير أبطأ. وهو أيضًا شهر الزيارات الليلية: فيذهب البسطاء إلى القهاوى ويتسلون حتى الساعة الثانية أو الثالثة صباحًا. وفى آخر شهر الصوم، يأتى العيد الصغير الذى يستمر لمدة ثلاثة أيام. وفيه تقام الأذكار وتسير مواكب الصوفية رافعة أعلامها المميزة لكل طريقة منها.

وفى شهر شوال، تخرج كسوة الكعبة الشريفة فى مقدمة جموع الحجاج المتجهين إلى مكة. وإليكم ما كان يحدث فى مصر، فى نهاية القرن الثامن عشر الميلادى: كان الشعب المصرى، المتشوق لرؤية هذا الاحتفال، يذهب فى وقت مبكر جداً إلى ميدان "قره ميدان" حيث يتجمع الحجاج. ويحضر الضباط وأعضاء الديوان والحاكم وكبار معاونيه وموسيقى الجيش الفرنسى و"فرط الرمان" مع المائتى انكشارى التابعين له، ومختلف طوائف الحرف، والموسيقى التركية، ويرتدون كلهم أفخم ما لديهم من ملابس ويكونون موكبًا فخمًا ويتسلم "أمير الحج" كسوة الكعبة فى احتفال مهيب.

و"أمير الحج" يكون عادة شخصًا ذا مقام رفيع يعين بقرار رسمى. وتُحمل الكسوة على جمل يختار لهذا الغرض. ويخرج الموكب من باب النصر، ويكون "أمير الحج" وسط الحجاج. والبضائع التى يحملها الحجاج معهم (مثل الأقمشة، وحشرة القرمزية) لا تخضع لأية ضريبة. وفى العودة، يجلب الحجاج معهم شيلان الكشمير والموسلين والأقمشة الرقيقة والبن ... إلخ . [19]

---

(١٨) كان المشايخ – عادةً – يركبون البغال [المترجم] .

(١٩) ومن هنا جاء التعبير: "حج وتجارة" [المترجم] .

وفى اليوم العاشر من شهر ذى الحجة، تاريخ وصول الحجاج إلى مكة، يحتفل المسلمون بالعيد الكبير الذى يستمر لمدة أربعة أيام من البهجة والأفراح والمآدب الفاخرة. وفى العيد الكبير يضحى عادة بالخراف. ويذبح الأغنياء أُضحية عن كل فرد من أفراد الأسرة، ويذبح غيرهم أضحية عن الأسرة كلها ، ويتم توزيع جزء من لحم الأضاحى على الفقراء.

وجدير بالذكر أن أيام الأعياد هذه ليست أيام عطلة لأن فكرة العطلة غير موجودة أصلاً وأغلب المتاجر تظل مفتوحة، ولكن يفضل الكثيرون أن يتزينوا بأفضل ما لديهم من ملابس ويذهبوا للنزهة.

أما الأقباط الأرثوذكس، فتبلغ أيام الصوم لديهم ١٥١ يومًا و٩٣ يومًا من أيام "القطاعة" (القنوت والحرمان) يلتزم بها شديدو التدين (أيام الأربعاء والجمعة، وليالى الأعياد الكبيرة، والصوم الكبير ... إلخ). ويحتفل الأقباط بالأعياد نفسها التى يحتفل بها الغربيون مع تأخير قدره أسبوعين تقريبًا بسبب التقويم اليوليانى الذى يتبعونه. ولذلك فإن عيد الميلاد لديهم يقع فى السابع من يناير حسب التقويم الغربى. والأعياد التى تقام للاحتفال بالمسيح يبلغ عددها ١٤ عيداً منها: سبعة أعياد كبار (الزعف والفصح والغطاس، ... إلخ) وسبعة أعياد صغيرة (تقدمة العذراء فى الهيكل، وموت العذراء، والصعود، ... إلخ). كما يحتفل الأقباط الأرثوذكس بالحواريين مثل: بطرس وبولس، والقديسين الأقباط، وعدد كبير من القديسين الشرقيين.

وعلى عكس الاحتفالات الإسلامية، التى تتسم بقدر كبير من الفخامة، فإن الأعياد القبطية تتخذ طابعًا دينيًا فى الأساس ولا يوجد بها أى تجمع شعبى خارج الكنيسة.

أما موالد الأولياء المسلمين، فتكون بها حشود شعبية غفيرة حول قبر – أو مسجد – الولى ، وتستمر هذه الموالد – أحيانًا – لعدة أيام، أى أنها تدوم حسب الأهمية التى يبديها المصريون للولى.

ويذكر ج. ديفرى أن "مولد النبى" (يوم ١٢ ربيع الأول) هو احتفال ليلى حقيقى بكل ما فيه من قناديل ورَقية، وأعلام، ومتاجر مضاءة. وأكثر الأشياء جاذبية فى مولد النبى هو عرض وبيع العرائس المصنوعة من السكر والمزينة بالورق اللميع. وتنظم

النساء (الفتيات والعجائز والفلاحات) موكبًا يسرن فيه وهن يحملن شموع مزينة بالزهور، وينشدن المدائح النبوية. وفى هذا اليوم، توزع الحلوى وقطع النقود الصغيرة على الأطفال. ويجتمع رجال الدولة فى خيام مزركشة للغاية ويتلقون التهانى من أفراد الشعب. وتلقى بونابرت التهانى بهذه المناسبة التى أصبحت أسطورية بفضل فخامتها وأبهتها.

ويقام مولد سيدنا الحسين فى القاهرة بجوار مسجده. وتزور الجماهير الحاشدة قبره حاملين المشاعل فى أيديهم ومحاطين بالموسيقيين وحلقات الذكر. ولأهمية هذا الاحتفال وتجمع الآلاف فيه، تملك الخوف من المماليك وتصوروا أنه من الأفضل إلغائه مما سبب إحباطًا للشعب. لكن الفرنسيين سمحوا للمصريين بالاحتفال به مجدداً حسب عادتهم ، وهذا ما جعل لسان الشعب الطيب يلهج بالشكر لقائد الحى الفرنسى وترجمانه (الذى كان قد افتتح قهوة).

وهناك أيضًا، مولد "السيدة زينب" فى القاهرة باحتفالاته وأضوائه. لكن أكثر الموالد شعبية على الإطلاق فى الأرياف – هو مولد السيد البدوى فى طنطا الذى سبق لنا وأن تكلمنا عنه بإيجاز – ويوجد غير ذلك العشرات من الموالد التى تجذب آلاف الزائرين.

ويحتفل الأقباط بشُفعائهم من القديسين؛ وبالتالى، فهم ينظمون الموالد لهم. وذكر ج. فيو (G. Viaud) أن موالد الأقباط تبلغ ٦٠ مولداً يحتفلون بها كلها حول الكنائس والأديرة. ويستمر بعضها لعدة أيام، والبعض الآخر يستمر لمدة يوم واحد فقط، هو يوم ذكرى القديس.

وفيما يلى، سنذكر بعض هذه الموالد المسيحية مثل: مولد ميت دمسيس – فى الدقهلية – من يوم ٢٣ إلى ٢٩ أغسطس، ويحتفلون به فى ذكرى مار جرجس. ويشارك المرضى والمجاذيب، والمسيحيون والمسلمون، فى هذا المولد: فيحضرون بأعداد كبيرة ويصلى الرهبان من أجلهم. وإذا ظهر لهم مار جرجس فى أحلامهم، فإنهم يشفون من أمراضهم. وهذه الظاهرة قريبة من فكرة الروح التى كانت العبادات الوثنية تزعم بأنها تأتى للناس وهم نيام فتشفيهم.

وهناك أيضًا مولد "القديسة دميانة" ورفيقاتها الأربعين بالقرب من بلقاس، وهى شهيدة من القرن الثالث الميلادى، ويحتفلون به فى يوم ٢٠ مايو. أما مولد السيدة

العذراء فى دقـادوس، بالقرب من ميت غمـر، فـيحتفلون به مـن ٢٠ إلى ٢٢ أغسطس، وهو إحياء لذكرى مـرور العائلة المقدسة بدقـادوس وهـى فى طريقـها إلى سـمنود فى الدلتا. وأخيراً، يوجد مولد مـار جرجس فى "طوخ النصـارى " من يوم ٢٧ أبريل حتى يوم ٤ مايو. وتوجد موالد أخرى كثيرة فى الصعيد.

وفى هذه الموالد، يختلط دائمًا التـدين الصـادق بالروح الدنيـوية: فطوال النهـار- وخصـوصـًا فى الليل - تتزاحم الحشـود على المقاهى والمطاعم الصـغيرة (وهى عبارة عن خيام مزينة منصوبة ومجهزة لهذه المناسبة) التى تحيط بالأديرة والكنائس. وجميع أنواع التـجارة مـوجـودة فى هذه الموالد، فـفيـهـا: البقـالون والعطـارون، وباعة الصـور والأيقونات والأحجبة، وراسمو الوشم، وباعة الحلوى واللحوم المشوية والفسيخ ... إلخ ومن المؤكد أن هذه الأمـاكن تعجب المسيحيين والمصريين بصفة عامة. إن الزيارة التى يقوم بها المسلمون - أو المسيحيون - للأولياء أو القديسين تعتبر مناسبة لها قيمتـها الدينيـة والاجتـمـاعـيـة والعـائليـة للناس: فـهم يصلون وفى الوقت نفسـه يُرَوِّحـون عن أنفسهم.

٢- الأعياد المدنية والشعبية :

يعتبر عيد "فتح الخليج" هو أهم الأعياد المدنية على الإطلاق: فـهو أجمل احتفـال فى السنة كلها بالنسبة لسكان العاصمـة، وتتناسب قيمتـه مع أهمية النيل وفيضانه فى حـياة المصـريين. وبدءًا من نهـاية يونيـو، يسـيـر المنادون فى الشـوارع مـعلنين مقـدار الزيادة اليومية فى مياه الفيضان حسبما ظهرت فى "مقياس الروضة".

وذكر لوكور حدوث احـتفـال غريب قبل الفيـضـان بأسبوعين: فيطوف جمل محمل ببشـائر مـحاصيل الفواكه فى جميع شـوارع العـاصـمة حتى يصل إلى المسـجد. وهذا الاحـتـفـال يُعَد بمـثابة نوع من الشكر لله ورسـوله .[!!]ويوجد أيضـًا مـهـرج يلطخ وجـهـه باللـون الأحـمـر ويمـتطى ظهـر ثور، ويحـيط به عـدة رجـال مـتنكرين يسندونـه من تحت أبطيه. وهذه الحفلة التنكرية تثير بهجة الناس وتبشرهـم بالخير العميم.

وعندما يسجل المقياس ١٦ ذراعًا، ينتشر هذا الخبر السعيد فى كل مكان كدليل على حدوث الرخاء. وعندما يصل فيضان النيل إلى ذروته، فى منتصف شهر أغسطس تقريبًا، يتم الاحتفال بفتح "السد" الصغير(٢٠) الذى يفصل الخليج المصرى عن نهر النيل، ويكون ذلك بحضور ورعاية الباشا وكل أعضاء الحكومة وسط فرحة الجماهير. وقد شارك بونابرت فى هذا الاحتفال التقليدى.

وفيما يلى، نقدم وصفًا موجزًا لهذا العيد الذى تم يوم ١٨ أغسطس سنة ١٧٩٨م: منذ الساعة السادسة صباحًا، وصل بونابرت إلى مقياس النيل بالروضة وبصحبته: هيئة أركان حربه، وجنرالاته، والكيخيا نائب الباشا، وأعضاء الديوان، وأغا الانكشارية، ومُمثلون عن كل أسلحة الجيش، وتشكيل صغير من الأسطول، وجزء من حامية القاهرة بأسلحتها، وكانت الجماهير الغفيرة تغطى التلال المجاورة. وعندما وصل الموكب الرسمى للمقياس، حيته المدفعية بإطلاق المدافع ، ثم عزفت موسيقى الجيش الفرنسى والقوات التركية عدة معزوفات انتظارًا لكسر الخليج الذى نفذه العمال بسرعة ، واندفعت مياه فيضان النيل المحملة بالطمى فى مجرى الخليج، فألقى بعض الناس بأنفسهم فيها.

وحسب العادة، ألقى بونابرت بالآلاف من قطع المدينى لهؤلاء السباحين، وألقى بقطع ذهبية لأول مركب مَر فى الخليج. ثم ألبس "المُلا"(٢١) عباءة بيضاء مبطنة بالفرو، وألبس "نقيب الأشراف" عباءة سوداء مبطنة أيضًا بالفرو، ووزع ٣٨ قفطانًا على معاونيه الرئيسيين من المصريين ، ثم رجع الموكب إلى ميدان الأزبكية بعدما تبادل التهانى والمجاملات المعتادة مع قائد الحملة.

ومن الأعياد الشعبية المهمة، يجب ذكر عيد "شم النسيم" أو "عيد الربيع" الذى يحتفل به كل المصريين فى يوم الاثنين الذى يلى "عيد الفصح" لدى الأقباط: فتخرج الجماهير الفَرِحَة إلى الحدائق والريف.

---

(٢٠) هذا الاحتفال كان يُطلق عليه – أيضًا – "كسر الخليج" و"جَبْر الخليج" [المترجم] .

(٢١) المُلا" لقب دينى شيعى يطلق على رجل الدين الذى ينتمى لدرجة من درجات الفقة فى المذهب الشيعى، وهذه الكلمة من أصل عربى "مَوْلَى" [المترجم] .

وفى زمن الحملة الفرنسية، تم الاحتفال بعيد استثنائى، هو "عيد رأس السنة الثورية" الجديدة: ففى يوم ٢٢ سبتمبر سنة ١٧٩٨م (الأول من شهر ڤنديمير للعام السابع للجمهورية)، احتفل بونابرت احتفالاً عظيمًا بالسنة الجمهورية الجديدة على أرض أجنبية : فنصب مدرجًا واسعًا نصف مستدير فى ميدان الأزبكية، وزينه بمائة وخمسة أعمدة عليها الراية الفرنسية وحمل كل عامود اسم مقاطعة فرنسية. وفى كل مكان، كان الحاضرون يشاهدون الرايات الفرنسية والتركية تخفق معًا، و"غطاء الرأس الفريجى"[٢٢] متشابك مع الهلال، ولوحات عليها مواد "حقوق الإنسان" وبجوارها آيات قرآنية.

وفى وسط الميدان، نصبت مسلة من الخشب ذات سبعة أوجه: وكانت خمسة منها تحمل أسماء الجنود الفرنسيين الذين ماتوا فى مصر ، والوجه السادس كان مخصصًا للبحرية ، والوجه السابع خصص لسلاح الفرسان والمهندسين. وأُحيطت المسلة بسبعة مذابح قديمة يحمل كل منها نصبًا تذكاريًا .

وفى المدخل، ارتفع "قوس النصر" الذى رسم عليه ريجو رسمًا يمثل "معركة الأهرام" (موقعة إمبابة)، وزينت الدعامات بشعارات وطنية ومنطوق "الشهادة" الإسلامية.

ومنذ الساعة السابعة صباحًا ، تم تنظيم عرض عسكرى كبير: فرُفعت الراية الفرنسية أعلى المسلة، ومرت القوات الفرنسية مصحوبة بالموسيقى الصداحة، وأدت القوات التحية العسكرية لبونابرت وضيوفه.

وبعد ذلك، أعدت وليمة للأعيان المصريين ، وكانت الوليمة على الطريقة الأوروبية: أى أنها كانت تحتوى على طاولات وكراس ومفارش وأدوات المائدة. وكان مزاج بونابرت رائقًا ، فسأل ضيوفه الشرقيين – فجأة – عن أكثر شىء أعجبهم منذ بداية علاقاتهم بالفرنسيين، فأجابه أحد أعضاء "الديوان" – مبتسمًا – أن أفضل شىء أعجبه هو أنه تعلم أن يشرب مع الأكل.

---

(٢٢) "غطاء الرأس الفريجى" (Bonnet Phrygien) كان يرتديه الثوار الجمهوريون الفرنسيون سنة ١٧٨٩م [المترجم] .

وبعد الوليمة، أجريت مسابقات للعدو والخيل والرماية وألعاباً ووُزعت الجوائز على الفائزين ، واستمرت البهجة حتى المساء: فأطلقت الألعاب النارية فى الميدان المضىء، وبعد ذلك، صُدم الجبرتى وزملاؤه المتأففون لأن الفرنسيين بدأوا فى الرقص، خصوصاً عندما رقصوا رقصة "الفارندول"(٢٣).

ب- النزهات الخارجية والحج:

لا يغادر المصرى حيه أبداً. فإذا غادر منزله، فلكى يمارس أشغاله اليومية. وبدلاً من الانتقال الذى يجهده، فإنه يفضل الجلوس على المقهى مدداً طويلة أو يزور الأهل والأصدقاء. لكن يجب أن ننتبه إلى أن السبب فى ذلك يرجع إلى أن الطبيعة الصحراوية (التى تحيط به) والتهديد المستمر المتمثل فى قُطاع الطرق (المستعدين لنهب بل وقتل الأفراد والمجموعات الصغيرة) لا يشجعان أبداً على القيام برحلات خلوية. إذن، فلابد من وجود دافع قوى يجعله يتنقل. ونتج عن ذلك أن المصرى لا يعرف سوى: الخروج لزيارة المقابر والسفر لأداء فريضة الحج.

ويقضى المصريون النهار بأكمله فى المقابر بصحبة الأسرة أو فى مجموعات، ويرجعون إلى منازلهم قبل حلول الليل بعد أن يكونوا قد وزعوا الصدقات والطعام على الفقراء حسب عاداتهم(٢٤).

وسكان القاهرة الأثرياء يتنزهون فى القوارب ذات المجاديف فى "بركة الفيل" أو "بركة الأزبكية" . ويقوم أحد الخصيان بحراسة الحريم كالعادة. وتنزلق القوارب المزينة والمحملة بالنساء على مياه البركة ، ومن الممكن تعرُّف تلك القوارب – التى تحمل النساء – لأن الموسيقى عادة ما تصدح فيها، كما أن سواترها تكون مسدلة. وتطلق الألعاب النارية فى ليالى الأعياد بجوار البرك.

---

(٢٣) "الفاراندول" (La Farandole) رقصة ريفية فرنسية تتشابك فيها أيدى الراقصين والراقصات [المترجم].

(٢٤) ربما يقصد المؤلف توزيع فطائر الرحمة وفاكهة الموسم الرخيصة (بلح أو جوافة ... إلخ) على الفقراء [المترجم] .

وقليلاً ما تخرج النساء من منازلهن: فيذهبن إلى الحمام مرة أو مرتين فى الأسبوع ؛ وفى أيام الجمع ، يخرجن للتنزه مع الأسرة. وتعتبر الموالد فرصة لمغادرة أسوار الحرملك لبرهة من الزمن.

١- التسلية خارج المنزل:

بالنسبة للمماليك والأتراك، فإن التسلية الخارجية عبارة عن ممارسة رياضة "الجريد": فكانوا يتجمعون فى ميدان كبير لممارسة هذه الرياضة. وينقسم الفرسان إلى فريقين يحمل كل فارس "جريدة" نخل طولها حوالى ١٢٠سم ومتوسطة السُمك. ويقوم الفارس بإلقائها أفقيًا فى اتجاه الخصم بقوة قد تكسر عظامه. ومهارة الخصم تكمن فى تفاديها، والأفضل له هو إمساكها وإلقائها على من ألقاها عليه. وكان الأتباع يقلدون سادتهم ويلهون بإلقاء الجريدة أفقيًا قبل أن يفعلوا ذلك وهم على ظهور الخيل.

كما كانوا يمارسون أيضًا الرماية بالبنادق على قدور فخارية: فالفارس كان عليه أن يصوب ويرمى الرصاصة وهو يرمح على صهوة جواده.

أما كبار الأمراء، فكانوا يمارسون رياضة الرماية بالقوس والسهم: وكانت توجد أعمدة صغيرة منصوبة فى ميدان الرماية تكريمًا لأمهر الرماة الذين أثبتوا تفوقًا فى هذه الرياضة. ومما يلفت النظر هو أن رياضة الرمى بالقوس والسهم منتشرة أيضًا بين حريم الأمراء.

وكان الفلاحون يمارسون رياضة التحطيب، والفائز منهم هو الذى كان يصيب رأس خصمه. وفى ذلك الزمن، كانت توجد رياضة تشبه رياضة التحطيب منتشرة فى إقليمى نورماندى وبريتانى بفرنسا. وهناك رياضة أخرى قريبة من التحطيب اسمها "لب الكاب": فيمسك المتبارى بهراوة فى يده اليمنى ويحمى ذراعه اليسرى بوسادة ، والفائز هو الذى يصيب ذراع خصمه فقط.

وكان المصارعون يدهنون أجسامهم بالزيت، ويحاول كل منهم الإمساك بخصمه وطرحه أرضًا، لكن المصارعين فى مصر كانوا أقل حيوية ومهارة من الأتراك والفرس.

٢- الزيارات الدينية :

كان الدافع الدينى هو سبب ذهاب المصريين إلى المزارات الدينية بالضبط مثل زيارة المقابر. ومن المعروف أن تعاليم القرآن تحتم على المسلم أداء فريضة الحج فى مكة لمن استطاع إليه سبيلاً.

وفى ذلك الوقت، كان السفر لأداء فريضة الحج عملية طويلة وشاقة وخطيرة ومكلفة ماديًا: فالسفر إلى مكة كان يستمر أكثر من شهرين وكان لابد للحاج من أن يحمل معه لوازم السفر الضرورية(٢٥)، وكان السفر يتم سيرًا على الأقدام أو على ظهر جمل ، ولم يكن من السهل اجتياز الصحراء: ففى الصيف، كانت الحرارة قاتلة ، وفى الشتاء، كان البرد قارسًا، وكان على الحجاج أن يتكبدوا مشاق الرحلة والاستيقاظ فى الفجر وهجوم قطاع الطرق – أحيانًا – والإرهاق الدائم.

ولحسن الحظ، كان لكل مجموعة "مطوف" مسئول عن أدائها لشعائر الحج. وبعد أداء المناسك، كانت رحلة العودة إلى الوطن لا تقل فى صعوبتها عن رحلة الذهاب.

وكان عدد كبير من الحجاج يلاقون حتفهم فى الطريق، خصوصًا كبار السن وضعيفى الصحة: فكانوا يدفنون فى مكان الوفاة. أما مَن يصل سليمًا، فكان يُستقبل بالاحتفالات وتهانى الجماهير التى كانت تغبطه لأنه أصبح يحمل لقب "حاج" وزار مكة والمدينة وسار على خطى الرسول، وهذا أفضل شىء فى الحياة.

ولم يكن الحج مفروضًا على الأقباط. ومع ذلك، كان الكثيرون يحجون إلى القدس، ويزورون الأماكن المقدسة لديهم، وكان ذلك يجلب لهم نوعًا من التقدير بين أفراد طائفتهم(٢٦).

---

(٢٥) يقصد "الزوّادة"[المترجم] .

(٢٦) زيارة المسيحيين للقدس الشريف تسمى (تقديس) والحاج المسيحى يطلق عليه لقب "المقدِّس"[المترجم] .

ج- المقاهى والمواخير:

١- المقاهى:

كانت المقاهى تؤدى دورًا اجتماعيًا مهمًا فى حياة المصريين، بالضبط مثل دورها فى فرنسا: فهى أماكن معتادة للقاء والتجارة والاستهلاك. ووصل عدد المقاهى فى القاهرة إلى حوالى ١٢٠٠ مقهى تقريبًا؛ وفى بولاق، يوجد حوالى ١٠٠ مقهى؛ وفى مصر القديمة، كان يوجد حوالى ٥٠ مقهى. وكان الرجال فقط هم الذين يرتادون المقاهى.

وهذه المقاهى لا توجد فيها طاولات ولا زينة: فهناك أريكة خشبية طويلة تمتد بطول الحائط. وعلى الأرض، يوجد حصير مصنوع من سعف النخيل وسجاجيد رديئة الصنع، ونصبة خشبية. وفى أحد الأركان، يوجد موقد وبعض الكنكات وفناجين ولوازم القهوجى الضرورية. ويجلس الزبائن متربعين على الأريكة.

ويقدم القهوجى القهوة المغلية فى فناجين صغيرة بدون مقبض وموضوعة فى ظرف. وهذه الفناجين المصنوعة من الخزف أو الصينى مستوردة من ألمانيا. وكانت إضافة السكر على القهوة تكاد تكون مجهولة لدى المصريين ؛ ولذلك سخر القاهريون من الفرنسيين عندما رأوهم يضعون السكر فى القهوة[٢٧]... لكنهم قلدوهم بعد ذلك.

ويستهلك المصريون كميات كبيرة من البن. والقهوة ذائعة الصيت تستقبل من ٢٠٠ إلى ٢٥٠ زبونًا يوميًا، ويستهلك كل زبون فنجانين أو ثلاثة فناجين. ويتراوح ثمن الفنجان من ١ إلى ١,٥ مدينى ، ويستهلك بعض المصريين حوالى عشرة فناجين وربما أكثر يوميًا. ويدفع الأغنياء بسخاء للقهوجى ويقدرون أهميته.

ويُقدم القهوجى لزبائنه الشبك ذى المبسم المصنوع من الألباستر أو العظم، ويُحضر كل زبون تبغه الخاص معه. وكما نعرف، فإن المصريين لا يتحركون إلا ومعهم شبكهم الخاص بكل منهم.

---

(٢٧) ربما نجد هنا تفسيرًا لعادة البعض الذين يشربون القهوة السادة ويرتشفون معها مشروبًا باردًا ومسكرًا (الخروب أو التمر هندى أو عصير الليمون) وكذلك عادة البدو فى تناول التمر أو العجوة مع القهوة العربية المرَّة [المترجم] .

واشترى أحد الملتزمين التزام المقاهى والإشراف عليها. وبالتالى، فإن على كل قهوجى أن يدفع للملتزم - فى بداية كل عام - مبلغًا يتراوح ما بين ١٠ و ٤٠ مدينى، مع استثناء الأكثر فقراً من الدفع. ويستطيع أى شخص أن يفتح مقهى لكنه لا يستطيع أن يشعل فيها ناراً إلا بموافقة الملتزم الذى كلفته الشرطة بالإشراف على المقاهى ، وكذلك يجب على الملتزم أن يسلم للعدالة من يخالف التعليمات.

ولتسيير شئون المقهى، يجب أن يكون لصاحبها قدر من المال يتيح له العناية بالأثاث وشراء رطلين بن يوميًا - على الأقل - والخشب للنار، ومرتب العامل. وحالة القهوجى قد تكون بائسة أحيانًا، ولذلك فإننا نجد مقاهى مفروشة للإيجار مقابل ١٠ أو ١٥ بارة يوميًا، وإصلاح أثاثها يكون على حساب المستأجر بالطبع.

وتبيع بعض المقاهى الحشيش والأفيون لزبائنها مع نوع من المعجون المخلوط بالزيت[٢٨]. والزبائن الأكثر فقراً يتعاطون هذه المخدرات التى ينكرها الدين وإن كان القانون يسمح بها آنذاك. ويذكر أحد الشهود أن ثلثى الحرفيين يتعاطون المخدرات فى المقاهى بينما يتعاطاها الثلث الباقى فى المنازل. وتلقى الشرطة القبض على المساطيل وتعاقبهم عندما يثيرون ضجة تقلق الجيران؛ أما من لا يثيرون أى إزعاج، فإنهم يسلون الناس بسطلهم الوقتى.

ولكل مقهى راوٍ للسيَر خاص بها، وهو الذى يجذب الزبائن إليها بروايته للقصص الحقيقية - أو الموضوعة - عن الأبطال الذين سجلوا أسماءهم فى صفحات التاريخ العربى. وينشد الراوى: سيرة عنترة وأبو زيد الهلالى سلامة والظاهر بيبرس ... إلخ ، وهو يعزف على ربابته. ويقبض أُجرته من القهوجى، لكنه يكتفى عادة بلم النقطة من المستمعين. ويأتى الموسيقيون والمغنون - أحيانًا - لتسلية الزبائن.

وبعد استقرار قوات الحملة الفرنسية فى القاهرة، بدأ بعض الفرنسيين فى فتح مقاهٍ لاستقبال الجنود. ولقد سبق لنا وأن ذكرنا أَن ترجمان الضابط الفرنسى - قائد حى سيدنا الحسين - قد فتح مقهى فى نفس الحى كان يرتادها كثير من الجنود

(٢٨) يقصد "المنزول" أو "المعجون" [المترجم] .

الفرنسيين ويقضون فيها جزءًا من الليل. وذكر الجبرتي – مستنكرًا – أن الضابط نفسه كان يحضر إلى هذا المقهى "مع زوجته التي كانت من القاهرة". وكانت "قهوة الجيش المنتصر" تقدم عروضًا تمثيلية، وقدمت أحيانًا حفلات ليلية راقصة.

وعلى الفور، افتتح الأجانب – خصوصًا الأروام – مقاهي على النمط الأوروبي في العاصمة كان يرتادها الأوروبيون وجنود الحملة الفرنسية. وفي هذه المقاهي الأوروبية، كانت المشروبات غالية الثمن ولكن الزبائن اعتبروا النبيذ رخيص الثمن عندما كانوا يدفعون ١٠ فرنكات فرنسية للزجاجة الواحدة. ولكن ج. مواريه(J. Moiret) اشتكى من أن النبيذ كان من الصنف الرديء أو المغشوش. ومع ذلك، كان رواد هذه المقاهي يستمتعون بسماع الموسيقى والأغاني الفرنسية.

وكانت محالات بيع الخمور بالقطاعي توجد بأعداد كبيرة في حي "باب اللوق"، وهو الحي المخصص للبغاء في تلك الفترة. وبالإضافة لبيع الخمور والعرقي، كان الزبون يستطيع شرب "الجَمَل" وهو مزيج رهيب من الخمر والحشيش...

وبعد ثلاثة أشهر من الاحتلال الفرنسي، بدأت لعبة البلياردو – الموجودة في المقاهي الإفرنجية – تثير اهتمام الجميع حتى المصريين. وقدمت المقاهي – ذائعة الصيت – لزبائنها الألعاب الجماعية مثل: الشطرنج والضامة والطاولة والمنجلة. وهذه اللعبة الأخيرة هي نوع من لعبة "الأويلي" (Awele) الأفريقية وتلعب على لوحتين بهما ستة خانات. ومهارة اللاعب تكمن في تغيير الخانة بعدد معين من القواقع أو أحجار اللعب الصغيرة.

وفي أركان الشوارع كان يُرى أُناس منهمكين في لعب "السيجة" بينما يفضل آخرون لعبة "جوز ولا فرد"...

٢- المواخير:

كانت توجد بالقاهرة والإسكندرية والمراكز بيوت للدعارة والعاهرات، بالإضافة إلى من يسرحن منهن في الشوارع. وسنقتطف من كتاب الكونت دانتراج الفقرة

التالية: "كان مكاننا فى نهاية الصف بعد الراقصات وبجوار راقصات قرية "المكتوبة" المشهورة فى مصر بأن كل نسائها العربيات لا يمارسن أى مهنة سوى الرقص والدعارة. وقدمت تلك الراقصات لنا عرضًا فى غاية الغرابة يثير فزع عجائز الناسكات. وكانت أشهر هذه العاهرات يركبن جمالاً ووجوههن مغطاة بحجاب أسود طويل، وعلقت كل منهن على حجابها الكثير من "السكين": وهذا هو الثمن المحدد الذى يجب دفعه للواحدة منهن مقابل خدماتها. ومن المؤكد أن هؤلاء النسوة يلتزمن بالأجر الذى حددته لهن "المعلمة". فالمرأة التى علقت على حجابها ٢٠٠ سكين لن تسلم نفسها أبداً بأقل من هذا السعر. وكان عدد هؤلاء النسوة المغطيات بهذه الطريقة يبلغ ١٨ امرأة، وهن لا يرقصن إلا أمام الباشا (أو الكيخيا أو البك) ولا يكشفن وجوههن إلا فى خيمته.

"أما النسوة اللاتى استهلكن جمالهن فى الملذات اللاتى قدمنها للعامة، تلك النسوة اللاتى لم يعد لديهن إلا جاذبية ذابلة، ولم يعد أمامهن سوى ممارسة الرقص، فكن يسرن على أقدامهن، مكشوفات الوجوه، ويرقصن طول الطريق، ويمارسن الدعارة مع أى شخص يدفع لهن ريالاً واحداً، وتنتهى حياتهن بهذه الطريقة. وهن مصابات بكل أنواع الأمراض ونادراً ما يعشن إلى ما بعد سن الأربعين.

"ومن تستطيع منهن مقاومة كل هذه الآلام، وتصل إلى ما بعد سن الأربعين، فإنها تصبح فى هذا السن "معلمة" وتقوم بتعليم فتيات صغيرات السن فنون الشهوة الحسية. وكل تلك النسوة ذوات قوام بديع للغاية، لكن لون بشرتهن النحاسية، وذقونهن ذات اللون الأزرق (بسبب الوشم) يُبعد الأوروبيين عنهن.

"وكان رجال الباشا غير مكترثين تماماً بوجودنا وغير متضايقين منا. وفى وسط الطريق، كان أحد العبيد – فى أحيان كثيرة – يعطى للمرأة التى تعجبه قرشًا، ويقتادها بعيداً على الطريق بخطوتين ويخلع حجابها وملابسها ويضاجعها تحت أنظارنا".

وأبدى ج.م. مواريه فزعه من انتشار البغاء فى القاهرة، وذكر أنه – فيما يختص بالملذات الحسية – لا نستطيع ممارسة أى شىء مع نساء البلاد. ومع ذلك، فبيوت

البغاء موجودة لكن قذارتها ورطانة البغايا تقضى على شهوة أكثر الرجال مجونًا. فلابد إذن من ضبط النفس على الرغم من قوة الشهوة وحرارة المناخ.

لقد كان ج. مواريه رجلاً متذوقًا للجمال ومرفهًا، لكن جنود الحملة لم يكونوا مثله، ولذلك كانت العواقب وخيمة للغاية بالنسبة لهم. ولاحظ قائد حامية القاهرة – الجنرال دوبوى – هذا الانتشار الرهيب للأمراض السرية بين جنوده فاشتكى من هذه الظاهرة للمشايخ.

وعندما عرف بونابرت بهذا الخبر، طلب من أغا الانكشارية اتخاذ الإجراءات الضرورية للحد من العدوى: وفى الليلة نفسها ، قطع الأغا رءوس ٤٠٠ من البغايا ووضع جثثهن فى أجولة وألقى بها فى النيل. وغضب بونابرت من هذا التصرف لأنه لم يأمر أبدًا بإعدام البغايا. فجاءه الرد التالى: "لقد كان من المحتمل تنفيذ حكم الإعدام فى تلك النسوة المسلمات إذا كن قد ألحقن الأذى بالفرنسيين بدون أن يتورطن معهم. لكن بما أنهن قد تدنسن وأسلمن أنفسهن للكفار، فإن هذا الفعل يُعَد جريمة يعاقب عليها القرآن بالموت..."

وتجدر الإشارة إلى أن تلك النسوة كن منضمات لطائفة خاصة بهن – كما يحدث فى أى إدارة حقيقية – ويخضعن لسلطة "شيخ" طائفتهن الذى يدفع الضريبة المهنية للسلطات مثل زميله "شيخ" طائفة اللصوص.

وهناك جنود فرنسيون تزوجوا من مسلمات بعد نطق الشهادتين فقط ، وفى البداية، كان آباؤهن معارضين لهذا الارتباط لكنهم – بعد ذلك – وافقوا على هذه الزيجات المؤقتة(٢٩) التى يتسامح فيها الإسلام.

---

(٢٩) يقصد "زواج المتعة" [المترجم] .

الخاتمة

هل استفادت مصر شيئًا من مرور بونابرت وقواته وعلمائه بها ؟؟ علينا – قبل كل شيء – أن نلاحظ أن بونابرت لم يزر كل أنحاء مصر أثناء وجوده على ضفاف النيل: لقد عرف الدلتا لأنه عبرها بقواته وذهب إلى منطقة السويس ليعرف مسار القناة القديمة التى كانت تربط النيل بالبحر الأحمر. وكان يدرك جسامة المهام العسكرية والإدارية الملقاة على عاتقه، ولذلك استقر فى القاهرة ولم يخرج منها إلا لزيارة أهرامات الجيزة.

ومن المؤكد أنه قد أُتيحت له الفرصة للتجول فى القاهرة والتحدث مع أعيانها يوميا. لكنه كان يطلع على التقارير التى كان يرسلها له ضباطه الذين أُرسلوا فى مهام إلى مختلف أقاليم مصر ، كما أطلع على تقارير المدنيين الذين عينهم فى رئاسات الإدارات المختلفة ، وتابع كذلك نشاطات أعضاء "المجمع العلمى المصرى".

وبِنَاءً على أوامر بونابرت، رسم كفاريللى (Cafarelli) مخططات الطرق والقنوات، وأحصى دولوميو(Dolomieu) المعادن الموجودة فى مصر، ودرس جوفرواسان – هيلير النباتات والطيور البرية، ورمَّم لوبير (Lepère) وجيرار (Girard)الآبار ومجارى المياه، وتفرغ پوسييلج (Poussièlgue) ولاسكاريس(Lascaris) وف. دى بارادى (V. de Paradis) لدراسة النظام المالى والقضائى والدراسى للمصريين. وأعطى بونابرت توجيهاته المحددة بخصوص تنظيم فيضانات النيل، ووضع مشروع "شق قناة برزخ السويس" قيد الدراسة.

وأجرى بونابرت مناقشات طويلة مع علماء الأزهر، خصوصًا مع الشيخ الشرقاوى، بهدف التقريب بين المصريين والفرنسيين. لكنه لم يستطع أن يخدع أحداً بخصوص نواياه. وجعل بونابرت أعيان المصريين يشتركون فى مسئوليات الحكم، وحدد امتيازاتهم ومرتباتهم ، ولم يخش من تكليف إبراهيم أغا وحسن شوربجى بقيادة حاميتى "السويس" و"العطفية" ومنحهما رتبة رائد وبذلك يكون قد درب المصريين[1] على القيام بدورهم المقبل كإداريين، مع تمييزه ما بين العرب والأتراك.

كما شهدت الحياة المادية تحسنا: فالصناعة الفرنسية قد جلبت معها أدوات وأساليب تقنية حديثة كان المصريون لا يعرفون عنها شيئا. ومن الأدوات الحديثة، نذكر: العربة الصغيرة ذات العجلة الواحدة (التى تستخدم فى نقل الأتربة أو مواد البناء وغيرها)، والفارة الكبيرة (لتقشير لحاء الخشب)، والماسة (لتقطيع ألواح الزجاج)، والمعجون (لتثبيت ألواح الزجاج فى النوافذ) ... إلخ.

ومن الأساليب (التقنيات) الحديثة، نذكر: تطوير الآلات بشكل عام، خصوصا آلات تصنيع المعادن وتطريقها (لصناعة قطع النقود)، وسَبك المدافع، وإنتاج الأسلحة النارية. وكان لإدخال طواحين الهواء أثر كبير فى صناعة طحن الدقيق لأنها قللت الجهد المبذول وزادت – فى الوقت نفسه – من الإنتاج بشكل أفضل من استخدام الدواب. وستطبق هذه الطاقة الجديدة – طاقة الريح – فى مجالات صناعية أخرى.

وعرفت أشغال الخشب أساليب جديدة فى طرق التركيب مثل طريقة "ذكر ونتاية" (التعشيق)، وطريقة "الحد المائل" التى تطبق فى نشر الخشب وفى أعمال التطعيم. وعرفت النجارة صناعة جديدة هى صناعة الأثاث: الطاولات والكراسى والدواليب ... إلخ وعرف المصريون صناعة الأقفال الحديدية، والبارود ذا النوعية الجيدة.

وعندما استخدم الحرفيون المصريون أساليب العمل الجديدة، اعتادوا على العمل وهم "وُقوف" مما ضاعف من قوتهم وحركتهم. وبفضل نصائح خبراء "المجمع"، عرف الجناينية فن تشذيب أشجار الفاكهة ، ومختلف أنواع التطعيم، وكذلك جنى الفواكه والخضر عند نضجها.

---

(١) سبق لنا وأن علقنا على هذا الرأى موضحين أن لقبى "أغا" و"شوربجى" لم يكونا من ألقاب المصريين بل كانا لقبين تركيين يحملهما موظفون أتراك [المترجم] .

أما أكثر المصريين تفتحا ذهنيا، فقد دخلوا مكتبه ومعامل "المجمع" واحتفظوا بذكريات هى خليط من: الدهشة والرهبة والإعجاب. واستطاعوا إدراك مدى الهوة التى تفصلهم عن علوم ومعارف الغرب الحديثة رغم رفضهم الاعتراف بذلك.

وهكذا، فإننا نلاحظ أن الجبرتى وجد نفسه فى مواجهة مشاكل ثقافية وأخلاقية عويصة أثارها احتلال الفرنسيين لمصر: لقد اعترف - مُرغمًا - بأن الفرنسيين يحملون فكرًا ، ولديهم سلوكيات تعطيهم تفوقًا ملحوظا وهيمنة لا تُنكر على خصومهم، وتميزهم عن المصريين. إن مواقف الغزاة الفرنسيين قد أجبرت الجبرتى (ومعه جميع العقول المستنيرة) على الشك فيما كانوا يعتقدون بأنه ثابت أبداً، فبدأوا يشكُون فى الفكر الدينى المتحجر.

وفى مجال آخر، الزمن مثلاً، لاحظ المستنيرون المصريون أن الفرنسيين لا يعتبرونه دورة مغلقة ترجع بانتظام إلى مصادر "الكتاب"، بل إن الزمن طريق مفتوح يصل الماضى بالمستقبل.

وأيضًا، فإن الحرية مبدأ من السهل قبوله. وفى الواقع، فإن التردد أمام القضية التى حركت الأذهان - فى القرون الأولى للإسلام - أى "قضية الجبر والاختيار" كانت قد حُسمت[٢]، لكن الفرنسيين كانوا قد فَضلوا "الاختيار". وبالإضافة إلى ما سبق، فإن هؤلاء الفرنسيين أنفسهم قد ثاروا على حكم الطغيان والاستبداد وأزالوه باسم "الحرية". ولكن الباحث الشرقى ظل يرفض مفهومى " تحرير المرأة" و"المساواة بين المسلمين وغير المسلمين".

وأخيرا، وبشكل مادى، فإن الشرقيين الذين التحقوا بالجيش الفرنسى قد دخلوا مدرسة هذا الجيش وهم يجهلون كل شىء عنها - تقريبًا - سوى أنها سحقت المماليك، وأحرزت انتصارات باهرة ضد قوات معادية تفوقها عدداً. وكانت عناصر هذه الانتصارات تكمن فى: سلوك الأفراد، والاستراتيجيات التى وضعها قادة الجيش

---

(٢) حسمت فى الشرق لصالح "الجبر" [المترجم] .

الفرنسى الذين درسوا فى "مدارس الحرب"[٣] وكان يجب على المصريين أن يتذكروا ذلك ويستفيدوا منه.

وفى الجانب الشرقى أيضا، فإن الحملة الفرنسية على مصر قد أرست أسس الفرانكوفونية الأنيقة والدائمة لمدة طويلة قادمة. إن الفرانكوفونية - فى مصر - تحتفل بمرور قرنين على وجودها ، واليوم يعتبر بطرس بطرس غالى هو رمزها.

إن السفر المفاجئ لقائد الحملة قد ترك أعضاءها فى وضع غير مريح. وبالتأكيد، فإن كليبر ومينو قد سارا على النهج نفسه الذى رسمه بونابرت، لكن الوقت والوسائل لم تسعفهم لتحقيق كل المشاريع التى تم التخطيط لها. ومع ذلك، فقد نشر الفرنسيون الكثير من الأفكار السياسية والاقتصادية والاجتماعية والإدارية والتقنية، بل وبدأوا فى تحقيق بعضها ، لكن كان على المصريين وحكامهم أن يستوعبوها وأن يبحثوا عن طريق الاستقلال والتقدم.

لقد بقى تعبير من آثار الاحتلال الفرنسى لمصر يعبر عن الانطباع العميق الذى تركه مرور الفرنسيين على ضفاف النيل: فمازالت الأوساط الشعبية تقول "كلام فرنساوى" بدلاً من "كلام دوغرى" (أى كلام صادق وصريح)، وذلك للدلالة على احترام الوعد والوفاء به[٤]. ألا يعتبر هذا التعبير مجاملة وتحية لبونابرت ورجاله على الطريقة التى تصرفوا بها تجاه المصريين ؟؟

---

(٣) نعتقد أن المؤلف يبالغ كثيرا فى هذه النقطة ويُضفى عليها بُعدا فكريا لم يَدُر فى خَلَد هؤلاء "المرتزقة" الذين التحقوا "بالفرقة الأجنبية" الفرنسية مقابل امتيازات مادية (برجاء مراجعة ملحوظتنا رقم "١٣" فى الفصل الثانى) [المترجم] .

(٤) لم نسمع أبدا - فى أى حى شعبى - هذا التعبير، بل سمعنا فى طفولتنا - فى الأحياء الشعبية - تعبير "كلام إنجليز" بنفس المعنى الذى ذكره المؤلف هنا [المترجم] .

قائمة المراجع

Abd al - Rahman Al- Djabarti: *Journal d'Abdel Rahman Gabarti pendant l'occupation française en Égypte suivi d'un précis de la même campagne par Mo'llem N. Turki, traduit de l'arabe par A. Cardin*, Paris, rue Jacob No 19, 1838.

Abd al - Rahman Al- Djabarti: *Journal d'un notable du Caire traduit et annoté par J. Cuoq*, Paris, A. Michel, 1979.

Anonyme : *Preuves de l'histoire de la maison de Menou, Paris*, F. Didot, 1852, P. 88-92.

Antès, J. C. : Observations on the manners and customs of the *Egyptians* (...), London, Stockdale, 1800.

Baldwin, G. : *Political recollection relative to Egypt* (...), London, T. Cadell , Jun & W. Davies, 1801.

Beaugé, Ch. : *Les inscriptions des soldats de Bonaparte sur les monuments d'Égypte*, **Bulletin de la Société des Ingénieurs coloniaux,** (1924), P. 263 passim .

Benoist - Méchin *Bonaparte en Égypte*, Lausanne, Clairefontaine, 1966.

Berque, J. : *Le Coran* (traduction), Paris, Sindbad, 1991 et Albin Michel, 1995.

Blanchet, P. : *La Monnaie du Caire pendant l'occupation française,* Extrait des Procès-verbaux de la Sté de Numismatique française, 1908.

Boissy, L. de : *Bonaparte au Caire*, Paris, Rondonneau, An VII (1799).

Boustany, S. : *The Journal of Bonaparte*, Cairo, Al-Arab Bookshop, 1971-1977, 10 Vol., (Édition Fac-simile de Journaux, proclamations et ordres du jour).

Bregeon, J.N. : *L'Égypte française au jour le jour*, Paris, Perrin, 1991.

Breton, R. : *L'Égypte et la Syrie ou moeurs, usages, coutumes et monuments des Égyptiens* [...], Paris, A. Nepveu, 1814, 6 Vol.

Canivet, G.R . : L'Imprimerie de l'Expédition d'Égypte, **Bulletin de l'Institut Égyptien,** 5e Série, t. III, 1909, P.1-22 .

Canivet, G.R. : *l'Expédition d'Égypte (la bibliothèque de l'Expédition d'Égypte),* **La Revue Internationale d'Égypte**, t. I, No. 4-5, 1906, P.113-127 .

Caquin, Ch. : *Les édifices chrétiens du Vieux-Caire*, Le Caire, **I.F.A.0.**, 1974.

Cass, L.F. : *Voyage pittoresque de la Syrie, de la Phoenicie, de la Palestine et de la Basse-Egypte* (...), Paris, Imp. de la République, An VI (1799).

Charles-Roux, F. : *Bonaparte, gouverneur d'Égypte,* Paris, Plon, 1935.

Cherfils, Chr. : *Bonaparte et l' islam*, Paris, A. pedone, 1914.

Clément, R. : *Les Français en Égypte au XVIIe et XVIIIe siècle*, Le Caire, **I.F.A.O.**, 1961.

Collins, F. : *Voyage ... to Egypt...from 1779 to 1781*, London, R. Phillips , 2nd ed., 1809.

Denon, V. : *Voyage en Basse et Haute Égypte...* Paris, Gaugain, 2e édition, 1829, 2 Vol.

De Pietro, D. : *Voyage historique en Égypte*, Paris, Lhuillier, 1818.

Desgenettes, R. : *Histoire médicale de l'Armée d'Orient*, Paris, Didot, 2e édition, 1830.

Desgenettes, R. : *Rapport sur le Moristan ou Hôpital du Caire, in* **La Décade Égyptienne**, Vol. I, 1799, P.279- 293.

Entraigues, Cte d' : *L'Égypte galante (Janvier - Fevrier 1779),* Bruxelles, Édition de la Nouvelle Revue de Belgique, 1942.

Fenoyl, M. et Montgolfier, E. de : *Coutumes religieuses coptes*, Le Caire, Institut Copte, 1953.

Galland, A. *Tableau de l'Égypte pendant le séjour de l'armée française, Paris, Cérioux*, An IX (1803), 9 Vol.

Geiss, A. : *Histoire de l'imprimerie en Égypte*, **Bulletin de l'Institut Égyptien**, 5e Série, t. I, 1907, P.133-157 et t. II, fasc. 7, 1908, P.195- 330.

Geoffroy Saint-Hilaire, E. : *Letters écrites d'Égypte* (présentées par Hamy), Paris, Hachette, 1901.

Gisquet, J.H. : *L'Égypte, les Turcs et les Arabes*, Paris, Amyot, 1848 , 2 Vol.

Godechot , A. : *La vie quotidienne sous le Directoire*, Paris, Hachette, 1977.

Guémard, G. : *Une oe u vre française. Les réformes en Égypte d'Ali bey el-Kébir à Mohamed-Ali, Le Caire*, P. Barbey, 1936.

Guémard, G. : *Les Orientalistes de l'Armée d'Orient*, **Revue de l'Histoire des Colonies**, No 1, 1928.

Hamy, E.T. : *Sur les ruches en poterie de Haute-Égypte*, Paris, Picard & Fils, 1901.

Hanna, N. : *Habiter le Caire - La maison moyenne et ses habitants au XVIIe et XVIIIe*, Le Caire, I.F.A.O., 1991.

Hanoteaux et autres : *Histoire de la nation égyptienne* (t.IV par G. Wiet), Paris, Plon, 1935.

Hermant, G. : *L'Égypte en 1798 d'après le le journal de H.J. Redouté*, Paris, **Revue politique et littéraire (Re vue Blanche)**, de décembre 1894 à mars 1896.

Homay, G. : *Le général Jacob*, Marseille, Bergerac éditeur, 1921.

Ivray, J.d' : *Bonaparte en Égypte*, Paris, Lemerre, s.d.

Jallois, P. : *Journal d'un ingénieur attaché à l'Expédition d'Égypte*, Paris, Leroux, 1904.

Jomard, E. : *Coup d' oeil impartial sur l'état présent de l'Égypte, comparé à sa situation antérieure*, Paris, Béthune & Plon, 1836.

Jomard, E. : *Relation de l'expédition scientifique des Français en Égypte*, Extrait de l'Encyclopédie des Gens du Monde, XIV, 2, P.749 Passim.

Jonquière, C. de la : *l'Expédition d'Égypte*, Paris, Publications de la Section historique de l'?tat-major de l'Armée, 5 vol., 1899-1907.

Kléber, J-B. : *Correspondance*, Le Caire , I.F.A.O., 1988.

Kléber, J-B. : *Journal autographe du général Kléber*, Le Caire, Imprimerie Nationale, 1859.

Lacorre, A. : *Coup d' oeil sur l'Égypte et la Palestine*, Bordeaux, Brossier, 1807.

Lacorre, A. : *Journal d'un commis aux vivres pendant l'Expédition d'Égypte*, Bordeaux, Crugy, 1852.

Lacroix, U. : *Bonaparte en Égypte*, Paris, Garnier, 1899.

Laissus, Y. : *Monge et l'Expédition d' Égypte*, Paris, Revue de Synthèse, 1962, P.313 Passim.

Lane, E.W. : *An account of the manners and customs of the modern Égyptians*, London, Knight publisher, 1837. Nombreuses rééditions.

Larrey, D.J. : *Relations historiques et chirugicales de l'Expédition d'Égypte*, Paris, Demonville, 1803.

las Cazes, D. : *Mémorial de Sainte-Hélène*, Paris, E. Bourdin, 1842.

laurnes, H. et autres : *L'Expédition d' Égypte*, Paris, A. Colin, 1989.

Legrain, G. : *Où vécurent les savants de Bonaparte*, Le Caire, Tribier, 1913.

Legrain, G. : *G. A. Villoteau, musicographe*, Bulletin de l'Institut Égyptien, 5e Série, t. IX, 1917, P. 1-3.

Magallon : *Mémoires sur l'?gypte (9 Février 1798)*, Le Caire, La Revue d'?gypte, III, 1896, P. 203-224.

Marcel , J. J. et Ryme, A. : *L'Égypte depuis la conquête arabe jusqu' à la domination française, par J.J. Marcelì sous la domination française* par A. Ryme, Paris, Firmin-Didot, 1848.

Maunier, R. : *Bibliographie économique, juridique et sociale de l'Égypte moderne (1798 - 1916)*, Le Caire, Sté Sultanienne d'Economie Politique, 1918; Supplément par G. Guémard in revue L'?gypte contemporaine, N° 85, Mars 1925, P. 240- 260.

Millet, I. : *Relation de F. Millet, soldat de l'armée d'Égypte*, Mémoires de l' Académie Nationale des Sciences de Caen, 1880.

Miot, J. : *Mémoires pour server à l'histoire de l'Expédition d'Égypte*, Paris, Demonville, 1804.

Olivier, G.A. : *Voyage dans l'empire othoman*, Paris, H. Agassi, An IX-XII, 4 Vol.

Raybaud, L. et autres : *Histoire scientifique et Militaire de l'Expédition d'Égypte, Paris* , A.J. Denain , 1830-1836, 11 Vol.

Raymond, A. : *Artisans et commerçants du Caire au XVIIIe siècle*, Damas, I.F.D., 1974.

Raymond, A. : *Le Caire sous les Ottomans (1517-1798)*, Paris, C.N.R.S., 1983.

Raymond, A. : *Le Caire*, Paris, Fayard, 1993.

Richardot, Cl. : *Nouveaux mémoires sur l'armée française en Égypte, en Syrie* [...], Paris, J. Corréard, 1848.

Savary, C. : *Lettres écrites d'Égypte*, Paris, Onfroi, 1785, autre édition 1798.

Turc, Nicolas : Chronique d'Égypte, le Caire, publication de la Librairie privée de S.M. Farouk Ier, 1950.

Viaud, G. : *Les pèrlerinages coptes en Égypte*, Le Caire, I.F.A.O., 1979.

Villiers du Terrage : *Journal et souvenirs de l' Expédition d'Égypte*, Paris, Plon-Nourrit, 1899.

Volney, C.F. : *Voyage en Syrie et en Égypte pendant les années 1783, 1784 et 1785.*, Paris, Volland Deseme, 1787.

Wiet, G. : *Fêtes et jeux au Caire*, **Annales islamologiques VIII** (1969), p .99-129.

Wilson, R.T. : *History of the british expedition to Egypt*, London, C. Roworth, 1802.

Youssef, A. : La Fascination de l'Égypte, Paris, l'Harmattan, 1998.

عبد الرحمن الرافعي: تاريخ الحركة القومية، مكتبة النهضة، القاهرة، ١٩٢٥ ,

أعمال جماعية :

Description de l'Égypte, Paris, Imprimerie Nationale, 9 in-Folio, 14 Vol. de planches, 1809-1813. Edition Panckoucke 1821-1829.

Correspondance inédite et confidentielle de Napoléon. [...] en Égypte [...], Paris, Panckoucke, 1819-1820.

فهرس الصور

جميع الصور الواردة فى هذا الكتاب مأخوذة عن :

١- كتاب :

La Description de L' Égypte (1803 - 1813).

٢ - كتاب :

D. Vivant-Denon : *Voyage en Haute et Basse Égypte (1802).*

٣ - كتاب :

M. Breton : *L' Égypte et La Syrie* (1814) .

المؤلف فى سطور:

چان چاك لوتى

- ولد چان چاك لوتى فى چنيف بسويسرا .

- عضو "بأكاديمية علوم عَبر البحار" .

- حاصل على درجة الدكتوراه فى تاريخ الفن ، ودرجة "دكتوراه الدولة" فى فقه اللغة المُقَارن .

- أثناء زيارته لفرنسا ومصر والسويد مارس : التدريس والتجارة والصحافة والترجمة الفورية .

- قام بالتدريس فى جامعات القاهرة وستوكهولم وكذلك فى "اتحاد الدراسات" فى السويد .

- ألف ١٥ كتابًا عن : الفن ، والأدب الفرانكوفونى والإثنولوچيا (منها ٨ كتب عن مصر الحديثة) .

- اشترك فى مؤتمرات دولية عديدة خاصة بالآداب وعلم اللغويات .

* ألف عدة كتب عن مصر الحديثة منها :

١ - مدخل إلى الأدب المكتوب باللغة الفرنسية فى مصر .

٢ - لمحات عن الصحافة المصرية المكتوبة باللغة الفرنسية فى مصر .

٣ - اللغة الفرنسية فى مصر .

٤ - خمسون عامًا من الأدب الفرنسى فى مصر .

٥ - على خطى إميل برنار .

٦ - ماذا فعلت مصر باللغة الفرنسية ؟؟

٧ - مصر فى عهد الملكية (١٩٢٢ - ١٩٥٣) .

٨ - الحياة اليومية فى مصر فى عهد الخديوية (١٨٦٣ - ١٩١٤) .

* ألف وترجم عدة كتب عن اللغة السويدية بالاشتراك مع آخرين .

المترجم فى سطور :

ناجى رمضان عطية

- ولد فى القاهرة - فى حى الجمالية - سنة ١٩٥٠ .

- حاصل على ليسانس الآداب - قسم اللغة الفرنسية وآدابها - كلية الآداب - جامعة عين شمس سنة ١٩٧٤ .

- حاصل على عدة دورات تدريبية لتدريس اللغة الفرنسية من مصر وفرنسا .

- حاصل على عدة دورات فى الآثار المصرية والإرشاد السياحى .

- عمل مدرسًا للغة الفرنسية فى المدارس الثانوية فى جمهورية مصر العربية ودولة الإمارات العربية المتحدة .

- عمل مترجمًا للغة الفرنسية فى جهاز الاستخبارات العامة بالملكة العربية السعودية .

- يعمل حاليًا مرشدًا سياحيًا ومترجمًا حرًا .

- عضو بالجمعية المصرية للدراسات التاريخية .

- ترجم عدة كتب (منها للدكتور السوربونى) :

١ - المسألة المصرية من بونابرت حتى سنة ١٩١٩ (مجلة مصر الحديثة ، عدد ٦)

٢ - نشأة الروح القومية المصرية (المشروع القومى للترجمة ، عدد رقم ١٠٣٥) .

٣ - الإمبراطورية المصرية فى عهد إسماعيل (تحت الطبع) .

٤ - الإمبراطورية المصرية فى عهد محمد على (تحت الطبع) .

المراجع فى سطور :

أ . د أحمد زكريا الشِّلق

– أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر بكلية الآداب جامعة عين شمس .

– من مواليد طنطا ١٩٤٨ .

– يعمل حاليًا وكيل كلية الآداب – جامعة عين شمس .

– حاصل على الدكتوراه فى عام ١٩٨١ ودرجة الأستاذية فى عام ١٨٩٣ .

حصل على جائزة الدولة للتفوق فى العلوم الاجتماعية فى عام ٢٠٠٦ .

– عضو العديد من اللجان العلمية .

– رئيس تحرير "سلسلة مصر والنهضة" التى تصدر عن مركز تاريخ مصر المعاصر دار الكتب والوثائق القومية .

– من أهم مؤلفاته : حزب الأمة – حزب الأحرار الدستوريين – الحداثة والإمبريالية – الشيخ مصطفى عبد الرازق ومذكراته – أحمد فتحى زغلول .

التصحيح اللغوى : **ياسر مكى**

الإشراف الفنى : **حسن كامل**



هل توجد ضرورة لإصدار كتاب جديد عن الحملة الفرنسية على مصر؟ ليس بالضبط، لأن هذا الكتاب يتناول هذه الفترة ولكنه يدرس - بشكل مفصل وأكثر دقة - الشهور الثلاثة عشر التى قضاها بونابرت فى مصر.

وحاول المؤلف أن يرسم الصورة التى كوّنها بونابرت عن الحياة اليومية فى مصر كما رآها بنفسه، وتحديداً فى القاهرة. وفى الوقت نفسه، كان المصريون يراقبون - بتحفظ وشك- الچنرال وجيشه وعلماءه الذين قلبوا بأعمالهم عادات المصريين فى التفكير والعمل.

لقد أدخل الفرنسيون أدوات وتقنيات جديدة للعمل فى مصر (المطبعة والمكتبة...) إلا أن المصريين رفضوا كل ما جاء به الفرنسيون، ولم يكونوا مستعدين لتقبل هذا الكم من الأشياء الحديثة. وتطلب الأمر مرور أربعين سنة لكى يستطيع محمد على وضع أقدام المصريين على طريق التحديث.

تصميم الغلاف: أحمد بهاء الدين